

صبري موسى

Amly

# فساد الحكمة

الرواية الفائزة بجائزة الدولة

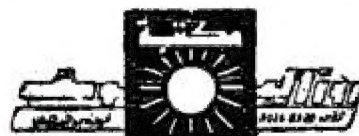


هبری موسی

# فساد الأمكنة

Amly

فبرایر ۱۹۷۶



## هذه الرواية :

فى ربيع عام ١٩٦٣ ، أمضيت فى جبل « الدرهب »  
بالصحراء الشرقية قرب حدود السودان ، ليلة ، خلال رحلتى  
الأولى فى تلك الصحراء ٠٠ وفى تلك الليلة ولدت فى شعورى  
بذرة هذه الرواية ٠

ثم رأيت الدرهب مرة ثانية بعد عامين ، خلال زيارة  
لضريح المجاهد الصوفى أبى الحسن الشاذلى المدفون فى قلب  
هذه الصحراء عند « عيذاب » ٠  
وفى تلك الرؤية الثانية للدرهب أدركت أننى فى حاجة  
لمعيشة هذا الجبل والإقامة فيه ، إذا رغبت فى كتابة هذه  
الرواية ٠

وقد وافقت وزارة الثقافة على تفرغى من نوفمبر عام ١٩٦٦  
الى نوفمبر ١٩٦٧ للأقامة فى الصحراء حول الدرهب ٠٠  
للتفكير ومحاولة الكتابة ٠٠٠

ولكننى بدأت فى كتابتها وعام ١٩٦٨ فى أوله ٠٠ ثم  
انتهيت منها وعام ١٩٧٠ لم يبدأ بعد ٠  
وقد نشرت مسلسلته بمجلة « صباح الخير » الأسبوعية خلال  
عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ٠ ثم نشرت طبعتها الأولى كاملة فى  
العدد ( ٢٠٤ ) من الكتاب الذهبى الذى صدر فى يوليو ١٩٧٣  
وفى عام ١٩٧٤ فازت « فساد الأمكنة » بجائزة الدولة  
التشجيعية للرواية ٠٠

وفزت أنا بوسام الجمهورية للفنون ، من الطبقة الأولى ٠

اسمعوا منى بتأمل يا أحبائى . فالى منيكم  
اليوم فى وليمة ملوكية . سأضعكم نيب عد  
جبيا لم يعهده سكان المدن . بينما أحرك  
أرغن لسانى الضعيف وأحكى لكم سيرة ذلك  
الأساوى نيكولا .. هذا العجوز الذى أعطته  
أمه اسم قديس قديم حين ولدته فى ذلك  
الزمان البعيد ، فى بلدة لم  
يعد يستطيع أن يتذكرها  
الآن .. ذلك الذى كانت  
فاجعته فى كثرة اندهاشه ،  
وكان كل شىء يحدث أمام  
عينيه جديدا يلقاه بحب  
الطفل ، لدرجة أنه لم  
يتعلم أبدا من التجارب !



## الدرهيب ملمح شبه نهائى ؟

لو أتيح للملمح أن يكون مرثيا لطائر يحلق عاليا ، محاذرا فى دورانه المغرور أن تصطدم رأسه المريشة بقمم الصخور ونتوءاتها ، لرأى الدرهب هلالا عظيم الحجم ، لابد أنه قد هوى من مكانه بالسما فى زمن ما ، وجثم على الأرض منهارا متحجرا ، يحتضن بذراعيه الضخمتين الهاليتين شبه واد غير ذى زرع ، أشجاره نتوءات صخرية وتجاويف ، أحدثتها الرياح وعوامل التعرية خلال آلاف السنين . .

ولعل ذلك الطائر المرتفع لو دقق البصر وحده ، يرى نيكولا العجوز ، ذلك المسمى بأسم قديس ، عاريا هناك تحت شمس أغسطس الجهنمية . . وسط ديكور فيج ، من بازلت وجرانيت ، وأحجار أخرى بحرية وبحرية متكلسة . . تشكل وهادا أحيانا وتلالا أحيانا . . يقف هناك نيكولا ، كما قرر لنفسه ، على قمم خادعة متزلجة ، مؤرجحا على حصى دقيق من الأسبستوس وبلورات الرخام ذات الأسنة القاطعة . . والقواقع المهشمة من مليون ألف عام . .

يفت هناك نيكولا الذى لا وطن له .. عارب ومصبوب على عراج  
المتأجج الحرارة وحده .. تلمحه ريح الصحراء عارمة بين حن  
وحين .. فلا يمكنه أن يدخر منها ملء قبضته ..  
كذلك يفعل نيكولا كل يوم ! ..

وباستطاعه ذلك الطائر - وليكن واحدا من تلك الصقور  
الشرقية البنية الريش ، الصفراء المخالب والمناكير - أن يراه كل يوم  
فى نفس الميعاد ، على صليبه المتخيل والحتمى معا ، لو جاء محلقا فوق  
الدرهيب خلال رحلته من بشر شلاتين وجبل الأبرق ، وعبر القمم  
المتألقة بياض الريش فى جبال زرقة النعام .. الى وليمة الجثث فى  
وادي الجمال حيث تموت انثيات الابل أحيانا من عنف الجماع .  
ولكن .. حتى الصقور نفسها تمتنع عن الطيران والشمس فى  
كبد السماء .. وهكذا يبقى نيكولا يمارس طقوس عذابه وحده ، غير  
مرئى الا من السماء التى بهتت وأقشعرت وتحيرت جدا ، من هول  
أفعاله التى يستعيدنها فى رأسه ! ..

وما تكاد الشمس تنحرف عن مجلسها العمودى فى رحلتها  
التأنيئة الى الغرب ، فى ذلك الفراغ الصحراوى المضمخ برائحة الجبال  
المزهوة بعريها تحت الشمس ، وتكون الصخور الحمراء قد بدأت  
تشع لهما .. والصخور السوداء تكون قادرة على طهى الخبز .. عند  
ذلك يدرك نيكولا المأساوى أنه غير جدير باحتمال العذاب بهذه  
الطريقة .. فيدحرج جسده العارى من القمم المتزلجة هابطا الى مأواه  
فى بطن الدرهيب .. ليواصل الطقوس بطريقته الاخرى .

فى بطن الدرهيب يختلف الأمر ..

فالمكان هنا حافل بمخلوقات البشر .. حيث يتقوس باطن  
الدرهيب .. وتنحدر قمته الى السفح ، عند المنتصف تقريبا ،  
تستوى الأرض وتصبح ممهدة .. شبه دائرة أولا حيث أقيمت  
البيوت الخشبية ودورة المياه .. ثم تنبعج الدائرة الممهدة .. مكونة  
فناء أمام البهوت الثلاثة تتناثر فيه بقايا الخشب وعادم الآلات ويقع  
الزيت السوداء وبراميل الصاج .. وينبعج الفناء مكونا دربا ضيقا  
يصعد حيناً ثم يبدأ فى الغوص بين الصخور .. يغوص ويغوص ،  
حتى يصبح نفقا منحوتا مكشوف السقف على الفضاء .. وحينئذ

يواجه المرء فوهة الدرهيـب ٠٠ مدخله ٠٠ الباب الذي يقود الى كنوزه  
وجواهره ٠

لكن الكنوز والجواهر قد أصبحت مهجورة حين حمل الجميع  
متاعهم عن الدرهيـب ورحلوا ، فما عاد باستطاعة أحد أن يهبط فى  
جوفه الآن سوى نيكولا الوحيد ٠٠ ففي الجوف طرق طويلة وممرات ،  
وغرف على الجانبين ٠٠ وميادين ٠٠ على عمق ألف متر من ذلك المدخل  
المسحور ٠٠ وعلى امتداد عشرات الكيلو مترات ، فى تلك الأنفاق التى  
تنسدها قضبان حديدية تسير عليها عربات نقل الأحجار والحامات  
رسمها نيكولا كلها وخططها بعقله الخبير ٠

لقد وقف هنا نيكولا فى جوف الدرهيـب ملايين المرات على مدى  
السنين ٠

فى السرايب الحارة والسرايب الباردة ، فى الكهوف البيضاء  
المظلمة بالأخضر الشديد القنامة ، فى ذلك المناخ الثلجي حيث تحيط  
به وكأنها سيوف مشرعة أسنان خامات تلك الشمعية التكوين ٠٠  
وقف نيكولا الطيب ورسم للرجال ممرات أقدامهم فى جوف  
الدرهيـب العظيم ٠٠ بل أنه جعلهم يلمسون قلبه الداخلى بأيديهم  
الحسنة ٠٠ ومع ذلك رحل الجميع ، تاركين خلفهم ما ثقل عليهم حملة  
وفكروا لجراتهم أن يأخذوا نيكولا معهم ! ٠

ويبصق نيكولا من فمه ترابا صحراويا حملته الريح ، ويلعق  
حلقة الجاف بلسانه الجاف ويبرطم بلكنة ركيكة سسابا عربيا وهو  
يتأمل الفناء المخرب والمهجور أمام البيوت حيث كانوا يروحون  
ويجيئون ، يعملون ويأكلون ويلعبون الورق ويشربون صاخبين أو  
شاكين همومهم ٠٠

لقد أخرجوا جميعا محاسنهم ومبازلهم وقدموها على تراب هذا  
الجليل وصخوره ، قرايين فطنة وخلاعة ٠٠ فما أغباهم حين يهجرون  
أرواحهم الحقيقية ويرحلون ٠  
لكن تلك طبيعة الأشياء ٠

فهم قد جاءوا كثيرا ٠٠ ورحلوا كثيرا ٠٠ ودائما كانوا قادرين  
على أن يأخذوا أرواحهم الحقيقية معهم ٠

ودائما كان يبقى نيكولا مع الدرهيـب وحده ٠

لقد هربوا .. جميعهم هربوا ..

يقولها نيكولا محتدا ، ثم يلين صوته ، وترق نبراته ، وكأنه  
يجنو على جنبهم وفراهم .. وكأنه موقن أن طاقته على الاحتمال  
فوق طاقتهم ، وأنهم فى النهاية أحرار مستقلون عن المكان لا يشدهم  
إليه ذنب أو تربطهم به خطية .. فليس منهم من ضاّج أبنته فى  
باحة هذا الجبل ، وعلى وسادة من صخور ، وأولدها طفلا ، ثم سرقه  
منها وهي نائمة ليطعم منه الذئب والضيع ! .

وليس منهم من قاد تلك الأبنة فى سراديب الجبل المظلمة  
ودهايلزه الحارة والباردة ، ومضى يدفعها أمامه فى مسيرة جنائزية  
حتى تنتهى السرايب المطروقة وتبدأ السرايب المهجورة ، تلك التى  
لم تطرقها قدم من مئات السنين ، فيتركها هناك بعد أن يغلق عليها  
كهفا بانهييار صخرى غادر .

لقد صرخت إيليا وهي ترى الصخر ينطبق على باب الكهف  
ويحبسها بداخله .. وأخذت تهبش الصخور فى محبسها المظلم  
بأظافرها الجذابة الملونة ، بينما صرختها تتسرب عبر السرايب  
وتتردد فيها حتى بعد أن أمتلا حلقها بتراب الأنهييار ، وكفت عن  
هبش الصخور وبدأت تهبش فى عنقها الجميل بأظافرها الجميلة ،  
قبل أن تسكن حركتها ، كانت الصرخة ماتزال تتردد فيسمعها  
نيكولا خلال هرولته المذعورة فى السرايب ، كأنها تطارده لتمسك  
به وتعيده الى إيليا .. وكأنما الألم المنعم واليأس والدهشة فى تلك  
الصرخة المفجوعة تعاتبه وتدعوه للبقاء معها .. كأنها تلوح له بعالم  
مسحور هما كفيلاّن بخلقه فى تلك الصخور الصماء ليعيشاه معا ،  
جنباً الى جنب كما كانا دائما .. رجل وأبنته .. أو رجل وأمه ..  
أو رجل وأمرأته المعشوقة والمفضلة ! .

فأين لهؤلاء الهاربين جميعاً رباط دموى كهذا يمنعهم من  
الفرار ؟ .

يتوجع نيكولا وهو يلوى رقبته ، ويزيح العرق المترب الذى  
ينثال غزيراً من جسده العارى المترب بكفه الكبير المتربة ، فيصبح  
التراب ملء مسامه جميعاً .

وبينما الشمس تصبغ الفناء أمام البيوت الخشبية بضوئها



النارى ، فيبدو التراب والرمل رماد أحترق صخور هذا الفناء بذلك الضوء النارى .. يدلف نيكولا الى بيته الخشبي .

فان صحبناه راينا البيت غرفة واحدة ، فى جانب منها سرير حديدى من ذلك النوع الذى يستخدمه مرضى المستشفيات ورجال التعدين وضباط الجيوش ، وفى الغرفة كثير من الأحجار المختلفة او الادوات التى توحى بحياة متطرفة لمهندسى المناجم .. وعلى الجدران الخشبية خرائط للصحراء .. ولم يكن نيكولا قد بلغ طعاما فى يومه ذاك ، يتذكر ذلك حين يرى على المائدة الحديدية علب السمك المحفوظ ، فيزعم شفثيه مقطبا وكأنه يرفضها .. ويتناول زجاجة الحمر فيجدها فارغة .. وكان قد تناولها بالأمس ووجدها فارغة أيضا وسوف يتناولها بعد حين ويجدها أيضا فارغة .. فكيف تجيء الحمر الآن فى هذا الفراغ !؟

يكون نيكولا العجوز مايزال حافى القدمين .. جسده الأوروبى الأصل قد أكتسب سمرة غامقة أصيلة ، وشعر رأسه الغزير قد أبيض تماما وصار فى لون القطن ، ولم يكن نجولا كما أنه لم يكن سمينا .. فمد يده الى زجاجة السبرتو الأحمر ، وصب منها فى جوفه جرعة ، فاشتعلت النار فى داخله .. وضغط بذراعيه على صدره وبطنه حتى لا يتلوى من ذلك الألم الذى يعرفه جيدا .. لكن بعد قليل يغيب الألم ، ويصعد بخار التخدير الى عقله المضنى ! .

ومشى نيكولا الى رقعة الشطرنج على مائدتها الخشبية الصغيرة فحملها وخرج بها الى الفناء ، وكانت على الرقعة بعض قطع الشطرنج بلونيهما القديمين الأحمر والأسود ، باقية فى أماكنها من دور بداء نيكولا منذ يومين فأخذ يتأملها وهو واقف فوقها عاريا .

كان الملك الأحمر يواجه تهديدا مباشرا من الوزير الأسود فى حماية الفرس .. وكان الملك الأسود يواجه تهديدا غير مباشر لكنسه قاتل من الطابيتين الحمراوين .. وكان الأسود غالبا ، واللعب للأحمر .. فمد نيكولا يده وهرب بالملك الأحمر الى بيت فرسه .. ثم أستندار وعاد الهجوم على الملك الأحمر بالطابية السوداء من بيتها تحت الوزير .. ووقف يفكر عاريا ، ثم تراجع بالملك الأحمر الى ثانى فيله .. وظل نيكولا يهجم ، ويستدير ليووجه الهجوم ويتملص منه

ولم يكن بذلك يتسلى أو يقطع الوقت .. فهو نفسه اللاعب والحصم هو الأحمر والأسود معا ! .

ويدخل نيكولا بيته الخشبي بين نقلتين على الرقعة ، فيجرع من السميرتو جرعه أخرى ، ثم يخرج الى الفناء يتلوى ليواصل الهجوم والصد كما قرر لنفسه في طقوس عذابه .. لكن النتيجة كانت معروفة وحتمية ، فلا بد للدور من مهزوم فى النهاية .. وكانت عظمة نيكولا فى أنه يعرف تلك النتيجة سلفا ، ومع ذلك يواصل اللعبة !  
ما أغرب تلك الرقعة ، تجرى عليها تلك القطع المنحوتة بصورة تماثيل للناطق والساكن على درجات ومراتب ، فالشاه فيها هو الملك ، والفارس والفيصل مركوبان له ، والفارس وزيره والرخ أو الطابية حصنه وملجأه ، أما البيادق فرعاياه .. يخرجون جميعا من كيس واحد . الشاه والفارس والفلاح .. فيحظى كل منهم بنصيبه حسب قدره وقدرته .. وكان قدر نيكولا هو الفشل ، ولهذا كان الفشل نصيبه .. وها هو على صليب عذابه الخفى يواصل هذا الفشل المقدر ويكرره . كأنه ذلك الأغريقى القديم ، يزحف بصخرته صاعدا القمة المستحيلة ، فما يكاد يعلوها حتى تسقط الصخرة ، فيعاود الهبوط ليصعد بها .. ويظل كذلك حتى تختفى الشمس فى الغرب تماما .. ويزحف اللون الأسود كثيفا على أصفر الصحراء وأحمرها وأخضرها فيكسوها جميعا .. ويتحول الحر اللافح الى نسيم لافح ثم الى برد لافح . وتصبح الجبال اشباحا خرافية فى ذلك المدى اللانهائى .. وتتعدز الرؤية على نيكولا فيحضر بطانية ويلتف فيها ، ويقبع مسندا ظهره الى صخور الدرهيب التى بدأت فى التشلج ، حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ بأحمراره القرنفل الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب .. ويبدا المشتري فى الغرب يتأرجح بعيدا فوق صحراء ليبيا .. فيسبح عقل نيكولا فى المملوكوت ! .

## الفصل الثانى

كانوا يتحدثون عن الوطن فيتحسر نيكولا ، الذى لا وطن له ،  
وينزوى منكسرا منسحبا من الحديث ٠٠ فأى وطن ذلك الذى يمكنه  
أن ينتسب اليه ٠٠؟!

لقد هاجرت عائلته وهو طفل فى العاشرة من احدى المدن  
الروسية الصغيرة ٠ وأستقر أبوه فى اسطنبول طيبيا لالاسنان ،  
وكان ذلك آخر ما يعلمه عنه ٠ بينما كان يقطع الأرض مهاجرا ، دائما  
مع أخويه ، فيترك كل واحد منهما فى مكان ٠

لقد سرق نيكولا المعرفة من بحر التجوال ، لكن ثمن هذه  
المعرفة كان فادحا ٠٠ فعلى مدى عشرين سنة أخرى كانت خطابات  
أخويه قد فقدت طريقها اليه فلم تعد تستطيع متابعته فى تلك الهجرة  
الدائمة ٠٠

وكان قد استقر استقرارا جزئيا فى احدى المدن الايطالية  
حيث تعرف على امرأة فى جانب من المدينة ٠٠ وتعرف بأحد مهندسى  
التعدين فى جانبها الآخر ٠

كانت المرأة قوقازية مهاجرة .. نحن الحلقة الثالثة من عمرها مسلحة بجمال حاد ، يأخذ الحواس ويغمرها برجفة نشوة موعودة ، عند الرؤية الأولى . وكان هو في ذلك الوقت مولعا بالنساء .. كان ولعه بالنساء أبرز ما فيه ، ومع ذلك كان هذا النوع مشوبا بنعومة أو ترو ، يكاد يشبه العفة ، وكان ذلك متناقضا مع ما حوله في مكان من الأرض معبأ باليود .. يسميه الجغرافيون حوض البحر الأبيض مكان من الأرض تعتبر المرأة فيه علفا لأسماك الشبوة .. ولعل ذلك قد أصبح حكما تاريخيا الآن ، فلقد أصبحت المرأة علفا لأسماك الشبوة المستوحشة في كل مكان ..

قالت له القوقازية ، سأكررك يا نيقولا ، واسمرك في الأرض بهذا التكرار .. ولن أجعلك قادرا على هذا التحليق المستمر من مكان الى مكان .

لعل عفته المزيفة هذه قد جذبتها .. قد اشعلت طاقاتها وحفزتها للحصول عليه .. كان دائما يحلم مع كل منهن بحب نادر وتفاهم يبلغ حد الكمال ، لدرجة ان يكون بإمكانهما التحليق معا في سماء الامكنة جميعا ، التحليق الدائم ، وليس الانزواء في برائن دفء مكان واحد ، وأمنه وراحته .

لكن جناحين أكثر حرية وانطلاقا من اربعة اجنحة .. فلا يملك حبه قبل ان يتبلور سوى أن ينقلب الى صداقة عميقة وحزينة لم يكن بوسع واحدة منهن فهمها .. فكان يصبح صداقة من طرف واحد وحبا من طرف الآخر .. فاتاح له هذا تحررا شبه كامل من المكان .

ولعل هذا التناقض هو الذي جذب اليه ايليا الاولى « زوجته » تلك القوقازية المهاجرة ، التي تعرف بها في احد شواطئ إيطاليا ، تنصب الفخاخ للعشاق ، مسلحة بجمال حاد يغمر الحواس برجفة نشوة موعودة ، عند الرؤية الاولى .

كانت تدير مطعما مع ابيها على الشاطئ ، وكان ابوها جلفا غليظ الخلق ، يضربها امام الزبائن .. وحين جاء نيكولا يطلب عملا في ذلك المطعم اعطته نفسها .. لم يكن قد مر على التحاقه بالعمل ساعات ست أو سبع .. ولم يكن قد تعرف بعد على فراشه الجديد

فى مؤخرة مخزن الادوات بالمطعم حينما اقتحمت ايليا خلوته واعطته  
جسدها للمرة الاولى . . لكنها لم تستطع ان تمتلكه بتلك الطريقة  
. . كان جسده معها وروحه تحلق بعيدا متطلعة الى امكنة جديدة  
ومتنوعة لم تحلق فيها بعد بينما هى تحسده عن المطعم ومشروع  
الكازينو الذى تحلم به عاليا على تلك الصخرة المطلة على الشاطئ  
مغمورا فى أضواء خافتة ، يهجع بينها العشاق تحت اشجار صناعية  
يتبادلون هواهم المشبوب الذى يبدو لهم لا نهائيا .

كان الاستقرار مسعاها ومأملها ، وكان هو شابا لين المبادئ  
لم تنضج احكامه بعد . . فرضخ لها وتزوجها ، فأنجبت له ايليا  
الصغرى .

قالت له : سأكرر يا نيكولا وانجب من صلبك ولدا يسمر في  
الارض ويثقل اجنحتك عن الطيران .  
لكنها انجبت بنتا . . ولم يجد هو ما يعوضها عن حبه الذى  
تحول الى صداقة سوى ان يكررها . . فسمى البنت ايليا .

وأصبحت له فى الحياة امرأتان تسميان ايليا . . تربطه بهما  
مشاعر صداقة عميقة فشلت فى ان تكون حبا . . احدهما زوجته ،  
والثانية ابنته .

وحين بدأت ايليا الكبرى ترسم الخطط للتخلص من ابيها الذى  
يقف عقبة امام مشروعاتها فكرت فى الاستعانة بنيكولا ، قالت له ان  
ضربة على مؤخرة الرأس لن تضر أحدا . . وستريح العجز من كل  
تعبه الذى يتعبه تحت الشمس فيذهب الى ملكوت الرب اللانهائى  
مصحوبا بدعواتهم واعترافهم بفضلهم واربعيته اذ يترك لهم هذا  
الراسمال الممتاز يصنعان به مستقبل ايليا الصغيرة .

لكن نيكولا فى تلك الايام كان يكثر من لقاء صديقه مهندس  
التعدين المغامر وكان صديقه يلوح له بأرض عظيمة ذات تاريخ  
حافل ، يشقها النيل ويمتد بها الى حافة البحر قادما من صحارى  
هائلة ، بهما جبال تحوى انواعا متنوعة من كنوز المعادن . . ارض  
لا يحكمها اهلها . ينزح اليها كل راغب فينقب ويعثر ، ويستخرج  
ترخيصا للحفر ، فيصبح مالكا لواحد من هذه الجبال العظيمة التى  
لا يملكها حتى الان أحد .



فأستولى الجموح على نيكولا واخذ يحلم بنفسه مالكا جبلا  
يؤكد تفرده في ذلك الكون الواسع .  
كان رأس العموز والد زوجته قد اصبح على بعد خطوة واحدة  
من ضربة المؤخرة التي تحمله الى ملكوت الرب ، عندما نكص نيكولا  
على عقبيه ، وارتد الى صديقه المغامر فركب البحر معه مبحرين الى  
الشمال .. تاركا وراءه امرأته الصديقتين اللتين تسمى كل منهما  
ايليا .

هل مضت على ذلك الان خمسون سنة .. ام اربعون .  
هو الان عبر هذا الزمان الطويل الماضى يدرك وهو يطل من  
عزلته الشاهقة فوق الدرهب انه قد رسم لايلى الصغيرة صديقه  
الحبيبة ، ابنته .. دون ان يعتمد ذلك او يقصده .. مستقبلا  
مناقضا لهذا الذى كانت تحلم لها به امها ، ايليا الكبرى .

بل انه رسم لها ايضا تلك النهاية التعسة .. حية وميتة فى  
الوقت نفسه .. فى كهف مهجور ومغلق بالصخور فى الاحشاء  
العميقة لهذا الجبل .. الذى يمم وجهه تجاه الصحراء مع صديقه  
المغامر ، المهندس ماريو ، وهو يحلم بامتلاكه ..  
والان .

ها هو نيكولا المأساوى يمتلك جبلة فعلا .. فأى ثمن رهيب  
ذلك الذى دفعه فيه ؟  
كانت الجبال منطوية على أسرارها والصحراء غامضة مغلقة  
على سكانها من قبائل البجاة .. اقدم شعوب افريقيا الذين جاءوها  
من آسيا .. أقارب نيكولا واصهاره القدامى ، الذين يرجح الرواة انهم  
فى الغالب من سلالة كوش بن حام ، الذين هاموا على وجوههم بعد  
الطوفان .

كانوا وثنيين الى ان جاء الاسلام فاعتنقوه لكنهم ظلوا على  
بداوتهم ، ولغتهم ، ليكونوا جديرين بذلك العناد التقليدى المشهور  
عنهم .. فعلى الرغم من قسوة الحياة فى الصحراء ، وجذب الوديان  
معظم الحول ! وجفاف الابار .. الا انهم ظلوا لاصقين بصخور هذه  
الجبال فى اصرار ، يتكاثرون فيها ، وينقسمون الى فروع وقبائل ،  
منها البشارية ، والعبادة ، والبوجوس ، وبنو عامر .. يتناثرون  
حول الابار والعيون الباقية على حالها من زمن الفراعنة واسلحتهم

سيف طويل ودرع ، ورمح أو خنجر .. وسيفهم مصنوع مثل  
سيف أسير من الحروب الصليبية ، يوسدون رؤسهم حينما  
يفترشون الأرض للنوم وسادة من خشب الشجر ، مصنوعة على  
عرار وسادة توت عنخ آمون الذهبية ، ويهيمن بين الجبال وراء  
الابل والغنم والعنز .. ويشدون خيامهم التي تصنعها نسائهم من  
سعف نخيل الدوم ، في مناطق الرعي على السهل الساحلي من بشر  
الشلاتين في أرض مصر الى حدود مملكة السودان .. ويقعون أمامها  
يسوون الحبز على الصخور ، ويرشفون القهوة السوداء المغلية ، بينما  
ترعى الابل نصيبها من نبت الصحراء العزيز الشحيح .  
وفي المواسم يرسلون القوافل الى السودان جنوبا ، أو قنا  
غربا ، فتبيع الابل والغنم ، وتشترى البقول والتبغ .. يتصل  
النجع بالنجع ويتحلق الرجال في شبه دائرة ويتفقون على المطلوب  
بيعه من الدواب ، والمطلوب شراؤه من التموين والزينة ، ثم يتهيا  
المندوبون فيتسلمون مقاود الابل ، ويقودون القافلة عبر الدروب  
المطروقة التي سواها اجدادهم القدامى بسعيهم المنتظم بين الجبال ..  
فيصلون قنا على النيل في خمسة ايام .. ويصلون جبال علبة المطلة  
على مشارف السودان .. في تسعة ايام او عشرة .

وحين يقترب ميعاد العودة يخرج البشاريون والعبادة وغيرهم  
معن بقى بالصحراء للقاء القافلة على الماركة .. يمضون وقتهم هناك ،  
يرصدون الافق .. عساهم يلمحون القافلة وهي تعود .. يكون  
الحرمان قد اضناهم ، والشوق الى الاشياء القادمة من وراء عالمهم  
يحرك فضولهم .. حتى تجيء القافلة فيقيمون الافراح داخل  
نفوسهم الشجاعة الصبورة ، ويطربون .. وتصبح الصحراء حضرا  
كاملا اذا جاءت القافلة بالسجائر والعطور والبقول والحلاوة !  
في واحد من تلك الايام البعيدة والبدو قاعدون مربعين على  
الماركة في دوائر ، أو جالسون ركعا على الركبتين كركوعهم للصلاة  
أو مائلين على ركبة واحدة .. يرصدون الافق في انتظار القافلة وهي  
تعود .. دخلت الصحراء قافلة تضم عددا من الحواجات والبكوات  
والمهندسين ، تحفها كوكبة من هجانة سلاح الحدود مسلحة بالبنادق  
والسياط ، احاطت بهم واخذت منهم بعضا كادلاء لها بين الجبال ..  
ثم مضت تقيس هذه الجبال وتفحصها وتسألهم عن اسمائها وتسجل  
هذا كله في اوراقها على مدى حول .

ثم ذهبوا جميعا عن الصحراء وغابوا حولا آخر . جاءت بعده قافلة ثانية محملة بالمعدات وبدأت تنقب داخل هذه الجبال كأنها تبحث عن كنز .

كنز مهم وغامض لا يعرف البدو عنه شيئا ، وهم يعيشون بجواره طول الوقت .

استولى الفضول على البدو فى مبدأ الامر . لكن فضولهم لم يكن ضارا ، فهم بطبيعتهم ينفرون من الغرباء . . . فيتجنبونهم . . . وعندما حاول هؤلاء الغرباء اشراكهم فى العمل معهم فى فتح الجبال رفضوا . . . كنوع متطرف من اعتزازهم بفرديتهم . . . بينما استبد الفضول ببعضهم فعملوا مع هؤلاء الاغراب كأدلاء . . . يقودونهم بخيامهم ومعداتهم فى دروب الصحراء المفسحة المفتوحة على الخطر طوال الوقت . . . الى جبال بعينها كان هؤلاء الغرباء يطلبونها بالاسم . . . كان معظم هؤلاء الاغراب خواجهات ، ليسوا من سلالة اجدادهم فى اعلى الجنوب ، ولا من سلالة احفادهم فى اقصى الشمال . . . انما هم غربيون حمر الوجوه . . . خواجهات جاءوا من وراء البحر الكبير المالح .

ومن خلال احتكاك هذه القلة الفضولية من البدو بهؤلاء الخواجهات ، انكشف السر وذاع ، واصبح معروفا للبدو ما تحويه تلك الصخور من خامات ، جاء هؤلاء الغرباء سعيا وراءها .

من سلالة هؤلاء الادلاء الذين باعوا لهؤلاء الخواجهات معارفهم الغريزية عن هذه الجبال التى ينتمون اليها . . . ولد ايسا . . . ذلك الذى قاد جمل نيكولا صامتا كأنه ينوء فى دخيلة نفسه باحمال فوق طاقته . . . بينما ذلك الخواجة الجديد يتأرجح فوق الجمل مبهورا كطفل . . . وهو يلاقى الصحراء لأول مرة .

لقد توقف ايسا مرتين فى ذلك الصباح القديم وهم يغادرون بيت الشيخ على فى مرسى علم ، متجهين فى الصحراء الى جبل السمكرى . . . توقف ايسا مختلقا عذرا ليختلس النظر الى نيكولا متأملا براءته وهو يحقق مثل طفل . . . مشغوبا بما تقع عليه عيناه من مشاهد الصحراء البكر .

ولعل ايسا احب نيكولا فى واحدة من هاتين المرتين المتين توقف فيهما ليختلس النظر .

كان الامر قد بدأ يستولى على اهتمامه منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره وقلدته القبيلة خنجرا اعترافا منها ببلوغه سن الرجولة . . من وقتها بدأ ايسا بفحص هؤلاء الغرباء ويرصد بحماس غريزى كل افعالهم .

فى ذلك الزمان القديم . . كانت الجبال قد بدأت تتجاوب بأصداء المطارق والمتفجرات ، وامتلات الكهوف بالعمال الذين ساعدت السلطة فى اجتلابهم من وادى النيل ليفتتوا الصخر فى المغارات تحت اشراف هؤلاء الخواجات الذين أقاموا عليها نوعا متناقضا من الحياة الاجتماعية ، كان يحير ايسا ويثير دهشته .

فبينما تربع الخواجات والمهندسون فى خيامهم الانيقة ، يخططون على الورق مداخل الكهوف والممرات . ريثما الطهارة يجهزون لهم الطعام المشوى والفواكه المحفوظة ، كان العمال فى هذه المغارات والكهوف يأكلون ما يصلب عودهم فقط تحت احمالهم الثقيلة . يشدهم الى هذه المغارات والكهوف ذلك الاجر المميز الى حد ما . . عشرة قروش ثمنا لقوى الرجل فى اليوم . . فقد جاءوا جميعا من تراحيل الريف حيث كانت تباع قوى الرجل بقرش او قرشين .

لقد رأهم ايسا مرة حينما زار منجما مع عمه الشيخ على ، كان صاحبه الخواجا قد طلبه فى عمل .

وصلوا المنجم فى الليل ، وكان الخواجا نائما ، فمالوا الى مساكن العمال لانتظار يقظته فى الصباح . . واضاء لهم مشعل الكربون المكان . فرأى ايسا امامه مساكن العمال فى شبه دائرة . . أكواخ من البراميل الفاسدة واغصان الجبل الجافة والاخشاب القديمة وبعض الصخور . بيوتا ملفقة واهية . . كان من الصعب عليه ان يتصور حياة بشرية تدب فى داخلها . . هو الذى ولد فى خيام من سعف الدوم . مفتوحة من جوانبها على السموات والوديان ، ويغمرها الضوء بنظافة فطرية .

ولشده ما اذهله بعد ذلك ان يرى اى نوع من العمل المعجز يقوم به سكان هذه الاكواخ . . فى سراديب هذه الجبال التى ينتمى اليها .

للك الصخور العظيمة والجبارة الموجودة بمكانها فى هذه

الصحراء من وقت لايعلمه أحد .. يفعل الزمن والجو فعله فيها فتتشكل وتتحول ، وتلد بداخلها عشرات الانواع من المعادن ، وآها ايسا بعينيه وامسكها بيده فوجد لكل معدن منها لونه الخاص وشخصيته .

فحينما تتبين المجسات وجود الحامة ، يبدأ هؤلاء العمال القادمون من الوادى فى الفحت داخل الجبل للوصول اليها ، وحينما يبدأون لا يعرفون متى التوقف ، يصبح جوف الجبل مباحا ، طالما عروق الحام تلوح لهم وتجذبهم .. كأنهم الات مسخرة لاستخراجها ، يحفرون الممرات للعبور ، ثم يمدون قضبان العربات الحديدية لنقلها خارج الكهوف .. الى حيث تحملها الجمال وترحل بها الى خارج الصحراء ..

عرف ايسا وتبين أى عمل بطولى يقوم به هؤلاء الرجال المجلوبون من وادى النيل داخل الكهوف والمغارات ، فعندما يرفع الواحد منهم مطرقته وهو على عمق اربعمائة متر او خمسمائة فى بطن الجبل ، يدرك جيدا ان من الممكن والمحتمل ان تتدخل فوقه الصخور وتتهار ، وتسد عليه طريق الحياة .

ولعل ذلك كله ، كان يحمل الى ايسا بذور همومه دون ان يدري ، فما من مرة يمر فيها على منجم أو يرى فيها خواجا او تعبر به قافلة جمال محملة بالخامات فى طريقها الى البحر حتى تثمر هذه البذور وتفرخ فى نفسه غضبا كظيما ، غضبا غريزيا ، يجعله يتساءل وهو محنق محير ، عن هذه الكنوز التى يجهد هؤلاء الرجال لاستخراجها من جباله الخاصة .. من عالمه وديناه .. من حق من ؟ .. من هو صاحبها الحقيقى فعلا ؟





## الفصل الثالث

يصعد الفجر الفضى من الوديان العميقة خلف جبال السكرى  
وحماطة وأبو غصون وسميوكى وزرقة النعام والابرق وجبل مصرار  
وغيرها ٠٠ ثم ينتشر على التلال والهضاب متسربا عبر ظلمة الليل  
الكثيفة فيبدها سحبا وتلافيف ، تأخذ فى التحليق فوق القمم  
المنبسطة والمدببة تجاه السماء الخالدة فوق الصحراء ٠٠ قريبة  
ومستحيلة .

ومع خيوط الضوء الاولى يعثر الفجر نيكولا فيوقظه .

يكون عاريا فى بطانيته الوحيدة ٠٠ ممددا على صخور  
الدرهيب التى تثلجت فعلا طوال الليل ، وبدأت الان تفرز انفاسها  
ندى رطبا ٠٠ فيتململ نيكولا متقلبا .

ثم يبهز نصفه العارى من بطانيته وهو ينهض بشعره الكثيف  
الابيض وشاربه الكثيف الابيض وحاجبيه الكثيفين الابيضين ٠٠  
ويفرك عينيه ثم يستقيم واقفا بينما تنساب بطانيته على الارض حول

ساقيه ، فيتمطى محركا اضلاعه ليوقظها . ثم يخطو عبر الصخور الصغيرة الى الفناء المهد امام البيوت الحشبية الثلاثة ، فيعبه الى بيته ، محاذرا في طريقه ان يقلب رقعة الشطرنج القائمة طوال الليل على قاعدتها الحشبية الصغيرة .

وينحنى نيكولا في جانب من البيت فيأخذ من برميل الماء كوزا ويملا به كفيه . ويسفحه على وجهه ورقبته ، ثم يأخذ كوزا آخر ويجرعه بشغف . . ويملا غلاية الشاي ثم ينحنى على كسر الحطب والخشب المكومة في حفرة بين صخرتين ، فينفض عنها الرماد ، ويعيد تنسيقها داخل الحفرة . . ثم يشعل فيها النار . . ويعلق الغلاية فوقها .  
وهكذا يبدأ نيكولا يومه .

سيكون الشاي المر افطاره . . وبعدها يبدأ زحفه المقرر الى قمة الدرهيبي قبل ان تكتسى سفوح الجبال بلون الذهب . . فلن تكون الشمس قد أطلت من وراء الافق الفضى بعد . وهكذا يكون نيكولا حاضرا حينما تتعري الصحراء قطعة قطعة في بشائر النور الذهبية . . عيناه تسبحان عبر السفوح والوديان قافزة فوق القمم ، وجسده عار حر تدغدغه نسيمات الصباح القادمة عبر السهول الجافة والسهول المزهرة ، محملة باريج بكر . . فيرتجف نيكولا بنشوة الشوق والشبع . . وتغمره السعادة .

فى تلك اللحظات البالغة القصر ، بين الصبح والفجر ، بين الذهبى والفضى . . قبل ان يبدأ نيكولا طقوس عذابه اليومية ، يكون مبتهجا فعلا . . يعاوده ذلك الشعور القديم الذى استولى عليه ، حينما دخل الصحراء لاول مرة .

فى شروق كهذا . . منذ خمسين سنة او اربعين ، ارتجف نيكولا ، واصطخب بداخله نوع من الشغف الرقراق ، الشغف الظامى ، للمستحيل . فظن ان باستطاعته ان يبحث بعيره فيخب به مسرعا تجاه الافق المنقسم بين الذهب والفضة ، ليمسك بقرص الشمس قبل ان يقفز مرتفعا فى السماء .

كان المشهد حوله اسطوريا وهو يتأرجح مرتفعا فوق جملة ، بجوار المهندس ماريو الذى يتأرجح مرتفعا فوق جملة أيضا .

وكانت وراءهم ثلاثة جمال اخرى . تحمل العمال والادوات  
والمثونة .

قال ( الباشا ) المصرى المسمى خليل . شريك مارىو ، ان  
بدو هذه الصحراء رعاة غنم وابل . . ويتأبون على العمل فى المناجم  
وأحضر لهم الباشا من صعيد الوادى حفارين ونجارين وناقلى حجارة  
حمل بهم جملا ، وحمل جملا آخر بالمثونة : الزيت والارز والدقيق  
والسمن والشاى والسكر والسمجائر . . وحمل الجمل الثالث  
بالأخشاب والبارود وأدوات الحفر والمقاطف ، وقال لمارىو : أنا أمول  
العمل . وانت تقوم بتنفيذه .

وهكذا أصبحا شركاء . . وبقي معهم على العشاء فى البيت  
الحشيبى اذى يملكه الشيخ على دليل الصحراء ، بمرسى علم ، فشوى  
لهم الشيخ سمكا كبيرا صاده صبيانه من مياه البحر الاحمر التى  
تصطفق حول جدران بيته الحشيبى . وكان الباشا قد أحضر معه  
زجاجتى ويسكى ، للاحتفال بالمناسبة . وبعد منتصف الليل بقليل  
نهض الشيخ على فأيقظ العمال والجمال . . وشدت القافلة رحالها  
فوقف الباشا يودعهم وهو يتمنى لهم التوفيق . . ولعله ساعتهما  
كان يحلم فى دخيلة نفسه بسبائك الذهب التى ستوالى هذه القافلة  
الصغيرة ارسالها بعد انتزاعها من برائن هذا الجبل المسمى  
بالسكرى الذهبين الان اليه .

كانوا جميعا يحلمون بالذهب بينما نيكولا مبهورا ، يحلم  
بالمعرفة فى بحر التجوال .

وعلى طول الطريق الذى قطعه بين الجبال فى ذلك الصباح  
القديم . . مروا بشجرتين أو ثلاث .

الشجرة تكون وحيدة فى الارض القفار فتصبح ظلا . فىفى ،  
البدو بأغنامهم تحت هذا الظل ويقيمون مسكنا من الحيش ، يهدمونه  
ويرحلون حين تعجز الأغنام عن ايجاد ورقة خضراء تأكلها .

ومن خلال بقع الظل هذه . كان يخرج لهم بين الحين والحين  
مخلوق يعترض القافلة وذراعه على عينيه . . ويهمهم بلغة غير  
مفهومة وهو يلوح لهم بسيفه الطويل الصدى . . فيصب له الشيخ  
على قليلا من الماء فى وعائه . ويعطيه سيجارة . فيقعى الرجل على

الارض ويأخذ في التدخين بنهم بينما يشيعة الشيخ قائلا : هذا من  
البشارية .. ويواصل السير .

يكون الرجل حافي القدمين .. مرسل الشعر على جانبي  
الرأس وخلفه حتى الكتفين مدهونا بمزيج من دهن الماعز وخشب  
الصندل ، على طريقة فراعنة طيبة القديمة .

قال له ماريو وهم يتعمقون طريقهم داخل الصحراء في ذلك  
اليوم : هؤلاء اقاربك يانيكولا وأصهارك .. ألم تكن زوجتك ايليا  
فوقازية مهاجرة .. هؤلاء أيضا مهاجرون من جبال القوقاز ، لقد  
جاؤا قديما عبر بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء ثم ساروا بمحاذاة  
الشاطئ الشرقي للبحر الاحمر حتى نهايته فعبروها الى اريتريا ..  
واستقر أكثرهم في صحراء السودان ومصر .. شرق مجرى النيل .  
فنظر نيكولا الى أصهاره الغامقى السمرة .. وتعجب من جلده  
الاوربي الابيض .

فقال له ماريو ان خمسة آلاف سنة من الهجرة تحت شمس  
افريقيا الحارة .. كفيلة بأن تحرق جلدك وتصبغه بلون البن  
الغامق .. لكن هذا الانف القوقازى لن يمنحى .. دقق النظر  
ستجده مطلا من وجوههم جميعا .. الا يشبه انف ايليا زوجتك ؟

كان ماريو قادرا على ان يكون ماجنا وجادا في نفس الوقت .  
وبين الحين والحين تبرز ، فجأة على طرف جبل أو حافة وادى ،  
كومة من العظام البيضاء .. أو غصن جاف ترفرف على أعلاه قطعة  
صغيرة من القماش .. هى علامات الموت فى الصحراء . يرقبها  
نيكولا ويرتجف مهابة .

ان كومة العظام كانت جملا ، يدقق فيها النظر فيجدها منهارة  
متناثرة .. فيعرف أن الموت قديم ، وأنه فاجأ الجمل وهو يمشى  
فتهالك على نفسه . وأحيانا يجد نيكولا ان الجمجمة مشرّبة ،  
تحملها عظام العنق فيعرف أن الجمل قد مات وهو جالس  
يتأمل هذه الصحراء فى عظمة . وأن جوارح الصحراء قد نهشت  
لحمه الميت لتبقى عظامه علامات ناصعة البياض على الصخور مئات  
السنين .

وحين يموت الرجل يوارونه التراب حيث مات •

قد يجدونه ميتا فوق صخرة ، أو على حافة سهل • متشقق  
القم من العطش •• مطفاً العينين من الحر والموت •  
وقد يعثرون به ميتا على الماركة ، بعد ان اضناه السير بحثا  
عن انسان أو حيوان ، أو صوت يهديه لنقطة من الماء •  
لقد جرب نيكولا الموت فى الصحراء ، حيث يضرب الانسان  
على غير هدى • بين الصخور باحثا عن الطريق والماء يوما أو يومين ••  
وفى اليوم الثالث أو الرابع يجد نفسه وحيدا معزولا فى جبال  
لا نهاية لها • وقد جف حلقه وجوفه ، وتشققت أطرافه وشفتاه ••  
فيخطف الرعب قلبه لكن غريزة البقاء تدفعه يمينا ويسارا منتقبا عن  
بئر •• يزحف ويزحف حين يعجز عن النهوض •• ثم بالتدريج  
يفقد طعم العطش •• ويصبح من الصعب ان يتنفس من حلقه الجاف  
فيتأرجح بين الغيوبة والوعى •• ثم ينزل على الارض ويتنازل عن  
النهوض •

يومها قال نيكولا لنفسه : لقد فعلت ما استطعت فعله ، وليس  
لدى أى أمل الآن سوى أن أموت فى هدوء •• وأغمض عينيه لينال  
السلام •• ثم فتحهما بعد ذلك ليجد إيسا قائما عند رأسه ملثم  
الوجه ، ممتشقا سيفه ، يصب فى فمه الماء من كيسه المصنوع  
من جلد الشاة •

كانوا قد استقروا فى جبل السكرى وأقاموا الحياة حول فتحة  
المنجم القديم المهجور •• وانتشر العمال يمهدون الطريق القديم ••  
ثم نزلوا الى السراذيب يجسسون الصخور الداخلية بحثا عن عروق  
المرو التى تحتوى بها ذرات الذهب •

فى تلك الممرات تعلم نيكولا اسرار التعدين •• وعرف أنه لن  
يكون أول المعدنين ولن يكون آخرهم ••

فها هى السراذيب المهجورة تحكى له قصص الفراعنة القدامى  
الذين كانوا أول من استخرجوا الذهب من الصخور ، وبعدهم ينجى  
الرومان والعرب •• بل أنه من هذا المنجم بالذات •• كان محمد على  
والى مصر • يرسل عماله الالبسان فيحضرون له ثمانية أرتال من  
الذهب كل شهرين • !



وكانت هذه المعلومات تملأ قلبه بالحماس .

وحين شاهد احجار الكوارتز وهى تصحن وتمر فى الطواحين  
ثم تغربل . . وشاهد ذرات الذهب وهى تلتصع متبلورة على  
الصوانى النحاسية خلال عملية التنقية بالزئبق . . توهج بداخله  
ذلك الشعور العظيم بالانتصار .

وبدا يفكر فى تلك الذرات وهى تتكاثر وتندمج تحت الضغط  
فى سبيكة . ثم تذهب الى مكتب الباشا فى القاهرة .  
لكن السبيكة لم تذهب الى مكتب الباشا فى القاهرة .

كانت كبيرة وثقيلة . فتركوها فى البوتقة الجرانيتية خلال  
الليل . . وفى الصباح لم تكن موجودة .  
ولم يكن ايسا مشغولا بفكرة الحق والعدل على المستوى  
العقلى . ولم تكن بذور همومه قد أثمرت بعد اتجاهها بعود قواه  
الخطيمة . . عندما قاد ثلاثة من رجاله شاهرين سيوفهم ورماحهم ،  
وتسللوا الى منجم السكرى ، وخلعوا سبيكة الذهب التى تزن  
رطلين من بوتقة البازلت والجميع نيام . فدسها ايسا فى كيسه ثم  
اختفى مع رفاقه فى ليل الصحراء .

انما هو نوع من الغضب الغريزى يجرى فى دماائه البجاوية  
القديمة . جعله يقف مرتجفا مقشعرا فى ذلك النهار بباحة المنجم ،  
كانما هو مطالب من قوى قدرية يعمل لا يدري كنهه بعد . . . . . بينما  
كان نيكولا يقوم بتدشين السبيكة التى تمثل حصاد عامين من العمل  
الشاق ، والجهد المضنى والعناء ، لهذه المجموعة البشرية الصغيرة  
والمتناقضة التى اختارت هذا الجبل مكانا تستثمر فيه وجودها .

لقد رأى ايسا فى ذلك النهار الخواجا ماريو شريك الباشا  
المصرى وهو يصفق مبتهجا بجوار نيكولا . بينما يرقب بجانب بصره  
مجموعة من العمال المتحلقة حول البوتقة منفرجة الاسرارير فى  
بلاهة . وعيونها فاغرة على سبيكة الذهب . كأنها لا تصدق ان تلك  
السبيكة قد ولدت من تلك الصخور الهائلة التى حفروها بأظافرهم  
وحملوها على ظهورهم من باطن الجبل الى سطحه على مدى عامين . .  
فقطع عليهم ماريو حبال دهشتهم وامر ايسا بأن يأخذهم ويذبح لهم  
غنمتين .

فهكذا الامر اذن كما يقول أبوه بشير .. الذهب للاغراب ،  
ولاهل المكان مل، بطن أو بطنين !

أخذ يرقب هؤلاء الحواجات الذين أدخلهم الصحراء من مرسى  
علم ، ذات صباح من عامين وكانوا وقتها ممثلين تواضعا وبساطة  
بل أن أحدهم كان مدهوشا كطفل وهو يلج بين الجبال .. فاذا بهم  
الآن يتصرفون تلقائيا وكأنهم قد امتلكوا هذه الجبال فعلا .  
ولعل هذا الحاطر وحده هو الذى حفز ايسا للحصول على  
السبيكة .. لعله رغب فى تأكيد سلطانه على جباله الخاصة ، مقابل  
ان يكسر سلطان هؤلاء الاغراب ويفزع زهوهم الطاووسى هذا .  
فلم يكن فى نيته أبدا أن يحتفظ بالسبيكة .. بل انه قرر  
أن يأخذها وفى نفس اللحظة قرر أن يعيدها .

لقد أخذ يبحث بعيره فى ليل الصحراء والسبيكة فى كيسه  
اللاصق بصدرة كأنها درع يحمى بها من كل الشرور المجهولة التى  
يمكن لهذه الاغراب ان يطلقوها خلفه .. متجها جنوبا فى الصحراء  
محاذيا الساحل البعيد للبحر غير المرئى . وحوله رفاقه الثلاثة ..  
عبروا رأس صمادى .. ومروا بالشرم فبدأ يظهر لهم غربا جبل  
زيارة .. وقبل الفجر بساعة وصلوا رأس بغدادى .. ثم عبروا  
وادى الجمال مع بشائر الصباح وأخذوا يحثون الابل جنوبا الى بئر  
ريجه وحماطه ورأس نكرات ، فاطلوا على البحر فى العصر ..  
ومالوا الى الغرب داخل الصحراء ثانية ، بعد أن تركوا خلفهم أنقاض  
مدينة برانيس الاثرية التى بناها القيصر بطليموس الزمار من ألفى  
سنة . تخليدا لابنته ذات الاصل الزنجى .. وكان خليج بناس  
الشهير ، قد أصبح على يسارهم ، ثم خلفهم .. فارتاحوا ساعة على  
سفح جبل باتوجا .. ثم واصلوا السير الى بئر الشلاتين ، عبر  
جبال زرقة النعام .. فى طريقهم الى الجبل الابيض المقدس علبة ..  
فوصلوه بعد يومين آخرين .. وسقطوا جميعا على أقدام الجبل  
منهكين لاهثين كأنهم فى صلاة خاشعة كأنهم رسل قادمون من بعثة  
قدسية .

كان الجبل ينتصب شامخا نحو السماء ، تطل من قممه تلك  
الكباش البرية التى تحيا فى ظلال أشجاره المقدسة الخضراء النابتة  
على القمم العالية المتسامية لتطاول السحاب .. ثم تتراجع تلك

الكباش منكمشة مفزعة خشية السقوط على السهول الخضراء  
المنبسطة حول سفوحه .. ومن بين هذه الصخور الحادة والمدبة  
الشديدة القسوة والجفوة ، كان الماء العذب يسيل زلالا على المساقط  
الجنوبية والغربية للجبل ، ثم ينساب في وادي عذاب ليرى  
تلك الغابة الكثيفة التي لم يقدر على اختراقها انسان للآن .. حيث  
نعتقد قبائل البجاة انها مغلقة على روح جددهم الاكبر القديم كوكا  
لوانكا ، ذلك الذي أمضى عمره في كهف عميق داخل هذا الجبل  
الابيض يصلى للمكان ويتعبد .. حتى تحول جسمه بفعل الزمن  
وكثرة العبادة .. الى صخرة من صخوره .. بينما انطلقت روحه  
تحفر القمم وتفجر منها ينابيع الماء لتنشئ لها غابة في الوادي  
تحتويها .

وهكذا في ذلك الصباح المبكر على أعتاب الجبل الذي يحتوي  
تلك المغارة التي تضم الصخرة التي كانت في القديم كوكا لوانكا  
وقف ذلك الحفيد ايسا وأخرج من صدره سبيكة الذهب فأقامها على  
صخرة .. ووقف مع رفاقه حولها وكأنهم يشهدون جددهم كوكا على  
ما فعلوه .. مؤكدين له أن أحفاده مازالوا يملكون السلطان على  
الصحراء وجبالها .

هكذا يفعل الجميع من البشاريين والعبادة وبقية فصائل  
البجاة .. كلما ألم بهم أمر وأعيامهم ، حملوا همومهم وأفعالهم الى  
الجبل الشامخ في السماء ، يحوطه الضباب بغلالة بيضاء لا تستطيع  
ان تخفي الخصرة الزاهية النابتة على قممه الصامدة .

لقد ظلوا أمناء على العهد منذ حط جددهم الاكبر الرجال تحت  
أقدام جبل علبة الاشم ، فأصبح الجبل كعبتهم .. ينحدرون الى  
الشمال ويصعدون الى الجنوب ، ويذهبون الى الغرب ، ويستقبلون  
الهجرات المتتابة عبر البحر على مر الزمان قادمة من الشرق . فتؤثر  
فيهم وتدفعهم أمامها ، لكنهم يعودون دائما الى علبة .

يقولون أن الله عندما خلق آدم مثل له الدنيا بقعة بقعة ليراها  
فلما رأى مصر رأى جبل علبة مكسسا بالنور وكان جبلا أبيض ،  
فناداه بالجبل المرحوم .. ودعا لارضه بالخصب والبركة .  
أيدخلهم الشك في أن آدم القديم هذا ليس سوى جددهم  
الاكبر كوكا لوانكا ؟!

لقد خاطب ايسا جده وهو يصيح من وقفته على السفح ليسمعه فى مغارته المرتفعة .. وأخرج له كل ما بنفسه .. وحكى له بالتفصيل ما فعله ، ثم رفع السبيكة بين يديه كأنه يقربها من عينى جده الصخريتين ، فتوهجت بأشعة الشمس المنكسرة على حوافها الذهبية .. وأخبره أنه سيعود بها الى مكانها فى المنجم .. فليست السرقة من شيمه وأخلاقه .. وطلب رضا جده ليهديه فى دروب الصحراء الى المراعى المزهرة والماء الوافر .

وقد خرج من بين أقدام الجبل بعض أقارب ايسا ومعارفه وقفوا حوله منتصبين بقاماتهم الشامخة وأسنانهم البيضاء المصقولة ورءوسهم الملبدة بالشعر الكثيف المضفر ، ثم أمسكوا قرص الذهب بأيديهم وقلبوه فى وجه الشمس مرتين أو ثلاثا ، وقذفوا به على الصخر ليختبروا صلابته واصابته .. ثم أعادوه لايسا وهم يباركونه .. فوضعه فى صدره ثم أقام جملة ، وانكفأ عائدا الى المنجم يتبعه رفاقه .

أمضوا الليل والجمال تقطع بهم الصحراء كرماح مطلقة ، مستنيرين بقمر الصحراء السحري ، وبالنجوم والكواكب .. وفى الصباح كانوا يقتربون من حافة جهنمية عثروا عندها على قبعة نيكولا .. فتعرف عليها ايسا . وأمر رفاقه بالبحث عن الخواجا .. فوجدوه بعد ساعتين من تقصى الاثر وتشمم الارض .. منحنيا على صخرة ، واصابعه التى تشبقت وجفت عليها الدماء ، مغروسة فى الارض تحتها .. كأنه كان يحفر على الماء .

وكان يبدو كأنه قد مات منذ ساعات ، فانحنى عليه ايسا وسمع صدره ، ثم بلل وجهه بالماء ، محاذرا ان يسقط منه فى فمه أكثر من قطرتين .. حتى يلين بلعومه وتتندى قنواته الداخلية .. فتبدأ فى تقبل السائل .. وحين بدأ يفتح عينيه ، شرب من الماء جرعة صغيرة وهو يرتجف .. فخلع ايسا عباءه ودثره بها . ثم حمله على بعيره .

لم يحصل نيكولا على الموت الذى تمناه فى تلك اللحظة القديمة بعد خمسة ايام من الضلال فى تيه العطش . وأصابه الدامية المغروسة فى الارض قد فشلت فى أخراج الماء من الصخر .. كما أنه

لم يحصل على سبيكة الذهب المسروقة التي خرج الى الصحراء وراءها .  
ولم يكن يدري ان قرص الذهب قابع في ذلك الكيس المعلق  
على صدر ايسا الذى يقود جملة صامتا عاندا به من جبال الموت الى  
وديان الحياة ، بنفس الصمت الذى قاد به جملة ليدخل به الصحراء  
اول مرة .

ومضوا يخترقون الصخور عائدين الى المنجم . . عبر انقاض  
المدن القديمة فى وادى العلاقى ، وركام القلاع فى وادى شنشف  
ووادى سكيت والخريط ، عبر تلك الطرق القديمة التى كانت  
تقطعها جيوش الفراعنة القدامى وأباطرة الرومان . . غازية أو فى  
طريقها للغزو . . أو لحراسة الاسرى والمحكوم عليهم ، الذهبين  
للعمل فى المناجم ومقاطع الاعمدة والاحجار المرمرية التى تزين قصور  
الفرعون او الامبراطور او المعابد .

فحيثما سارت القافلة الصغيرة التى تحيط بنيكولا عثرت  
عيونهم على بقايا هذه المناجم الاثرية المهجورة . . ولمحوا على الصخور  
آثار الكتابات القديمة .

وكان نيكولا يرتجف مهابة وخشوعا ، وقد استولى المكان على  
حواسه المضطربة بالرغبة فى التحليق . . وشعر بأنه يوشك أن يجد  
مكانا يرغب فى الانتماء اليه .  
يوشك أن يجد وطننا .

وكان متأكدا أنه قد اكتسب ايسا أخا وصديقا .  
ولم يكن قادرا على الكلام أو الحركة ، فأخذ يتأمل ايسا حينما . .  
ويتأمل الصحراء من حوله حينما آخر . . ولم يكن فى الصحراء حوله  
غير الرمال الباهتة الصفراء ، والسماء الباهتة الزرقاء ، وانفاس  
الأرض التى تتكاثف تحت الشمس فتبدو كلما ابتعدوا عنها سرايا . .  
فأخذ نيكولا يحرق فى السراب ويتأمله .

فى الاول ظهر له ظلالة كثيفة عند الافق . . مجرد ظلال . .  
وعندما أمعن النظر ظهرت له قباب ومآذن وأسوار وبوابات ويمكنه  
أن يقسم أنه رأى اشجارا كثيفة الاوراق وارفة ، مثقلة بالثمار ، تبدو  
كأنها تموج وتتحرك .  
فحاول أن يكشف المغز الذى تحويه هذه الظلال فيجعلها تبدو  
قبابا ومآذن ذات مرة . . وحدائق ونافورات مرة أخرى بل واخطر من



هذا ان تجعل ذلك الذى يراها يصدقها .  
ثم أدرك أن اللغز فى داخله هو .

كان على درجة من الوعى بموقفه مما جعله يدرك أن الامس  
والرغبة ، هى الفخاخ التى ينصبها البشر لانفسهم ويلهثون جريا  
وراءها ليسقطوا فيها .

فالآن ، وهو مطمئن فوق جملة محاط بالرعاية من هؤلاء الرجال  
الأشداء الذين يعرفون الصحراء كما يعرفون اصابعهم يمكنه ان يجلس  
تماسكا يتأمل السراب ويحلله ويفكر فيه .

ذلك السراب نفسه . . الذى قاده من عينيهِ المضللتين بالامس  
فقط . وهو يهيم ضالا مشقق الفم من العطش فى تلك المساحة الهائلة  
من الصخور الجهنمية التى لا يظهر فيها ظل لشجرة أو مخلوق . .  
فيجربى تجاهه جريا لحوحا ملتاعا . يبغى الامان تحت قبابه ، وينشد  
الارتواء من نافوراتهِ واشجارهِ يجرى وينكفى ، ثم ينهض ويواصل  
الجرى ، مدفوعا بقوة العطش الخارقة . . حتى تبددت قواه تماما . .  
فانهار على الصخور هامدا متشقق البلعوم والجوف . . دون ان يصل  
الى هذه القباب أو تلك الاشجار الوازفة . . لانها لم تكن سوى وهم  
صنعتهُ حاجته .





## الفصل الرابع

فى تلك الايام كان للاجانب فى مصر كلمة عليا ، وحق يكاد يكون موروثا .

فلم يكن باستطاعة المواطن المصرى مثلا ان يبتعد فى الصحراء بعد مصر الجديدة أربعة كيلو مترات ٠٠ دون ان يحصل على تأشيرة عبور من المحتل الانجليزى .

لقد عاش نيكولا ليرى بعينه ذلك الهيلمان يذهب وينداح . لكن وقتها فى تلك الايام البعيدة ٠٠ كان الانجليز قد انشأوا فى الصحراء فرقا من الهجانة مسلحة بالبنادق والكرابيج ظاهرها حماية الحدود من عمليات التسلسل والتهريب ٠٠ وباطنها حماية تلك الشركات التى انتشرت فى جبال هذه الصحراء بحثا عن الذهب والنحاس والريصاص والزنك والتلك .

ولم تكن قد وقعت بين هذه الجبال سرقة يعتدبها ، منذ سطا هؤلاء الاغرار ابناء عمومة أيسا من قبيلة المعازة ، على قوافل المحمل

الشريف والكسوة الشريفة ونقود الصدقة الاميرية .. الذاهبة فى طريق الحج الى مكة .. بين قفط والقصور ، عبر جبال الصحراء .. واجتمعت رؤوس قبيلة المعازة تتقاسم المغنم والأسلاب بناحية الجبل المعروف للآن باسم جبل الجوخ . نسبة الى جوخ الكسوة المنهوب ، فمكادوا ينتهون من القسمة .. حتى كانت الحملة التأديبية التى ارسلها محمد على الكبير فوق رؤوسهم فاستولت على الجمال والاحمال ثم جمعت رجال المعازة ونساءها وبناتها وأطفالها وعادت بهم أسرى .. ليعرضوا جميعا للبيع ، فى سوق الرقيق بساحة القلعة !

من وقتها لم تحدث فى الصحراء سرقة يعتد بها .. حتى هذه البراميل المستهلكة والاشخاب القديمة التى يجمعها الاعراب من حواف المناجم ، ليصنعوا منها اخصاصا ومظلات وأوعية .. لم يعد اصحاب تلك المناجم يعتبرونها سرقة .

ولهذا كان الحادث جللا ، جاءله هجانة الحدود من بئر الشلاتين فبقى بعضهم بالمنجم وانطلق بعضهم فى الصحراء وراء سارق الذهب وكان الباشا المصرى قد جاء من القاهرة وهو يرغى ويزيد .. واخذ يهدد بما يملك فى العاصمة من اتصالات وسلطات .. فأفسحوا له فى الباحة مكانا وثيرا ، بينما اخذ تابعه يخرج من حقييته لفافات الحلوى القادمة من جروبي .. وقفص الفاكهة المغلفة بالسيلوفان ، فجلس يروى عطشه بعد الرحلة المتعبة .. بينما وقف ماريو مرتبكا ، مدهوشا .. يحكى له ما حدث .. كيف استيقظوا فى ذلك الصباح فلم يجدوا نيكولا ، ولم يجدوا قرص الذهب .. والباشا يسمع مرتابا ، ثم يحدق فى وجه ماريو بين الحين والحين كأنما يخامرهُ الظن أن ماريو قد دبر تلك اللعبة مع صديقه نيكولا .. فالباشا هو الباشا .. مهما بدا من اتصاله بهؤلاء الاجانب والتحام مصالحه بمصالحهم ، يظل حذره الماكر التقليدى منتبها ومتيقظا !

لقد شعر ماريو بهذا الحذر المتهم فى عينى الباشا شريكه ، فاستشباط غضبا ، وأقام الغضب بينهما ستارا كثيفا يكاد يكون مرثيا .. عاقهما عن تبادل الكلام خلال الايام الخمسة التى امضاها الباشا فى المنجم للاشراف على البحث والتحقيق . متباعدان .. كل منهما كبير بتلك العزلة التى يقيمها حول حجمه .. بينما البدو والعمال والهجانة حولهما .. كمخلوقات

اضافية • أفقدها الحادث قدرتها على الاستيعاب والتفكير فاقعت على الارض صامتة ، وأن همست فبالتكهن أو التخمين •

وفي اليوم السادس هبوا جميعا مع الفجر ، على ضجة الابل وهي تحط في باحة المنجم •• ليجدوا فرقة الهجانة التي كانت تواصل البحث في الصحراء ، قد عادت بصيدها الثمين •  
لقد بهت الباشا وتدلى فكه • ووقف ماريو منتصباً يتطلع الى نيكولا وهو يهبط عن جمل ايسا •• بينما كان ايسا يتعثر في تلك الجبال التي قيده بها هجانة الصحراء ، فبدأ للجميع فجأة •• وبشكل مصدق •• كانما ايسا هو السارق •• ونيكولا شريكه !  
قال كبير الهجانة للباشا انهم عشروا على ايسا ورفاقه على حافة جبل النقرس ، فبدأوا محاصرتهم •• وقد تمكن رفاق ايسا من الفرار •• وسقط ايسا ونيكولا في ايديهم •• وكان قرص الذهب في صدر ايسا •

وقال نيكولا انه اندفع الى الصحراء ليلاً وراء اشباح رجال تغادر المنجم •• وانه ضل وتاه •• وان ايسا انقذه من الموت في الصحراء ، وليس ممكناً ابداً أن يكون هو السارق ، لعله قد ضبط الذهب المنهوب وكان عائداً به الى المنجم حينما عثر عليه وأنقذه •

أما ايسا فقد التزم الصمت •  
وكان الباشا قد انشرح لعودة الذهب •• ولم يعد ما يجري بعد يهمه في شيء ، الا بالقدر الذي يحفظ مهابته وسلطانه • أو يبعث في نفسه البهجة أو التسلية •

ولعله بخبث خفى •• اراد أن يستفيد من دفاع نيكولا الملحوظ عن ايسا ، ليترك ظلال الشك فترة •• تحوط ماريو بأحتمال اشتراكه في تدبير الحادث •• أن نيكولا ليعلم ذلك جيداً الآن ، بل أنه متأكد منه •• فبعد مرور تلك السنوات ، يمكنه أن يكون متأكداً من أن الباشا لم يأمر عبثاً بحبسهم مع ايسا ومراقبتهم معاً •• في ذلك اليوم القديم ، حتى يفكر في الموضوع ويتخذ فيه قراراً •

في ساعات الحبس الطويلة تلك التي كان الباشا يتجول خلالها في باحة المنجم وينزل في السرايب ليحصى الآلات والادوات ، يفقده ماريو المحاط بالشك •• يعتقد نيكولا انه قد ولد ولادة

جديدة . فى محبسه الخشبي فى تلك الباحة . مع أيسا البدوى  
الذى يدين له بحياته - عاجزا عن أن يمد له يد العون - بينما  
يعرسهما من الخارج رجال الهجانة المسلحون بالكرابيج والبنادق .

لقد ارتعش نيكولا بالغضب فى لحظة . وهو ينظر فى عيني  
ايسا ، مقتنعا اقتناعا غريزيا ببراءته . مقتاظا هاجبا من صمته  
هذا الذى يتسربل به .

ولعل ايسا قد اهتز لانفعال نيكولا . ذلك الخواجا الوحيد  
الذى أحبه حين رآه بنظرة مختلصة مندهشا مسحورا كطفل بينما  
يقوده ويلج به جبال الصحراء التى ينتمى إليها .

ولعل محبسهما معا قد ازال ما بينهما من حواجز الجنس  
واللون .

فبدا أيسا يحكى لنيكولا همومه التى ينوء بها قلبه . قال  
له انه أخذ الذهب ليطلع جسده عليه ثم يعود به . رغبة عارمة  
سيطرت على حواسه أن يعكس على سفوح الجبال وهج تلك الثمرة  
التي خرجت من بطونها ، فلشد ما كان يخالجه الشعور أكثر من مرة  
. ساعة الغسق . . حينما تلتصق هذه الجبال تحت الضوء الذابل  
الاحمر ، فيبدو له كأن صخورها الحادة تضم خليطا من اللحم والدم  
والعظام . . خليطا من الرجال الذين راحوا ضحايا الاختناق فى  
الآبار القديمة . . أو مطمورين تحت الانهيارات الصخرية المفاجئة  
داخل انفاق التعدين . . فيخالجه الشعور بأن الجبل من لحم ودم !  
ولو غير نيكولا يستمع لايسا فى تلك اللحظات لعجز عن فهمه  
أو تصديقه .

لكن نيكولا كان قد بدأ يشعر بالولادة الجديدة التى سيكون  
هو ثمرتها ، بينما يستمع لايسا .

وكان يكتشف تلك المعانى الحقيقية للانتماء خلال كلمات هذا  
البدوى الذى يواجه الطبيعة حوله بالفطرة . . فاقتنع به .  
بل انه احتضنه فى صدره وقلبه !

وكان الشيخ على قد جاء الى الجبل منكسا خزيانا بما يحوط  
ابن أخيه ايسا من شبهات ، فطلب من الباشا أن يحتكموا لشريعتهم .

لقد عاد الذهب ، لكن الحقيقة ماتزال غائبة . . وفى شريعتهم  
يحتكمون الى النار ، لتظهر الحق من الباطل .

فليمش ايسا على الحطب المشتعل ، فان كان ما قاله هو  
الصدق فسوف ينجو ولن تصيبه النار بضرر .

وقد وافق الباشا على اقتراح الشيخ على . فهو حريص على  
ارتباطه به ، ومنافعه في الصحراء كثيرة . ومن ناحية أخرى فقد  
استطاع بهذه الحادثة أن يحقق غرضه ويترك في هاريو أثرا نفاذا  
يمنعه من المساومة حين يحين الوقت لتقسيم قرص الذهب .  
وكان من الذكاء بحيث يدرك أنه لن يعود عليه بشيء انتقال التحقيق  
من الصحراء الى البندر ، وترحيل مجموعة من البدو الى سجنه .  
بل حتى اعدامهم لن يعود عليه بشيء . فمن الواضح أن مهابته  
في الصحراء . لا تزال محفوظة .

وأمر الشيخ عماله فحفروا امام البيوت حفرة طولها ثلاثة  
امتار ، وعرضها متر . وجمعوا من فضلات الاخشاب والحطب  
ما ملاها . . . موسدا مرصوصا ، غير مخلخل . ثم اشعلوا النار في  
الحطب وتركوها تسرى منه الى الاخشاب فتشعلها . فتوهجت  
النار في ذلك العصر الحار بينما الوجوم يثقل بظله الكثيب على  
الشيخ على ورفاقه وعمال المنجم الذين تجمعوا حول الدائرة ،  
مشحونين بالقلق والتوتر يرقبون النار وهي تحيل الاخشاب السميكة  
الى جمر ملتهب ما تزال اللسنة الحارقة تتصاعد منه كأنها شياطين  
نهمة .

وأمر الباشا باخراج ايسا ، فأخرجوه ، وأوقفوه أمام النار  
فشد قامته ، ونظر بثبات في عيني عمه . ثم صاح ولكنته البجاوية  
مؤكددا للشيخ على انه لم يكن ينوى سرقة الذهب . وانهم امسكوه  
وهو في طريقه لاعادته .

ووقف نيكولا المتحضر مرتجفا ، يحملق في الباشا المصري  
الذي يخرج من أشدافه فكاهات بذيئة ، يحاول بها أن يخفف من  
ذلك الثقل المأساوي الجاثم على المشهد الذي كان واضحا أن أحدا  
لا يستمتع به غيره وحده ، بينما كان الجميع من حوله صامتين  
عاجزين عن الاستجابة لفكاهاته . ينقلون ابصارهم الواجفة بين  
ايسا النحيل المنتصب ، وبين الحطب المشتعل في الحفرة المستطيلة  
وقد التحم بكتل الاخشاب فحولها الى جمر تتصاعد منه السنة من  
النيران قصيرة ، تكاد تكون غير مرئية ، في ذلك العصر الحار .

فيتداعى الى ذهنه مشهد قديم لزوجة هذا الباشا المسماة اقبال هانم،  
والتي تصغره بواحد وعشرين عاما .. شبه عارية على رمال مرسى  
علم الساحلية .. ممددة بجسدها اللدن المعطاء كله .. امام ماريو  
الجالس بجوارها شبه عار هو الآخر .. يجمع قواقع الشيش  
الدقيقة الحجم .. المتوجة الالوان ، ويرصها جامدة ساكنة على  
الجسد الانثوى العارى ، فتتلاها فى وهج الشمس العاربة كأنها  
فصوص من جواهر ، تزينه وتزيده فتنه ، فما تلبث الحيوانات

اللزجة الدقيقة المختبئة فى تلك القواقع أن تطمئن للدفع المنبعث  
من حرارة اللحم ، فتخرج اقدامها الهلامية وتزحف بقواقعها على  
جسم المرأة .. بنشاط وسرعة هنا وهناك ، حول الرقبة ، والثدين،  
وفوق البطن ، وداخل السرة ، كانما قد دب الحياة فى القواقع  
فجأة .. بينما تتلوى اقبال هانم . مدغدة مثارة .. تصرخ وتضحك  
ويختلط ضحكها بصراخها فيخرج من فمها الشهوانى على ذلك  
الشاطيء البكر مزيج من الرعب المصطنع واللذة ..

هل كان خليل باشا فى ذلك الغروب يستمتع وهو يصيب  
لهم كئوس الويسكى فى الشرفة الخشبية ببيت الشيخ على ، فى ذلك  
العشاء الاخير من السمك الكبير المشوى على طريقة الحملان ، ليلة  
الرحيل الى هذا الجبل .. بينما زوجته العارية على بعد أمتار منه  
تملاً ذلك الشاطيء البكر بضحكاتهما الشبقة !؟

أكان يستمتع ذلك المساء ، مثلما يستمتع الان فوق هذا الجبل  
المنحوس نفسه ، حين رأى ماريو المهيج ينحنى بذراعيه العاريتين  
حول جسد زوجته الخاصة ، فيحتويها ويحملها تجاه البحر ..  
ويغيب بها عن عيونهم داخل الماء الساكن المشع تحت غروب  
الصحرء السحرى .. كانه فراش اسطورى ممهد للقاء شهوانى،  
عارم !؟

كان يفكر نيكولا وهو يتأمل أيسا البدوى بينما يلقي على  
مستطيل النار نظرة سريعة واجفة ، ثم ينحنى فيخلع نعله ، ويشمر  
سراويله عن قدميه النحيلتين المعروقتين الغامقتى السمرة .. ثم  
ينفض ب صدره شامخا .. ويمد قدمه .. ويخطو على النار مفتوح  
العينين على الافق .. لعله وقتها كان ينظر بغريزته الصافية فى  
أغوار الزمان القديم ، فى النمرود يدفع بإبراهيم الى النار فيخرج



منها سالما ٠٠ أو يرى معجزة بابل القديمة ، حينما القى بخد نصر  
بنلثة من رعاياه فى النار موثقين فخرجوا منها محلولى الوثاق ، لم  
تمس النار حتى ثيابهم ؟

لقد كان أيسا مؤمنا بحكايات الاجداد ٠٠ كما انه كان مؤمنا  
ايضا بما فعل ٠٠ مدركا ٠٠ بحسه الفطرى أنه لم يغتصب حق احد  
٠٠ وبهذا الحس الفطرى نفسه ، أمكنه ان يوائم جسده المدرب على  
المشاق المهولة ٠ مع آلام النار الجامعة ٠٠ فيجتازها ٠٠ مرة ٠٠  
واثنتين ٠٠ وثلاثا أمام العيون المحملقة ٠٠ ثم يخرج منها سالما  
فيجمع نعليه ٠٠ ويرتدى على الارض مادا قدميه فى وجوه الجميع ،  
كانه يشهدهم على براءته ٠

هل كان ذلك غريبا على احد من هؤلاء البدو الذين يدربون  
أجسادهم جيلا بعد جيل ، على التلاؤم مع النظام الضارى الذى  
تفرضه الصحراء على من يختارها مكانا لحياته ٠

أن الشئ عندهم هو الشئ ٠٠ والرجل عفا للسان كريم  
متأمل ، لا يمكنه أن يكذب أو يسرق أو يزنى ٠٠ ومن يخطئ فى  
واحدة من هذه الخطايا يحتقر ، وترفض البنات زواجه ، وإذا دخل  
مجلسا ووزعت فيه القهوة ، مد الساقى يده بالفنجانة موهما إياه  
انه يقدمها له فاذا مد يده لتناولها سكبها الساقى على الارض امتهانا  
لشأنه ٠٠ فينصرف عن المجلس دون ان ينطق بحرف ، وفى أغلب  
الاحوال يرحل عن الصحراء الى بلاد لا يعرف احد فيها جنايته ٠

لقد غرست فيهم الصحراء شتى الفضائل ، فأخذوا يشهرون  
من هذه الفضائل سلاحا يواجهون به مخاطر حياتهم اليومية ٠ فإن  
مئت الخطايا الصغيرة التى نرتكبها بسهولة ويسر فى المدينة ، ضد  
انفسنا وضد الآخرين ٠٠ تتراكم على قلوبنا وعقولنا ، ثم تتكشف  
ضبابا يغشى عيوننا وأفدانا فتتخبط فى الحياة كالوحوش العمياء ،  
فالمدينة زحام ، والزحام فوضى وتنافس وهمجية ، ولكنهم فى  
الصحراء قلة ، والخطايا الصغيرة تصبح واضحة تطارد من يرتكبها  
٠٠ ويصبح ضبابها على النفس اشد كثافة وثقلا ، بينما تحتاج  
دروب الحياة فى الصحراء الى بصيرة صافية نفاذة لتجنب اخطارها ٠  
أن الفضائل تمنحهم قدرة على الصفاء فيمتلكون حسا غريزيا

مشبعاً بالطمأنينة . يضىء فى عقل البدوى حينما يضيع منه الطريق  
فى رمال الصحراء الساخنة الناعمة . فيهتدى الى طريقه . . وتجعل  
قلبه يدق له انذارا بالخطر وهو نائم فى ليل الصحراء السحرى .  
حينما يقترب من جسده عقرب أو ثعبان .

لقد زحف نيكولا مأخوذاً من موقعه خلف الباشا خليل فى  
الدائرة المحيطة بالنار . . وجثا الى جوار ايسا فأمسك بقدميه  
واحتضنهما .

كانتا شديدتى السخونة ، كانهما قد اختزنتا لهب الجمرات  
وهاهما الآن تخرجان فى صدره . الى جوار قلبه .

أى أحساس شمولى قد احتواه فى تلك اللحظات المهمة .  
فمزجه بالمكان واذابه فيه . فأخذ يهمس فى اذن ايسا المغضض  
العينين بنجواه وجيشانه . قال له أنه يرغب أن يصعد خلفه فى  
الجنوب بحذاء الساحل البعيد للبحر غير المرئى . فيعبران رأس  
صمادى . ويمران بالشرم ووادى الجمال ويترنجة وحماطة ونكرات  
ويخلفان وراءهما خليج بناس الشهير . وانقاض مدينة الاميرة برانيس  
ذات الاصل الزنجى . . ويجتازان بشجاعة تولد من توحدتهما معا ممر  
الاعاصير والعواصف الرملية عند بئر الشلاتين . . فى طريقهم الى  
الجبل الابيض المرحوم المقدس عليه . فيتمسح نيكولا بجبهته  
الاوربية على اعتابه توقيراً واجلالاً . بينما يقدمه ايسا الى جده الكبير  
العظيم الصخرة .

قال له انه يود لو يهيم معه فى حنايا تلك الجبال ودروبها  
فيتعرف على اقربائه القدامى ، أبناء عمومته وابناء خثولته وأصهاره .

يفكر فى ذلك نيكولا وهو عار على قمة الدرهب المتزلجة ،  
تحت شمس أغسطس الجهنمية ، وسط ديكور فج من بازلت  
وجرانيت وأحجار جيرية وقواقع متكلسة من مليون ألف عام . .  
مؤرجح هناك على صلبان عذابه وتكفيره . بينما يتأمل الجبال المزهوة  
بعريها تحت الشمس من حوله . وقد بدأت صخورها الحمراء تشع  
لهبا . بينما صخورها السوداء أصبحت قادرة على انضاج الخبز .

يفكر فى هؤلاء البدو البسطاء الذين يعيشون بين هذه الجبال

يصارعون الطبيعة الام ، ويقبلون قسوتها وعطفها بخلق فطرى رائع  
٠٠ بينما يسمح بعينيه فى حنان وديع قمم تلك الجبال المغموسة  
فى السماء ملتفة ومتوهجة ، يرى بعين خياله خلفها مئات الجمال  
العارية المكسوة بالسحب الربيعية المنعشة وهى تتعانق برقابها  
وتتغازل عند الافق المتصل بالبحر ٠٠ أو يلمح نساء البدو المحجبات  
من الرأس للقدم ٠ يطفن بالاشجار المتوحدة بين هذه الجبال ،  
فيكرمنها ، ويقدمن لها نذور التقديس ٠ ويعلقن فى اغصانها  
المسامير والخرز ، ويزينها بحبوب البقول وباريق الزيت والنقود  
القديمة ٠ فيعاوده اليقين بأن الحياة هنا جديرة بالبشر الحقيقيين  
الذين يكرهون المدن المليئة بالمخلوقات الهمجية المستوحشة ٠

ويمتلىء بالزهو ، فيجرع من السبرتو الاحمر جرعة تملأ احشاءه  
بالنار والخدر ، فيصرخ فى العراء منتشيا ٠٠ لانه كان صائبا حينما  
قرر لنفسه البقاء ، بينما كان ماريو يقرر لنفسه الرحيل ٠

ايمكنه أن ينسى أن منقذه وصديقه ايسا ، قد عبر اثمار ماشيا  
ثلاث مرات أمام عينيه !؟





## الفصل الخامس

ذات صباح قديم ، اشترى الحاج بهاء دفترا صغيرا بقرش  
وكتب في صحيفته الاولى بالقلم الكوبيا الذى كان يبلله بلسانه بين  
الكلمة والكلمة : بسم الله الرحمن الرحيم وعلى بركة الله عزمننا السفر  
مع صاحب السعادة الخواجا انطون بك الى أدفو ، يوم الثلاثاء المبارك  
الموافق غرة محرم ، سنة ١٣٤٧ هجرية ، لتقابل المهندس الخواجا  
نيكولا بصحبة الشيخ على . ومن هناك نأخذ الجمال الى الدرهيبي فى  
صحراء الشرق حيث يكون العمل .

كانت الكتابة بدائية ، فالخط متباعد الاطراف مكسور الحروف  
والسطور صاعدة هابطة فى مسطح الصفحات . . وهكذا فى أبسط  
الاشكال واكثرها ركاقة ، تتحدد المصائر وترسم النهايات . . فلم  
يكن الحاج بهاء يعلم ، أن مصير حياة بأجمعها قد أصبح مرتبطا  
ومعلقا بذلك التاريخ الذى خطه بيده .

كان الحاج بهاء فى الاصل بدويا ، انفرط جسده من عنقود

عبادى وانحدر عبر دروب الصحراء الى حافة النيل ، فترك الرعى وزرع وتاجر . وحين اراد الزواج من اقاربه فى الصحراء قوبل بالرفض . فالعبادية لا تقبل الزواج من رجل هرب من الصحراء الى الحضر . . وهكذا نزوح الجد العبادى من اتريف ، وولد اولاده واحفاده فى صعيد النيل على خير زرعه وتجارته التى كبرت ونمت .

وقد احتفظ الحاج بهاء بعينى جده الواسعتين الجبلتين ، وانه النحيل ذى الارنبه المميزة . . وكان جسده متناسقا يميل الى القصر ، لكنه على العموم كان وطيد البناء ، متسع الافق ، فاستطاع ولم يبلغ الاربعين بعد أن يقيم ذلك الجسر القديم الذى انخلع بعبور جده من الصحراء لمحضر ، فعاود الاتصال بأهله ، وأقاربه ، فاشترى منهم غنمهم وباع لهم زيتنه ودقيقه وسكره . . وافادهم بماله وخيرته . . ومن خلالهم تعرف على جبال الصحراء وماتحويه من مناجم ، وما يحتاجه عمال هذه المناجم ومهندسوها من ادوات وتأمين .

وقد اعطاه واحد من اقاربه حجرا من خامه التلك عثر عليه فى الواجهة الغربية لجبل يسمى بالدريهيب . فذهب الحاج بهاء الى الجبل وعائنه ، واقتطع لنفسه مساحة منه ، ثم ذهب الى مصلحة المناجم واستخرج تصريحاً بالحفر ، وسجل اسبقيته فى الكشف عن هذا المنجم القديم . وقد ظل حجر التلك ملقى فى جانب من دكانه بجوار تصريح الكشف والحفر عاما ونصفا حتى جاء صاحب السعادة الخواجة انطون بك الى الصحراء باحثا عن منجم فعثر بالدريهيب . . وعلم ان الحاج بهاء قد سبقه اليه فاتصل به وأخذ يساومه .

فى ذلك الثلاثاء المبارك . وصل صاحب السعادة الخواجة انطون الى كوم امبو قادما من مصر ، وتوجه مباشرة الى بيت الحاج بهاء المرتفع على الهضبة وجلس الاثنان فى الباحة الخلفية المطلة على بوادى الجبال ومشارفها . . وعلى مرمى حجر منها وقف رجال الحاج يشيرون خروفا صغيرا على نار الحطب ، يديرونه فيتساقط منه الدهن فى النار فتتوهج لحظة ثم تخرج دخانا شهيا ، فيديرونه من جديد . . ومالبثوا أن قدموه أمام الاثنين الحاج والخواجة مقنطرا على هرم من الارز ، فأنشِب فيه الحاج أصابعه وقسمه قسمين ، وضع اطيهما أمام الخواجة . فرمق انطون بك نصيبه بتوجس غير ملحوظ ، ثم دار ببصره هنا وهناك كأنما يبحث عن شوكة أو سكين ، ثم مد

اصابعه النحيلة المترددة فاقتطع من اللحم الملتهب نسيرة صغيرة .  
أخذ يلوكلها تحت أسنانه التى ينوى ان يغيرها بطاقم صناعى سليم  
. ثم بدأ الاثنان وهما يمضغان اللحم والارز . يتكلمان عن العمل  
الذى كان والعمل الذى سيكون .

قال الخواجة انطون انه قد شحن الادوات والالات والخيام ،  
وكمية كبيرة من الاخشاب على المركب فؤاد . فقال الحاج بهاء ان  
المركب فؤاد قد وصلت ادفو منذ يومين وانزلت شحنتها على البر .  
وانه يتوقع ان يكون الشيخ على قد حملها على الجمال حسب الاتفاق ،  
وتوجه بها ومعه العمال الى الدرهيىب . ثم اتفقا على الرحيل الى ادفو  
فى الصباح المبكر للاطمئنان على كل شىء .

وساله الخواجة عن مشكلة الماء . فأخبره الحاج بانهم عثروا  
على بئر قديمة غرب الجبل مطمورة منذ سنين ، فأرسل لها الشيخ  
على ولد أخيه أيسا مع ثلاثة من الرجال لتسويتها وتطهيرها ، لعلها  
تغنيهم عن اجتلاب الماء من بئر شاذلى البعيدة .

وقد أمضيا معا بعد العشاء ساعة شربا فيها من الشاى ثلاث  
دورات . وتبادلا توقيع بعض الاوراق ، وفى الفجر ايقظ الحاج  
ضيفه الخواجة ، وصب على يديه الماء من ابريق فضى فى جانب من  
الباحة ، فغسل وجهه ، وازدرد كل منهما بيضتين ، وشربا الشاى  
ثم اخذا القطار الى ادفو فوصلاها والنهار لم يشرق بعد ، فوجدا  
نيكولا يتناول افطاره فى بوفيه الخواجة اندريكو . فقدم الحاج كلا  
منهما للآخر وتعارفا .

وكان الاتفاق أن يعمل نيكولا مديرا فنيا للمنجم الجديد .

كان الباشا المصرى خليل قد حسم المسألة فى ذلك العصر  
الذى بدأ مأساويا وأخذ ماريو فى جانب واعلنه انه باع ترخيص  
منجم السكرى لشركة فرنسية سوف تحسن استغلاله بأحدث  
الادوات . وكان ماريو عند حسن ظنه ساعة التقسيم فلم  
يساوم وأخذ نصيبه من الباشا مشمئزا منه . وقرر ان يرحل الى  
ساحل البحر الاحمر ليدلى بدلوه مع الباحثين عن البترول .  
وقال نيكولا انه سيبقى فى الشرق الجنوبى مع أقاربه هؤلاء  
. فضحك ماريو وهو يودعه ، وذكره بأن له نسلا فى ايطاليا ،

يجب أن يذهب اليه .

وقد تبادل نيكولا مع ايليا زوجته بعض الرسائل حدثته كثيرا عن ايليا ابنته التي أصبح عمرها الآن ست سنوات وأثمرت في عقلها روح الفضول فبدأت تسأل عنه بالحاج ، وارسلت له صورتها في الكازينو المظلل بالاشجار الصناعية ، وأخبرته ان حماه قد مات مودة الله . وقال ماريو انه سيذهب أولا الى ايطاليا ثم يعود الى صحراء الغرب في الربيع فأعطاه نيكولا خطابا كان قد كتبه لزوجته وحمله بعض الهدايا الاقليمية الصغيرة لايلى ابنته . ثم ودعه تابعا أيضا الى كوم امبو للتعرف بالحاج بهاء .

رحب الحاج بنيكولا وقدمه للخوافة انطون بك ، ثم جلس الثلاثة في بوفية اندريكو للراحة واخبر نيكولا الحاج بان الشيخ على قد أخذ الجمال محملة بالادوات الى الدرهيوب وسبقهم في ذلك الطريق القديم ، عبر وادي الخريط ووادي خشب الى بير شاذلى ثم الدرهيوب . وقال الخوافة انطون بك أنه اشترى سيارة جيب للمشروع ، وعين لها سائقا ، فهنا الحاج بهاء شريكه على تلك البادرة الحسنة . وأبدى بعض التحفظات تجاه وعودة الطرق وخشونتها على السيارات ، فأسهب الخوافة انطون في الحديث عن العربة الجيب . وأخبرهم انهم قد بدأوا يستعملونها في الحرب لقدرتها على صعود الطرق الوعرة ، واختراق الغابات . ثم ألقى حكمة ظلت تدوى في اذني نيكولا بعد ذلك على مدى السنوات ، اذ قال أن على المرء ان يعطى الكثير اذا اراد ان يأخذ الكثير . وقد بدا من حديثه انه يعلق على مشروع الدرهيوب امالا كبيرا ، لو تحققت لنفخ الرب في صورة شركنة الصغيرة في القاهرة لتجارة أدوات التجميل ، فتتضم مصنعا وربما مصنعين . لتصنيع خامة التلك التى سيعطيهم اياها جبل الدرهيوب العظيم .

وجاءت السيارة الجيب يقودها سائق حضرى . فوقفت جديدة مزهوة أمام بوفيه اندريكو . وكان زهوها جديرا بأول سيارة تجرؤ أن تدير عجلاتها على رمال هذه الصحراء وحصاها لتسلك طريقها بجرأة ، عبر الدروب الملتوية والمنحوتة فى الاحجار . واقترح الحاج بهاء أن يأخذوا تلك الطريق الاضمن والاطول نوعا ، الى جبل الشلول غربا . ثم جنوبا عند مفرق جبل مدرك ،



وعبر وادى البرامية الى جبل حفافيت ثم جبل التيممة فيطلوا على  
الدرهيب مع الغروب ان لم يتوقفوا فى الطريق •

ووافق انطون بك على الاقتراح • واضاف اليه انه يرغب أن  
يمروا بأبى غصون •• ليعلم مدى ما وصل اليه مشروع البحث عن  
الالمنيت هناك •• فله فى المشروع صديق يرغب ان يلقاه •

وجلس انطون بك ونيكولا فى المقعد الخلفى •• بينما جلس  
الحاج بهاء الى جوار السائق ليدله على الطريق •

وحين وصلت الشمس الى مجلسها العمودى فى الافق ، فى ذلك  
النهار المبارك المرصود فى دفتر الحاج بهاء كانت العربة الجيب ،  
تتلمس طريقها بصعوبة على الاطراف الشمالية للهضبة التى تعلو  
وتنخفض وتدخل فى البحر ثم تنأى عنه ، فتظهره لهم حيناً ، وحيناً  
آخر تبعده وتخفيه •• ولاحت لهم على البعد مشارف أبى غصون ،  
فرفع جندى الحدود خشبته الطويلة التى تسد الطريق ، ثم تبادل  
مع السائق كلمات مضغمة لم يفهما فأشار له على الحاج فحيّاه  
الشاويش •• وألقى له بالخبر •

قال فى هدوء ، ونبرة ساكنة ان الرجال قد ماتوا فى البئر •  
— أية بئر ؟ •

سأل الحاج بدهشة •• فأجاب الشاويش :

— البئر القديمة غرب الدرهب •

لقد اختار أيسا رجلاً وأخاه وولده •• وحملوا غبيط الجمال  
بالماء والزاد وادوات الحفر وأحبال والزناييل ، وساروا الى الغرب  
الجنوبى لجبل الدرهب مع المساء فوصلوا البئر مع الفجر ••  
فحطوا الرجال واخذوا يتفقدون المكان •• وامرهم أيسا فأقاموا  
مظلة من اغصان جافة جمعوها عبر الطريق ، ووضعوا تحتها الزاد  
والماء ، وأناخوا الجمال •• بينما كان أيسا يزيح الصخور على حافة  
البئر ، ويربط حبلاً للمهبوط •• وحبلاً آخر علق فى نهايته الزناييل  
الذى سيحمل الردم •• ودلاه داخل البئر •• واتفقوا على أن يهبط  
أثنان داخل البئر لرفع الردم ، ويبقى اثنان خارجه لاستقبال الردم  
وافراغه وإعادة الزناييل •

ونزل الرجل وشقيقه .

وبقى أيسا مع الغلام يرقبان العم وهو ينزلق على الجبل داخل البئر ، يتبعه الاب . كأنهما قد دربا الاف المرات على الهبوط . . وبعد أن اختفيا فى عمق البئر البالغ عشرين مترا واستغرقا من الوقت ما يكفى لماء الزنبيل ، اهتز الجبل ، فجذبه أيسا بمساعدة الغلام . . وصعد الى السطح زنبيل الردم الملاقن فأهراغاه ، ثم دلياه ثانية وانتظرا عودته . . لكن انتظارهما طال .

فمد أيسا رأسه داخل البئر فلم ير غير الظلام فنادى على الرجال فلم يسمع غير صدى الصوت .  
هز الجبل بالاشارة المتفق عليها ، فلم يتلق اششارة الرد المماثلة .

فأنزعج . . وقرر النزول ليعرف ماحدث . . وترك الغلام فى الخارج .

وقف الغلام على الحافة يرقب أيسا وهو يغيب داخل الظلام العمودى المخوف . . لم يكن يسمع صوتا . . والشئ الوحيد الذى كان يعلن عن الحياة داخل البئر ، تلك الاحتكاكات التى يصنعها الجبل بالحافة اثناء نزول أيسا . . ثم توقفت هذه الاحتكاكات وسكن الجبل ، فعرف الغلام ان أيسا قد وصل الى القاع . . فانتظر فترة وهو يرقب طرف الجبل الساكن عند الحافة ، بعينه الضيقتين . . متوقعا اشارة من أيسا بالجبل . . لكن الاشارة تأخرت ، فعملها هو . . حرك الجبل يمينا ويسارا ثم تركه يسكن على الحافة وانتظر الرد . . لكن الجبل ظل ساكنا . . فمد رأسه داخل البئر وأخذ ينادى الاب . . فلم يرد عليه . . فأخذ ينادى العم ، فلم يرد عليه . . فأخذ ينادى أيسا . . فلم يرد عليه .

لم يرد عليه أحد ، وكان الظلام العمودى المخوف يبتلع نداءاته وينغمها ويكررها فذهبت الطمأنينة من قلبه . . واصابه جنون الخوف فأخذ يصرخ فى فتحة البئر صراخا مفعما بالأس ، ومضى يجرى هنا وهناك حول البئر فى خبل . . يبتعد ، ثم يعود فيطل على الظلام الذى يحتوى الرجال الثلاثة . . فى تلك الفوهة ، وينادى بأقوى ما تستطيعه حنجرتة ، دون أن يرد عليه أحد ! .  
جمدت حركته واقعى على نفسه عند الحافة يحرق فى الفوهة

والجبل الساكن .. ساعة وساعتين وثلاثا .. وحين أحس بالظلام  
يزحف على رمال الصحراء وصخورها نهض مفزعا ، وقد أدرك أنه قد  
أصبح وحده تماما فى تلك الناحية الموحشة من الجبل .  
فمضى يجرى فى وهاد الجبل واخاديه ، صاعدا هابطا وقد  
تشققت قدماء بينما يخترق الصخور ، ليدور حول الدرهيب .

كان يعلم ان الشيخ على قد سار بأحمال الادوات<sup>١</sup> تجاه الواجهة  
الشرقية للجبل يهيىء المكان عند فتحة المنجم لاستقبال القادمين ..  
وقد وصل الغلام الى خيام الشيخ على ورجاله مع الليل .. ومن خلال  
لهائه وشحوبه ، ادركوا الواقعة .. فوضعوا للغلام طعاما وماء لم  
يقربهما .. وجلسوا حوله يخمنون ما حدث للرجال فى البئر .  
قال واحد : لعل البئر مليئة بالطين ، وقد غرقوا فيها .  
فقال الغلام : أبدا .. أول زميل طلع مليون ردم ناشف .  
فقال آخر : يكون البئر فيه غازات خنقتهم .  
- يمكن .  
- والا يكون فيه تعابين .  
- يمكن ..

وكان أنشيوخ على قد انطوى منكسرا ، وقد هده الخبر لحظة  
فتمالك ثم قرر ان يذهبوا فورا الى البئر لمعرفة ما كان .  
هبطوا دروب الدرهيب الشرقية الملتوية .. مائلين حوله فى  
ظلمة الليل الشديدة البهاء متجهين الى الغرب حيث توجد البئر  
فوصلوها قبل الفجر بقليل .  
وجدوا الجمال على حالها تحت العشة التى أمر ايسا باقامتها ،  
ووجدوا الماء وطعام الرجال على حاله فى المناديل .. ووجدوا سيف  
ايسا ودرعه على حافة البئر ، بينما كانت الحافة فاعرة فاها المظلم  
تحت هذا الفجر الصاعد على الصحراء بجبالها الساكنة ، التى  
لا توحى ابدا بوقوع مأساة .. فانقبض قلب الشيخ على قبضة  
موخزة .. وكأنما هو يدرك للوهلة الاولى ان هذه الفوهة اللعينة قد  
ابتلعت ايسا ابن اخيه الى الابد ، دون ان تترك منه سوى تلك  
البقايا من الحديد .. التى كان يتسلح بها فى مواجهة الحياة .

انحنى أنشيوخ على ومال مبتعدا ليخفى دموعا انفجرت دون  
ارادته من عينيه .. ثم جمع نفسه فى صوت اجش وأمر الرجال

ان يضموا اليهم جمال الضحايا ، ليزهبا الى حماطة .. فلم يكن باستطاعتهم ان يفعلوا شيئا حينذاك .  
حماطه بين برانيس وأبو غصون .

هناك ينحدر الجبل مكونا سفحا ممددا الى ساحل البحر الاحمر .. سفحا يضم عددا غير قليل من التلال والوديان .  
وعلى هذا السفح كشمك صغير من الخشب وبرميل ماء وعسكري شاب ، هو فقط كل مظاهر الامن المنظم والمظهر الرسمي للقانون .

وفى المنحدر أقيمت مظلة من الخشب القديم والصاج .. عشة فقيرة لكنها نعمه عظيمة فى وهج الصحراء .. وما انفعها واعظمها واغناها بقعة الظل التى تحتها . حيث يجتمع الرجال الهابطون من الجبال فيعرفون الاخبار ويتبادلون الرسائل وينتظرون القوافل ويجتمعون بشيوخ الصحراء ويتناقشون فى الملمات .

وقد وصل الشيخ على ورجاله الى هذه العشة وقد امتلات بالعبادة .. أقارب الرجال الذين غابوا فى البئر .. فقد انتشر الخبر فى الصحراء .

قال الرجال : شوف لك صرفه ياشيخ على .  
وكن الشيخ على منطويا على فاجعته .. فقال :  
لازم نبعث اشارة للقصير عشان يبعثوا وكيل النيابة يعمل تحجيج .. !

توجد محطة صغيرة تاسلكى اليدوى فى مرسى علم يملكها حرس الحدود ، يتصلون منها بالقصير على ساحل البحر ، اقرب حضر للصحراء .

وفى القصير يقيم حرس السواحل والبوليس ووكيل النيابة فى القصير يقيم القانون .

وأخرج الشيخ على ورقة كتب فيها ملخصا للحدث ، ثم طلب وكيل النيابة للتحقيق ، وطوى الورقة واعطاها لولد فى الثالثة عشرة .. ملأ اولد كيسا جلديا بالماء وربط منديلته حول بعض الطعام ثم شمر جلبابه وعقده حول خصرته ، وربط الطعام والماء على كتفه ، واحضر فرعا صغيرا من شجرة جافة فشقه من طرفه شقا

صغيراً وضع فيه الخطاب .. ورفع الفرع بالخطاب فوق رأسه  
كالعلم .

قال الشيخ علي : لا تعوق .. جاعدين مستنظرين .  
وانطلق الولد يجرى في خط مستقيم مرتفعاً ومنخفضاً حتى  
غاب عن الأنظار .  
وعندما اختفى نظر واحد الى الشمس وبحث عن مكانها في  
السماء ثم قال : ان شاء الله يوصل مرسى علم بالليل .  
قال رجل : يكون بتاع اللاسلكي نام .  
وقال آخر : ويكون وكيل النيابة نام .  
فقال الشيخ : يبلغوها الصبح يوم التلات ، ووكيل النيابة  
يوصل عندنا الظهر أو بالليل .

قال الرجال مستنكرين : بالليل ؟!  
قال الشيخ : ادى احنا جاعدين .. اعمل يا ولد الشاي .  
ودخلوا بقعة الظل تحت العشة .. وبدأوا يتهأئون لهذا  
الانتظار الطويل .  
وانحدرت سيارة الجيب على حصى الهضبة بيننا الحاج بهاء  
يمد ذراعه منها مشيراً للسائق على الطريق ، حتى توقفت أمام  
العشة في حماه .  
وبجوار العجلات رأى نيكولا النار تحت كوز الشاي ، وصبياً  
من الابنوس ، يغسل أكواباً من الألمنيوم لها اذان مطليّة بالميناء .  
وكان الرجال الجالسون على أنفسهم داخل الظل ، رند احتضن  
كل منهم وجهه بركبتيه قد نهضوا جميعاً واقفين ، واستحووا الطريق  
للشيخ على ليرحب بالقادمين .  
وقف متماسكاً يتطلع الى الخواجا انطون بك ذلك الضيف  
الجديد على الصحراء ، ولم تمنعه فاجعته من ان يقدم له عيلائمه  
من حفاوة وترحيب .. وسأل الحاج بهاء عما حدث فقال الشيخ  
على : أمر الله .. قضاء الله .  
رددها مرتجفاً محاولاً أمسك انفعاله .. ثم مال جانباً واخفى  
حزنه في الترحيب ، بينما تطوع واحد من الرجال للاخبار  
بالتفاصيل .

واقترب الغلام الابنوسى من نيكولا مقسداً له كوبه الشاي

فراى ايسا مائلا امامه فجأة فى وجه الغلام .. بهت نيكولا وامسك بالغلام من كتفيه محدقا فيه وهو يهز رأسه كأنما يجلو عينيه .. لكن الغلام كان يحمل وجه ايسا مايزال . وقال الشيخ على : هذا أبشر ، ولد ايسا ابكر .

ولم ير نيكولا أثرا واضحا للفاجعة ، فى وجه الغلام .. حتى وجوه اقارب الموتى من حوله لم ير فيها اثرا بارزا للفاجعة .. كانت وجوههم المستقيمة الحادة ، جامدة صلبة .. وتحت العينين ذلك الخط الوهمى انفاثر الذى يوحى بالطيبة والبساطة ، بساطة ذلك النوع من البشر الذى يفطر بالشـدائد .. ويتغدى بها .. وينام فى الليل وكل حواسه عيون صاحبة !

وكانت عيونهم جميعا مواربة .. تلك عادة الناس الذين يسكنون مساحات فارغة ممتدة تكتوى بنار الشمس .. انهم يواربون عيونهم فتصبح درجة الابصار اكثر عمقا ، واكثر حدة وتحتمى احده من الضوء الشديد .. ويمكنهم حينذاك اخفاء الحزن الفاجع خلف هذا الخط الوهمى تحت العيون المواربة .

كانوا على الاجمال رجالا ، يطـوون فى جنوبهم كل الرموز والمعانى التى تعطيها كلمة رجال هذه .

بل ان ابشر غلام ايسا ، كان أيضا رجلا . وكان حزنهم جميعا متواضعا لان الموت فى الصحراء عادة . قال نيكولا : سنأخذ أبشر معنا . فلم يكن قادرا على مواجهة ذلك الشعور بالفاجعة وحده . وانطلقت السيارة تحمل بداخلها الحاج بهاء والخواجة انطون ونيكولا الذى افسح لابشر مكانا بجواره .. بينما وقف الشيخ على والرجال فى وداعها حتى اختفت فى أسفل الهضبة ونيكولا بداخلها منطويا على هذا الحدث الفاجع الذى شاءت الصحراء أن تواجهه به . أن تبتلع صديقه ورجلين آخرين .. على شرف استقباله مواطننا دائما بها .

لقد تأكد له ساعتها ، وهو يحيط ابشر الصغير بذراعه فى حنو ان هذا الحدث الذى كانت الصحراء مشغولة بتدبيره بينما كان هو فى ادفو يحتمى النبىذ ويأكل البتاو مع طـواجن الحمام

المحشى فى بوفيه اندريكو ، سوف يلقي ظله الكئيب على اقامته .  
وسيكون له وقع السحر فى تشكيل النفسىة التى سيتعامل  
بها مع هذه الصحراء .  
ورغم ذلك فقد كان متأكدا أنه لم يعد بإمكانه التراجع .

لقد بدأ رحلته يومها من ادفو ، مرحا كرجل فى نزهة مع  
مجموعة من الرجال .. لكن الصحراء فى حماسة ، كشفت له عن  
وجهها القبيح .. فذابت خفته .  
ومضى ينظر الى جبالها من انسيارة ، فى وجل وتوقير .. فلم  
يكن بإمكانه ان يستخف بها .







## الفصل السادس

عبر هذا الزمن الطويل الذى لم يعد نيكولا يستطيع تقديره يصل الى حالة من الوجود تقترب من اللاوجود .. فعلام يتغذى ذلك الهيكل العجوز العارى ، المتوحد على قمة الدرهبب بجوار فتحة ساكنة لمنجم مهجور ، كان الى وقت قريب ينبض بحركة الحياة .

أى عناد يبقية حيا بين هذه الصخور الحادة بأشكالها المخرقة فى الغرابة ، الا شعور متفرد ونادر يملؤه ويوحى له ويقنعه بأن جسده البشرى ، ذلك المكان المحدود الذى يحتوى روحه اللامحدودة قد ذاب وانتشر وامتزج عضويا فى ذلك المكان الام .. الممتد والفسيح .. فيزحف زاهدا فى الطعام .. وفى الشطرنج .. بل زاهدا ايضا فى التجول داخل شرايين الدرهبب العظيم ، تحيط به ، وكأنها سيوف مشرعة ، أسنان خامة التلك الشمعية التكوين ، باحثا عن ايليا .. صديقه الحميمة .. ابنته .. تلك التى اغلق عليها كهفا بانهيأ صخرى غادر .

زاهدا فى كل هذا .. يزحف نيكولا بجسده الاوروبى العارى

الذى لفحته شمس الصحراء فأحالتة الى لون البن المحروق .  
مصطحبا ما بقى فى زجاجة السبرتو الاحمر . . متسلقا الصخور  
ودائرا حولها ، تاركا الشرق خلفه ، زاحفا الى الغرب . . فيصل  
والشمس فى قلب السماء ، الى حيث توجد البئر القديمة . .  
المهجورة . . فيتوقف يلهث . . وقد سال العرق الغزير على جسده  
العارى ، حبلا مضفورة بما استوعبه من تراب . . ويتأمل المكان  
السكن كأنه مقبرة اثرية . . ويلقى بعينه المنكسرتين تحت جفونه  
البيضاء فى فوهة البئر الساكنة . . فينكر عليها سكنها .

من ذا يصدق الآن ان ايسا قد هبط هذه الفوهة بارادته  
ليخرج لهم الماء . . فلم يخرج ايسا ولم يخرج الماء .  
من ذا يستطيع ان ينكر عليه ان ايسا لا يزال هنا .  
بأى شكل من الاشكال موجود هنا .  
ويقعى نيكولا على الحافة منكسرا لحظة ، ثم يجرع من السبرتو  
الاحمر جرعه نارية ، ويهدر فى فتحة البئر المهجور مناديا ايسا . .  
ساديا باقوى ما تملكه الحنجرة من طاقة وجهه . . لكن ايسا  
لا يجيب . . فينزوى نيكولا ويلتوى على نفسه .  
ليتك بقيت فى أبو غصون تتسلى باصطياد الاسماك مع  
صاحب السعادة انطون بك .  
ليتك لم تقرر والصغير أبشر يرمقك بعينه الرجلتين ، ان  
تذهب معهم الى البئر ، فى ذلك الوداع الاخير .

كانت الشمس الالهة قد اشعلت النار فى حديد السيارة  
الجيب . . نارا اذابتهم وجعلتهم كتلا من الدهن لا أثر للنشاط  
العقلي فيها . . وفجأة انعطف السائق بالسيارة يمينا ثم يسارا . .  
وانبعث من تحت العجلات التى احتكت بالارض الصخرية صوت  
مكتوم . . كأن شيئا قد تحطم . . وأعلن السائق بفخر انه قد قتل  
ثعبانا . . ثم اوقف السيارة ونزل منها يفحص العجلات ويتأكد من  
سلامتها فانتبهزها الحاج بهاء فرصة ليفرد جسده وغادر السيارة . .  
فتبعه نيكولا . . والشيخ على . . وبقي الرجال اقارب الضحايا  
مكدسين فى صندوق المؤخرة .

وانحنى الشيخ على ودقق النظر تحت عجلة السيارة وأعلن أن  
السائق قتل طريشة ، وليس ثعبانا عاديا . . فاحتفى الرجال فى

مؤخرة السيارة بالسائق .. فعلى رمال الصحراء وبين صخورها  
تزحف آلاف الأفاعى .. نوع يبيخ السم .. ونوع يفرسه بأنيا به ..  
والطريشة من النوع الآخر .. وأخذ الرجال يتبادلون الحكايات عن  
رجال قطعوا أعضاءهم بسيوفهم وخنابرهم لان الطريشة قد هبشتها  
.. فلا علاج أبدا لسم الطريشة بغير القطع ، بغير التخلص من العضو  
المسموم .. التنازل عن العضو .. أو التنازل عن الحياة كلها .  
وحينما تأكد السائق من سلامة العجلات عاد الى السيارة . فعادوا  
جميعا اليها .

كم ساعة ساروا وكم ساعة بقيت حتى يصلوا الى غايتهم ..  
لم يكن نيكولا يستطيع التقدير .. كان واجما ولاحظ أن السائق  
مستغرق تماما كما لو انه قد أصبح قطعة من حديد السيارة .. وكان  
واضحا أن الطريق تسحبه من عجلاته . وانه لا يملك سوى الطاعة  
والاستسلام .. فليس عليه سوى أن يتبع الماركة التى مهدتها آلاف  
الاقدام للبشر والجمال الذين عبروا هذا الطريق من قبل .. وخيل  
لنيكولا أن الطريق من وجهة نظر السائق يبدو مائلا ، وأنه ينزلق  
عليه ، وان هذا يسبب له اللذة .. وكأنه نائم يحلم .. لكن وجهه  
سرعان ما يريد ويقلق وتنتبه عيناه .. حينما تضيق الماركة .. أو  
يبدو باهتة فى مكان .. حينما ينظر أمامه فيجد الارض منبسطة  
فسيحة .. جديدة كأنما لم تمسها من قبل قدم انسان .. صامته  
لكنها مشحونة بالخطر فى داخلها .. وابسط اخطارها أن ينطلق  
فى أرض رخوة ، وتغوص سيارته فى بحر من الرمال .. وسمع  
نيكولا الشيخ على يحذر السائق عند مفترق مارتين ، ويهديه الى  
احدهما .. وسمع السائق يعطى لايشر وعدا بأن يعلمه قيادة  
السيارة ، لو قدر له البقاء فى الصحراء .. وسمع حديث الحاج  
بهاء عن الاستاكوزا التى يصيدها الخواجة أنطون فى أبى غصون .  
لكنه كان غائبا رغم ذلك .. كأنما روحه قد انشطرت  
نصفين .. وكانت صورة ايسا دائما طافية فوق كل الصور .

وهبطت بهم السيارة واديا حفرتة السيول .. ومن بعيد لاح  
لهم الدرهيىب جانما فى مواجهتهم كظل هائل يمد جناحيه الهلاليتين  
فيحتضن بهما الوادى العظيم الذى يعبرانه اليه .. ولم تكن ملامحه  
قد ظهرت لهم بعد رغم الضوء الجارح الذى تلقيه عليه الشمس من  
السماء البيضاء .

ورأى نيكولا على الصخور ظلال الرجال داخل صندوق السيارة وهم يمدون رؤوسهم خارجها . . وسمع ضجة تسأل الشيخ عن سببها فرد رجل من الخلف بأن الرجال المكلفين بالانتظار جوار البئر قادمون . . فدهش الشيخ إلى ، ومد بصره محدقا ، حتى لمح شبحين قادمين على السفح . . لا فرق بينهما وبين صخوره .

كانا يلهثان كأنما الأشباح تطاردهما ، وعندما توقفت السيارة بجوارهما تهالكا عايتها وقال أحدهما : الثعابين يا شيخ على . . الثعابين والطريشات نازلة طالعه من البئر زى يوم الحشر . . ولا فيه فتفوت أرض الواحد يحط فيها رجله . . كل الأرض حوالين البئر غطتها الثعابين .

وكانت رائدة عفنة قد بدأت تلفح أنوفهم داخل السيارة . . فتمتم الشيخ مستعيذا بالله . . وأمر السائق بمواصلة السير إلى البئر .

وجدوا السفح مغطى بجبال غليظة طويلة مختلفة الاحجام ، تلف وتدور وتتحرك مندفة للامام . . عشرات من الجبال السوداء والصفراء والمرقطة . . أهاجتها رائحة العفن الصادرة من البئر ، فخرجت من بيوتها بين الصخور متجهة إليها . ولم يستطيعوا أن يروا فوهة البئر . . مثل قبائل النمل كانت الثعابين قد غزت الحافة وأخذت تصعد منه وتهبط فيه .

وبدا المدح لنيكولا كبحر خرافى والثعابين أمواج فشعر بدوار . كانت الآفة الملتفة الدائبة قد بهرتة ، واكتشف خلالها إلى أى مدى هو وادى البنيان فى مواجهة تلك الصحراء الوحشية ، بقوانينها ونابها ، حيث يهون الموت ، وتعالج الأمراض بنبات الأرض ، ويقتل الخجل ، وتصيح المباشرة هى الأسلوب الصحيح . لقد أعم موتور السيارة تلك الثعابين ، فأرهفت رؤوسها تتسمع وسكنت حركتها حينما ، فأنحدر السائق فى سرعة وأخذ يدور بالعربة يسارا ، ثم يرتد ويدور يمينا . . وكأنه يطارد الثعابين بالعجلات . . فبدأت تنقلص وتتلوى على نفسها وتندفع مبتعدة عن المكان . . حتى خلا السفح منها ، كأنما ابتلعها الجبل . . ولم يبق منها سوى الجرحى ، تجرر ذيولها المكسورة وهى تفح منسحبة خلف الصخور . . فتوقفت السيارة ونهيا الرجال لمغادرتها فأسرع الشيخ على يحذرهم ، فالثعبان الجريح أشد خطرا من الصحيح .

واتفق الرأي على أن يكتفوا بالقاء صفيحة ماء في البئر لتطهير  
الموتى .. ويؤدوا عليهم الصلاة ويعودوا .. فهبط الرجال بصفيحة  
الماء وساروا الى الحافة وهم يطوحون رؤوسهم يمينا ويسارا بحذر ..  
وعند فوهة البئر بسملوا وقرأوا الشهادتين والقوا بالماء في البئر ..  
وغطوا الفوهة بقطعه كبيرة من الصاج أنقلوها بصخرة .. ووقف  
الشيخ على اماما واصطف الرجال خلفه .. يقرأون الفاتحة وهم  
يتلفتون حولهم خشية أن يتسرب بين أقدامهم ثعبان !

أية سكيئة كان ينعم بها الموتى في مقرهم الاخير داخل البئر ،  
تاركين الفزع والرعب لهؤلاء الاحياء الذين كانوا يدركون بشاعة  
نهايتهم ويصلون لارواحهم ؟  
كانت الشمس تغرب على السفح الغربى للدرهيب ، فتكسر  
اشعاعاتها الحمراء على صخوره الزرقاء ، فتنبعث منها كل ألوان  
الطيف .

وفي هذا الجو الاسطورى .. فى تلك البقعة المنعزلة .. تذكر  
نيكولا ما كان يقوله ايسا .. وخيل له أن دماء الرجال الذين ابتلعتهم  
البئر ، قد نشرت لونها فى الصحراء وصبغت كل شيء .  
فكان الطبيعة كانت رغم ذلك حزينة على الضحايا .  
وما أروعة من حزن ذلك انذى كانت تفوح رائحته فى الارض  
والسما والجبال .

وحين خرجت السيارة من بقعة الظل التى منحها لهم جانب  
الدرهيب الغربى . بينما هى صاعدة الى الشرق .. كانت الكآبة  
قد أذابت حيوية الجميع ، فدخل كل منهم فى البئر الخاصة به ، وأخذ  
يهبط ويهبط داخل نفسه .. واصبح سكون كل منهم وطيدا فى  
علاقته بسكون الجبل ، وسكون السماء .. وصارت السيارة  
الحديدية هى الوحيد المتحرك فى ذلك السكون كله .  
ورأى نيكولا أن هناك قرابة خفية بين كل الكائنات ..  
الشمس المسطرة على مشرق الجبل .. الجبل الرابض تحت الشمس  
ممتدا بجذوره الصخرية العتيقة فى حافة الوادى الذى خلفه وراءهم  
منذ ساعات .. الارض الرملية والارض الصخرية فى البقعة المحيطة  
بفوهة البئر الساكنة .. بل البئر ذاتها .. وصور أخرى لصخور  
مفعمة بالنباتات الحريفية اللون الحادة التكوين .. الشبيهة بشظايا  
الصخور .

كل ما على الارض ممتد فى الارض .. وهو خارج منها وعائد اليها لامحالة .

كل ما على الارض دائم التحول والتبدل والتغير .

هل أنت يانيكولا من كنت من قبل ؟

تحت أقدام الجبل المرحوم علبة ، وقفتما خاشعين أنت وايسا أمام جده المقدس الصخرة .. وقدمك له كصديق .. وكنت خائفا والشمس تلهب ظهريكما بينما أنت معلق العينين بالوهج المرتد عن حواف المغارة العليا حيث يوجد كوكالوانكا .. لكن خـوفك كان ينزاح كلما احتواك ايسا بابتسامته البدوية الصافية .. وحين دلفت الكباش البيضاء الى اشجارها الكثيفة فى الوديان العليا المزهرة فوق اجبل المرحوم .. وبدأ وهج الشمس يسقط بعيدا متراخى الاطراف خلف الافق .. اعطاك ايسا من زاده ، وقادك من يدك الى صخرة مشرفة على السماء انتى بدأت صـفحتها تكتسى بالرمادى والفضى احتفاء بالنجوم .. وأخذ يعطيك من عقله أيضا ، فأخبرك أن القيط عندهم هو الصيف ، والحريف سجيح ، أما الشتاء فهو الحمة .. قعود لا عمل فيه لأن السيول تهدر الماركات وتغير معالم الوديان وتحرك الصخور وتهيلها .

ورفع عينيك الى السماء وأخذ يعلمك اسرار نجومها .. تلك الاسرار التى اقتنصها هو وأجداده من تأملهم الطويل فى تلك النجوم ومراقبتها آلاف الاعوام .. وبصوته الخافت والمهموس قال ان الثريا تطلع أول الصيف قبل الفجر ، وبعد ذلك بأربع عشرة ليلة ، تطلع البربارة .. وبعدها بخمس وعشرين ليلة يطلع السماكان والمرزم . وتطلع كلها فى صف من الشرق .. واحدا وراء الآخر .. وبعد طلوع البربارة بأربع عشرة ليلة أيضا ، يطلع النجم سهيل من الجنوب ايدانا ببدء السجيح .. وتدوم هذه الانجم فى الفلك عشرة أشهر قمرية ، وعشرين يوما ، الى أن ينتهى الربيع ثم تبدأ فى الغياب الواحد بعد الآخر .. فتغيب أربعين يوما ، ثم تعود للظهور من جديد والثريا فى المقدمة .. وهكذا يمكنك أن تعرف الفصول وتتوقع الاجواء وتقدر الحول بعد الحول .

أخبرك بذلك النظام الدقيق لظهور النجوم واختفائها ، لكنه لم يخبرك بشئ عن ظهور البشر واختفائهم .  
لقد ظلت نفسك وديعه آمنة فى رحاب حفاوته ، وكنت عاطفيا

كطفل . لم تصفلك صولانك وجولانك كمهاجر أمضى صباه في  
الترحال . . فطللت محتفظا بقدرتك على الاندهاش لكن هاهو يختفى  
من جوارك فجأة . . اختفاء لا عودة منه . . فما بالك سكاكنا لا تنبض  
بأدهشة و كأنما قد انكسر بداخلك شئ ؟ !

لقد أطل نيكولا على باحة المنجم حين وصلوه ذلك اليوم دون  
بهجة . . وكان جديرا به أن يقيم الافراح داخل نفسه بالمكان  
الجديد . . لكن روحه كانت مهياة لدخول المكان الجديد في صحبة  
ايسا . . لقد كان ايسا بديلا لماريو . . كما كان ماريو بديلا لأمرأته  
الصديقتين التي تسمى كل منهما ايليا .  
والآن هاهو قد أضاع الجميع وصار وحيدا .

وكان رجال الشيخ على قد نصبوا الخيام في الباحة . . خيمة  
كبيرة للمعامل في المؤخرة بجوار خيمة الفضلات . . وخيمة المخزن  
والمطبخ . . وثلاث خيام صغيرة في المقدمة ، لنيكولا المدير ولصاحب  
السعادة انطون بك ، وللحاج بهاء مع الشيخ على الذي لم يكن ينوى  
البقاء كثيرا . . وكان الحاج بهاء قد اشترى في الطريق ثلاثة حملان  
من راع غابر ، اهداه فوقها كيسا الماء من جلد اشواه . . فأمر الرجال  
أن يقودوا الحملان الى فتحة المنجم لذبحها طلبا للبركة ، فوقف الرجال  
على باب المغارة يبسملون ويكبرون ويقرأون الفاتحة ، طالبين لأنفسهم  
من الله اصلاح الاحوال ، وطالبين لصاحب السعادة الحاجة انطون  
والحاج بهاء دوام العز والجاه . . أما نيكولا فلم يطلبوا له شيئا .

كان قد بدا كأنما قد تلبسته فجأة شياطين العمل ، بينما كانت  
دماء الحملان الوديعة القانية ، تسيل غزيرة على صخور الفوهة الجانبية  
الفاغرة التي تؤدي الى أحشاء الجبل الداخلية . . كان نيكولا قد جمع  
ثلاثة رجال وأمرهم بتنظيف الباحة ، فانحنوا على الأرض ينتقون  
منها الفضلات القديمة . . فأزالوا الصخور الصغيرة وأزاحوا الكبيرة  
على الحواف في شبه دائرة . . ونيكولا فوق رؤوسهم المنحنية يشير  
هنا وهناك . . ثم سار بهم بعد أن انتهوا من الباحة الدائرية ، فمهّدوا  
الطريق الى فتحة المغارة وكانت الخراف قد اسالت كل دماؤها على  
الصخور فداء وبركة . . فحملها الرجال خلف الخيام وانهمكوا في  
شقها وتقطيعها وغسلها بالقليل من الماء . . ثم اشعلوا تحتها النار ،  
وبينما كان الخواجة انطون والحاج بهاء يستريحان حتى ينضج

الطعام .. أشعل نيكولا مصباحى كربون ، وطلب من الشيخ على أن يرافقه ليهبطوا داخل المغارة .

كانت الفتحة ممتدة نوعا كأنهما يدخلان كهفا ، وكن المدخل وعرا ، فأمر نيكولا رجال الشيخ على بتسويته وواصلوا الدخول بينما مشاعل الكربون فى يد كل منهما تعكس ظليهما على جدران المغارة ، كأشباح طويلة لها ذؤابات تنقوس حسب الضوء على الجدران الصخرية المقوسة .. وانتهى بهما السير الى فجوة عميقة هابطة ، فمال الشيخ على وتحسس حافتها ثم أعلن ان السلم الحديدي ما يزال موجودا .

لم يكن المنجم بكرا .. فاختر نيكولا ذلك المعبر القديم الذى خلفه وراءهم أسلافه من المعدنين القدامى ومد قدمه رافضا أن يسبقه الشيخ على فى النزول .

مائة متر أو مائة وخمسين ظل السلم يهبط فى شبه بئر .. حتى استوى بهما على أرض ممهدة اشبه بفناء بيت ، تمتد منه على الجانبين أنفاق قديمة وممرات .. ورفع نيكولا مصباح الكربون الى جدران الانفاق باحثا عن الحامة ، ومشى مضيئا الحوائط من ناحية يتبعه الشيخ على من الناحية الاخرى ، فلم يريا من حامة التلك سوى آثارها .. فضلات الاسلاف القدامى .. وانتهت بهم الطبقة الاولى الى لا شئ .. وواجهوا فجوة اخرى عميقة ، ماتزال تحتوى سلمها الحديدي أيضا .. فواصلوا الهبوط الى ثلاثمائة متر استطاع الشيخ على أن يحسبها وهو يحصى مقابض السلم الحديدي أثناء الهبوط .. ووقف امام الطبقة الثانية من الانفاق والممرات .. ورفعوا مصباحى الكربون الى الحوائط ، كل فى ناحيته .. بحثا عن الحامة .

نسى نيكولا نفسه .. ونسى الشيخ على الذى يصاحبه ، وكان قد نسى الحواجه انطون والحاج بهاء والحملان التى تدور فوق النار خلف الخيام .. وانغمز بكل حواسه فى اكتشاف هذا العالم الجديد الذى سيكون عالمه .. كان يتحسس الجدران بشغف لم يحدث له أبدا حينما كان يتحسس بأنامله وجنتى ايليا ، ابنته ، الموردين .

كانت ايليا الكبرى تقول أنه متوحش فردى لا يجب الاطفال وكان هو واثقا أن الامر ليس كذلك ، وأنه هو شخصيا يجب الاطفال أكثر مما تحبهم هى .

وكانت ايليا الكبرى تقول أنه جاف القلب ، جامد الشعور ، وربما غير قادر على أن يعطى الحب أصلا .. ناسية هى انها اخذته



على غرة .. فاعطته جسدها وأعطته أحلامها وطموحها .. بل أعطته أيضا زوجة وابنة .. دون أن تترك له الفرصة ليختار بنفسه شيئا .. بينما لم يكن يطلب وقتها سوى عمل يعيش منه !  
ألم تقع في حب ايسا يانيكولا ؟ .. ألم يحدث لك ذلك عبر هذه الصحراء المترامية وانت تخوض وتكتشف الصحراء في نفس الوقت ؟

لقد كان ايسا بديلا لما ريو .. وكان ما ريو بديلا لما رأيتك الصديقين .. فهل يكون حزنك العظيم هذا ، حزنا على الجميع ؟ .

أفلا يؤكد هذا قدرتك على عطاء الحب والشعور به ؟  
لقد أخذت منك الطبيعة ايسا غدرا ..  
كشفت لك عن وجهها القبيح فأصبحت وحيدا .. واصبحت مطالبا بأن تكون قويا على مستوى تلك الوحدة .  
بل انك ها هنا مسئول ايضا ..

تلك أنفاق لا نهاية لها تمتد في قلب هذا الجبل كانشرايين عليك أن تقود الرجال القابعين الآن حول الشواء على سطح الجبل ، خلالها .. وتعلمهم كيف يزيحونها من طريقهم بما تحويه من خير وشر ، مثلها مثل الطبيعة الام .. فينحون الشر جانبا ، ويقبضون على الخير .. بينكم وبين الخير مشقة وإهوال يا نيكولا .. فلم يبق أسلافك في هذه الأنفاق سوى صخور حادة وأتربة متخلقة عن الانهيارات وسنادات خشبية قديمة يجب تغييرها عليك منذ الآن أن ترتب نفسك على اقتحام هذا كله والفوص وراءه .. بحثا عن الحامة الحقيقية واستخراجها .

كان يتحسس صخور السرداب بشغف لم يحدث له أبدا حينما كان يتحسس بأنامله وجنتى ايليا .. بينما كان مشعل الكربون في يد الشيخ على يلقي بضوئه المهتز على جسده الممشوق والمنحنى ، ويعكس منه على الحواف الدائرية للسرداب ظلالات طويلة ومقوسة .

وربت الشيخ بأصابعه النحيلة المعروقة على كتفه واقتصرح أن يكتفيا بهذا القدر يصعدا للطعام .. وكانا قد أدركا نهاية الممرات في الطبقة الثامنة ولم يجدا أثرا للخام .. وقال نيكولا وهما يصعدان السلالم القديمة الى سطح الجبل ، ان عليهم أن ينشئوا طبقة ثلثة ، بعمق مائة وخمسين مترا أخرى ، وربما مائتين .. فالتلك ما يزال موجودا داخل الجبل ، لكنه ممتد جانبيا في الاعماق

السفلى .. وقال الشيخ على ان الاسلاف الفدائي توفعوا عن الاستمرار  
حينما عجزوا عن الوصول الى تلك الاعماق .. فأكد نيكولا للشيخ  
أنه يتحتم عليهم أن يصلوا الى مالم يصل اليه هؤلاء الاسلاف ..  
فتلك شريعة التقدم .. وكان الرجال قد أقاموا على سفح الباحة  
أمام الحيام سماطا دائريا جلس الجميع حوله .. ينتظرون انضمام  
نيكولا والشيخ اليهم .

صعد نيكولا من المغارة وانضم الى السماط الممدود مقتصدا  
فى ابتساماته ، يغلب عليه الوجوم .. ذلك الوجوم الذى غطى محياه  
على مدى السنوات الطويلة التى تلت ذلك .

ورأى أنطون بك يجلس متربعا على الوبر المفروش فى الارض  
أمام السماط بجوار الحاج بهاء ، يحاول أن يكون ظريفا ومقبولا  
لهؤلاء الذين سيعملون معه .. هل تطمع يا نيكولا أن يكون مختلفا  
فى كثير أو قليل عن ذلك الباشا المصرى خليل ؟ .. الديك شك فى  
أنه الآن يتلمظ من الداخل ماضغا احلامه المحسومة على تلال التلك  
الشاهقة البياض .. التى ستحملها الجمال من المغارة الى البحر ،  
وتحملها المراكب من البحر الى مصنعه الصغير فى مدينة القاهرة ..  
فيكبر المصنع ويتضخم .. ويكبر بالتالى ويتضخم ذلك الحواجة  
أنطون بك ؟

وذلك الاخير .. العبادى الاصل ، الحاج بهاء .. ليس  
مضموما هو الآخر على أطماعه الخاصة فى الكسب المادى أولا ، وفى  
التضخم المعنوى بين أقاربه هؤلاء الذين غادرهم جده القديم مهاجرا  
الى الحضر ، ففقد احترامه البدوى كما فقد انتماءه للاصل والجذور ،  
أليس راغبا ذلك الحفيد أن يعود الى قبيلته السابقة غازيا ؟  
ومن منهم سيبقى هنا ؟

سيرحل أنطون بك الى القاهرة .. تلك العاصمة المشهورة  
التي وعدك بأن يدعوك لزيارتها مع أول شحنة من التلك يخرجها  
المنجم .

وسيرحل الحاج بهاء الى تجارته وزراعته فى ادفو وكوم امبو .  
حتى الشيخ على سيواصل الترحال بين جبال الصحراء .  
وستبقى وحدك .. مع هؤلاء الرجال الذين سيقع على كاهلهم  
ثعب استخراج التلك من المغارات .

هؤلاء الرجال الذين كان المرحوم ايسا يرى دماءهم القانية  
تطفح على سفوح الجبال ساعة الغروب ، فتظللها باللون الدموي .

## الفصل السابع

للشيخ على حكمة بالغة يلتقى بها بروية على حصى الصحراء  
كلما عبر برجل عارى المؤخرة ملتو على نفسه يعصرها لخراج فضلاته  
.. يقول ناصحا .. اضبط نفسك .. يازول اضبط نفسك ..  
مهده الأرض واحفر ثقباً تصوب إليه واضبط نفسك !  
ذلك العجوز الضامر ، كشجرة صحراوية جافة وشامخة  
يعرف كيف يخلط المزاج بالجد ، ويشق طريقه مارقا بوضوح بين  
الدروب .

سيكون يقونتك يا نيقولا ، ذلك الشيخ على ، بعينه انواحدة  
التي يستطيع أن يكشف بها من خفايا الصحراء آلاف الاشياء  
والعلاقات التي تخفى على عينيك الاثنتين .. فها هو عبر هذا الزمن  
الحافل الذي عاشه منذ كان طفلاً يحبو خلف الحملان الصغيرة وراء  
الحيش فى ظلال الجبال مع اترعاة .. الى أن غدا شاباً يروح ويجي  
مع قوافل الجمال المرسله للبيع فى سوق كردفان .. ما يزال ضابطاً  
نفسه .. أنيس حزنه أكثر جدارة من حزنك .. وايسا ابن اخيه  
زوج ابنته .. وابشر اليتيم حفيده .

لقد استطاع هذا العجوز على كبر حصيف وعقل مجرب ثاقب أن يكون جسرا ومعبرا بين الحضر والبدو .  
أليس هو أكبر الادلاء واقدمهم خبرة ، ذلك الذى تخطى خيام الحيش الى ابواب الصحراء ومدخلها ليستقبل المغامرين الافرنج وشركاءهم من اصحاب المال المصريين ، ويقود خطاهم عبر هذه الجبال ، ويضع اصابعهم الحمراء على خاماتها واحدة بعد اخرى .. مغمضا عينه الواحدة عن رجفة الطمع فى عيون الاجانب .

هل كان ساذجا وهو يفعل ذلك ، أم كان أكثر الجميع حكمة ؟  
لقد أدرك العجوز أن الجبال على حالها منذ القدم ، وأقاربه على حالهم منذ القدم ، ولن تفتح الكنوز على ايديهم ابدا .. فلا بد لمن يحمل التهمة ان يجرى ويفك رموز الطلسم ويفض الاختام .. ويقتل الوحش ، ويفتح ابواب الكنز للجميع .. سيكون له نصيب الاسد فى البدء أى نعم .. وبعدها يبدأ الفيض يعم .

هؤلاء الاجانب يملكون المعرفة ، والخبرة ، ويملكون من السلطات ما يجعلهم يشيرون بأصابعهم تجاه الحضرة فتجىء السفن وتجىء البوريات محملة بما لم تره فى الصحراء عين ، أو تسمع به اذن .. ادوات وآلات ومشاريب وأطعمة وكساوى .. فيض غامر يتحرك الى الصحراء ويتسرب على جبالها حيث يقيم هؤلاء الاجانب ، ويسيل على الحواف حيث يقيم البدو فيتعلمون منه أو يعلمون به .. ان لم يزد عن ذلك النصيب .

لقد رفض البشاريون هؤلاء الغرباء رفضا رومانتيكيا أقرب لرفض الانعام .. فيدير البشارى رأسه تجاه الفضاء اذا رأى واحدا منهم ، حتى لا يراه .. مما جعل هؤلاء الغرباء يستقدمون العمال من وىف الجنوب .

أما ايسا فكان ثائرا غضا .. مالت نفسه الجامحة الى مقاومة هؤلاء الغرباء لأول وهلة وكان ذلك خطأ ثانيا .. فلو انصرف الغرباء عن الجبل نتيجة مقاومة البدو لهم ومناواتهم لمشروعاتهم .. فسببى الجبل على حاله وسببى البدو على حالهم ، مئات السنين الاخرى ، فلن تعلمهم الرحلة من وادى الجمال الى سوق كردفان شيئا يذكر .

وهكذا قرر الشيخ على أن يغرس فى صخور الدرهيبت شتلة كاملة للتقدم .. لقد حاول فى مناجم النخيرة والفواخير وحماطة أن

يغرس بذرة ٠٠ فوضع مع الغرباء في كل منجم منها بشساريا أو  
عباديا ، جمعه بالحيلة مرة ، وبالوعد أو الوعيد مرات أخرى ٠٠ حتى  
خلصه من أسر العرف والعادة ، والقى به في خيام الصفيح التي  
كانت تؤرق ايسا في منامه وتشعل رؤاه ، ليتعلموا عن صنعة التعدين  
شيئا .

فبدون تعلم الصنعة ، لا يمكن أن تكون لهذه الجبال قيمة .  
وهاهو العجوز الماكر يجمع هذا النبت الاخضر النامي في تلك  
المناجم الاولى ليكون منه شتلة واحدة يغرسها في الدرهيبي لتنتب  
الشجرة .

هل يحلم الرجل بأن يمتلك معارف هؤلاء الاجانب قطرة قطرة  
مهما طال الزمن ، خلال تلك البذور التي يلقي بها بينهم في المناجم ؟  
لقد أخذ نيكولا يحدق من خلال وجوهه الى سماط العمال القائم  
عبر قريب من سماطهم ٠٠ سبعة رجال مختلفين تماما عن رجال الريف  
الذين جاء بهم الباشا المصري خليل للعمل في السكري ٠٠ يبدوون  
كهؤلاء الذين اعتاد العبور بهم في رحلاته اتقصيرة حول جبل السكري  
أو كهؤلاء الشامخي الانوف المترفعين بأسمالهم وفقر اجسامهم ،  
الممثلين بالشعور بالغنى الفاحش لاندماجهم في الطبيعة ٠٠ كأنهم  
آلهة قديمة غير مدربة ٠٠ تبدو فجأة وجاهلة ، ولكن تفوح منها عظمة  
الآلهة ٠٠ بينما جلس الشيخ الى سماطهم ، يدس لهم مع الطعام  
أوامره ونصائحه ، العلم اوشيك العجوز نوعا ، سيقم على المدخل  
السفلى للدرب المؤدى الى الباحة ، خصا من الصفائح والاشخاب  
وبقى فيه للحراسة ٠٠ سيكون غفيرا ٠٠ وعبدربه كريشاب سيعمل  
في التحميل والوزن لأن عمله الاساسي سيكون تموين المنجم  
بالاسماك ٠٠ ثلاث مرات في الاسبوع عليه أن يغادر المنجم ليلا حين  
يأوى الجميع للنوم ، حاملا حرابه وشباكاه ، فيأخذ جملا يقضى به  
بعد ساعتين أو ثلاث الى أطراف خليج بناس الشهير ٠٠ يحط رحاله  
جوار الماء قبل الفجر ، فيجهز حرابه ويتسلل بقدميه العاريتين في  
الماء دون حس ٠٠ متربصا للاسماك الكبيرة التي يغريها الظلام المضيء  
بالتسرب الى الجواف الرملية القليلة الأعماق لتلتهم فراثها من  
الاسماك المتوسطة والصغيرة .

هاك عند ربه يا نيكولا ٠٠ حاملا بذور المأساة في دخيلة نفسه ،

سليل قبيلة الكريشاب القديمة . حاملة تقاليد الفراعنة فى صيد  
الاسماك بالقضبان والحراپ القصيرة ، يعيشون على حواف الصحراء  
البحرية . يأكلون من رزق البحر .. يشقون الاسماك ويجففونها  
على شمس الصحراء وهوائها ، ثم يرحلون بها الى الاخصاص بين  
الجبال لمبادلتها بالشعير .. حتى جمالهم دربت بطول الزمان على  
هضم الاسماك الصغيرة الجافة واكتفى بها .

هاك عبد ربه كريشاب يا نيكولا يتطلع كأنه ينتخبك من بين  
الموجودين جميعا ليخصك بعواطفه ومأساته .. ألم يبدأ فى ذلك  
اليوم بوعده أن يأتى لك بكومة هائلة من الاستاكوزا التى سمعت  
عنها فى الصحراء كثيرا ، ولم تتذوقها بعد ! .

والباقون .. خمسة .. سيعملون معك فى الانفاق .. هاهو  
الشيخ على يوصيهم بك .. يعدمهم ليكونوا الورثة الشرعيين لهذه  
الجبال وكنوزها بعد أن يأخذ الغرباء نصيبهم ويرحلوا .  
لقد استهوتك يا نيكولا قدرة هذا المعجوز على الصبر ، وإيمانه  
بأن الزمن فى صفه .

ولعلك منذ تلك اللحظة على سباط الحملان المشوية قررت أن  
تأخذ جانبك .. فما الخواجه انطون بك غير طارء عابر ، ينتمى  
لمصنعه الصغير فى المدينة ولأملكه وعلاقاته بها .. وما الحاج بهاء  
بأقل منه اخلاصا لثروته فى ادفو وكوم أمبو .. أما انت فلا تنتمى  
لشئ .

ولن يفيدك أبدا أن تظل واقفا بين بين .. فاضبط نفسك .  
على حد قول الشيخ على .. مهد الارض واحفر ثقبا تصوب  
اليه . واضبط نفسك .

ولتكن مغارة هذا الجبل مجال تصويبك .  
وليكن موقفك الى جوار هؤلاء الورثة الشرعيين .. هو  
انضباطك .

ولتبدأ بالحلم .. فكل الاعمال العظيمة فى تاريخ البشرية  
بدأت بالاحلام .

وليكن حلمك على مستوى تلك الطاقة الهائلة المخترنة فى  
قلبك .. والمخترنة فى قلب هذا الجبل .. والمخترنة فى سواعد  
هؤلاء البدو وقلوبهم .. رجال الشيخ على ، ورجالك بعد أن ينصرف  
الجميع .

ستكون القائد توجههم للعزف فى هذا المجال الوحشى ، بين  
الصخور .  
أمامكم أغنيته تنشدونها . . تتجاوب اصداؤها فى هذا الخواء  
البكر ، ليتحول الخواء البكر الى مدينة تحفل بالحركة والحياة على  
أحدث مستوياتها الآلية .  
انشاد مدينة .

ما أجدرك بهذا الحلم يا نيكولا . . وما أجدر هؤلاء الرجال  
الغامقى السمرة به .  
وهكذا رأى نيكولا أن اكتفاءهم بنبش الصخور يحصرهم فى  
دائرة صغيرة لن تزيد أبدا عما يسمح به فى مناجم النخيرة والفواخير  
ونكرات ، وغيرها من مناجم الصحراء .  
فقال نيكولا ، ان القدامى قد هبطوا فى جوف الجبل طبقتين  
على عمق ثلاثمائة متر تقريبا . . ولا بد أنهم فعلوا ذلك خلال عدد  
كبير من السنين ، وقد أخذوا من سراديب هذا العمق وممراته ، كل  
ما يمكن أن تجود به الصخور من الحام .

وقد رأى عرق التلك الشاهق البياض ، يطل بذوابته من  
السرداب الواقع فى قلب الجبل تماما ، فى نهاية الطبقة الثانية . .  
ولا بد ان القدامى قد وقفوا عنده وترددوا فى متابعتة لان ذلك كان  
يعنى أن يحفروا فى عمق الجبل طبقة ثالثة ، ينطلقون منها خلف  
الحام . . ولا بد لهذه الطبقة الثالثة من بئر تلمهوية . . ثقب عمودى  
يتصاعد من تلك الاعماق حتى ينفتح على السماء فى قمة الجبل فيحمل  
للععمال داخل السرداب هواء نقيا . . فلن تكفى تلك الفتحة التى  
فتحتها القدامى لتمد الاعماق الثلاثة بأنفاس الحياة .

قال نيكولا . . لا بد من التفجير ، ان كننا راغبين فى عمل  
جاد . . فلنستخدم البارود . . ولنستخدم مدربا يدرّب العمال على  
تخريم الصخور وحشوها بالمتفجرات ، ولنستخدم أخصائيا فى  
التفجير . . سيكلفنا هذا مالا . . أى نعم . . لكنه سيوفر لنا وقتا  
كثيرا . . فلنواجه هذا الجبل بكل شجاعتنا وكل قوتنا ان كنا راغبين  
أن نفوز عليه . . ونبقى فيه .

فهذا الحام المبعثر يمكن لهؤلاء العمال السبعة أن يجمعوه خلال  
شهرين . . وشهران آخران يكفيان لجمع الفتات المتبقى داخل

السرايب والانفاق .. وبعدها سنواجه عرق التلك الشاهق المياض  
يطل علينا بدوابته الثلجية في ذلك السرداب الاخير ، ضاربا ببذوره  
السخية والكثيفة في اعماق الصخور .. عند قلب الجبل تماما ..  
وسيكون علينا أن ننكص على اعقابنا ونرحل كما فعل القدامى ، أو  
نلقى حتفنا بطول الزمن ونحن نحبو في عمق الجبل بالفأس والازميل .

مال الحاج بهاء للمغامرة . بينما تردد الخواجة انطون فترة  
مضى خلالها يقلب الامر على مختلف الوجوه .. فأكد عليه نيكولا  
متحمسا .. لابد من التفجير .. واحضر أوراقا مضى يخطط فيها  
راسما للخواجة انطون مسار الجبل ودهاليزه مبينا مجرى الحامة  
خلال تلك المسارب والدهاليز .. مؤكدا حاجتهم لوسيلة سريعة  
تقتحم لهم تلك الصخور فاتحة فيها مسارب ودهاليز جديدة ..  
ومضى فحسب له حساب البارود وفتايل الاشعال ، وتكاليف  
التدريب .. وحين رآه مازال مسربلا بتردده طلب أن يصحبه داخل  
المغارة ليريه ذؤابة الحامة المطلة من جدار السرداب الاخير .. فانتبه  
الخواجة انطون ومال للاقتناع .. كان واضحا أنه مستعد لكل شئ ،  
الا أن يفوض بجسده النحيل الانيق بين تلك الصخور .

وسافر الخواجة أنطون بك الى مصر .. وبجيبه قائمة جديدة  
بما يحتاجه هذا التوسع الذي لم يكن متوقعا من آلات وأدوات  
لشرائها وشحنها من هناك .  
وسافر الحاج بهاء الى ادفو ومعه قائمة بالتموين المطلوب للمنجم  
كل أسبوع .

بينما دخل الشيخ على الصحراء ، ليجمع عددا آخر من شباب  
العبادة للعمل في الدرهيبي .  
وكان الصيف قد بدأ يا نيكولا .. حينما جاءت ايليا الكبرى  
مصطحبة معها ايليا الصغرى بحثا عنك .  
كان منحنيا أمام برميل الماء ، بينما ابشر يصب الماء بين يديه  
ليزيل من وجهه وذراعيه تراب اليوم ، اذ عاد السائق بعربة الجيب  
قادما من ادفو .. محملا بتموين الاسبوع كله . فاقترب من نيكولا  
وقدم له قائمة التموين ، وقدم له برقية ارسلها الخواجة انطون على  
عنوان الحاج بهاء يخبره بأن زوجته وابنته في القاهرة ، وأن حضوره  
للقائمتها ضرورى ، فليس ممكنا ارسالهما الى الصحراء .



ولم يكن ممكنا أن يرحل نيكولا في الليل ، فدرس البرقية في جيبه وخلا لنفسه في الباحة بعد أن وزع التموين والماء .. ومضى يرقب أواني الطعام التي نصبها العمال على نيران الصخور في جوانب الباحة .. مستغرقا في ذلك الشعور المفاجيء الذي دهمه واستولى عليه .. ولقد فكر أن ايليا الكبرى تسعى خلفه بالحاح نابع من عنادها الموروث وشخصيتها الامتلاكية .. فما نيكولا سوى الجانب الاجتماعي المتمم لمشروعاتها الناجحة .. وهكذا سافر في الفجر بالسيارة الجيب الى ادفو .. ومن ادفو اخذ القطار الى القاهرة .. وفي القاهرة ما كاد يرى امرأته الصديقتين .. زوجته وابنته .. حتى ذابت هواجسه في دوامة من المشاعر الزوجية والابوية المرهفة .. كانت ايليا الكبرى قد جاءت مسلحة بكل فتنتها العارمة التي اعتادت أن تدير بها رؤوس الرجال على شواطئ ايطاليا .. قبل أن يعرفها نيكولا .. وتزوجه .. وقد أعدت العدة لتقضى مع نيكولا فترة تعيد اليه صوابه .. وتذكره بما نسيه من مآثرها الزوجية .. أعدت العدة لتغويه .. وتعود به الى ايطاليا .. فحجزت في افخر فنادق المدينة جناحا استقبلته فيه بحفاوة تليق بزوج غائب ، عائد الى زوجته المنتظرة والمشتاقة .. وقد امضيا معا أسبوعين عاشهما نيكولا ببساطة وصدق ، كرجل سعيد مستقر النفس يقوم بسياسة ممتعة في عاصمه مصر مع زوجته وابنته .

ومن خلال العناق الحار ، والقبلات المبهوسة والخافطة طلب نيكولا من ايليا أن تبقى معه .. لتكون ملكة في مدينته التي يعتزم انشاءها في تلك الصحراء التي وهبها قلبه وجسده . وطلبت منه ايليا أن يعود معها ليكون ملكا على كل مشروعاتها الناجحة .

وأدرك انهما قطبا صراع لا يلتقيان ، ولم يكن الصراع لائقا بمشاعرهما التي يبذلها كل منهما للآخر بعد هذا الفراق الطويل . ولم تكن بعد قد استنفدت كل اسلحتها .. لقد خصصت لهذه الرحلة قنبرا كبيرا من مالها ، وكان في تقديرها أن سعيها لن يخيب .. وأن هذه السنوات الماضية قد تكفي لتملأ الشعور المجوف داخل نيكولا ، الذي يدفعه للمهجرة .. فيهدأ ويعود . حدثها نيكولا عن احلامه العريضة في الدرهييب العظيم .. وعن

الصحراء والجبال والبدو والاشجار المزينة بقطع النقود القديمة ..  
وعن الحفر والتفجير والسراديب العميقة التى تخرج الحامة التى تصنع  
منها مساحيق النساء .. قال لها أنه يقوم بما يجب على الرجال أن  
يقوموا به .. وانه ينوى أن ينشئ فى تلك الصحراء مدينة تليق  
بملك حقيقى .

لكن أحلامه كانت مغايرة لأحلامها .. وهكذا اتفقا على أن يبقى  
كل شئ مؤقتا كما هو سنة أخرى أو سنتين .. فربما يغير أحدهما  
موقفه .

وكانت ايليا الصغرى قد تعلقت بأبيها نيكولا وأبدت رغبتها  
فى البقاء معه .. وحين حاولت ايليا الكبرى أن تعترض . فوجىء  
نيكولا بأن ايليا قد تكررت فعلا .

فلم يكن عناد الابنة بأقل صلابة ومقدرة .. من عناد امها .  
وهكذا عادت ايليا الكبرى الى ايطاليا وحدها .  
وعاد نيكولا مع ايليا الصغرى الى الدرهيبي .  
حيث مدينته المتوقعة والمشتهاة .. والتى يجسدها له حلمه  
لأثقة بملك .



## الفصل الثامن

ايليا شهوة جامحه .. كما أن الجبل شهوة جامحة ، كما أن  
تلك الصحراء من حوله بسكونها الصوفي ، شهوة كبرى أشد  
جموحا .. فما الغريب في أن تتكرر داخل جسده رجفة النشوة  
التي تهز الروح وتسرقها لحظة انتقال سائل الحياة المخصب من جسد  
الى جسد .

ما الغريب في أن تتكرر داخل جسده تلك الرجفة حين يقف  
في قلب الدرهيبي العظيم .. في السرايب الحارة والسرايب  
الباردة .. يتحسس الجدران البكر مختبرا طراوتها .. محددًا  
بالطباشير الابيض علامات نعماله ليثقبوها بآلاتهم .. ويحشرون في  
بكراتها أصابع متفجراتهم .  
كأنه فعل جنسي من أفعال الاخصاب .

الست هخصب الآن هذا الجبل فعلا يا نيكولا ؟  
وما انزلاقك الدؤوب في رحم هذا الجبل .. سوى سعى  
لزرعه وايلاده ؟

لقد أولدتك ايليا الكبرى . ايليا الصغرى بارادتها .. أما أنت فتولد الآن هذا الجبل بارادتك واختيارك .  
وينتميه نيكولا . بينما يغطيه تراب التفجيرات الداخلية التي تهتك بكاراة الصخور الى أن الدرهيـب قد أصبح بديلا لايليا .. زوجته .

لقد كان ماريو بديلا لايليا فى البدء وجاء ايسا فأصبح بديلا لماريو . ولايليا فى نفس الوقت .. وعاش نيكولا تلك السنوات فى الصحراء لم يرتجف جسده خلالها بشهوة الجنس .. ما أعقل أن يختار اترهبان فى جبال تلك الصحراء صوامع عبادتهم .. فلقد ساعده سكونها الصوفى المشحون بالتوتر الباعث للنشوة على التخفف التلقائى من أحمال الجسد الداخلية .. ولم يشعر أبدا بحاجته الى امرأة .. فقد كانت الطبيعة من حوله امرأة عظمت احتوته واستأثرت بجموحه وحيويته .

حتى تلك المرة الوحيدة إنتى التحم فيها جسده الرجولى بجسد امرأة .. حتى نك المرة كانت مسلووبة منه .. حين جاءت اقبال هانم زوجه الباشا المصرى خليل تزور منجم الذهب فى السكرى كعادتها ، وألحت ساعة خروج العمال من المغارة للغداء والراحة أن يهبط بها نيكولا داخل هذه المغارة لتتفرج .. فلم يدرك نيكولا وقتها أنها قد بدأت تنفض جسدها من ماريو .

حتى وهو يسبقها على سلالم المغارة ويسـتدير رافعا قمع الكربون مضيئا لساقىها مكان الهبوط مستوعبا بعينه الفضوليتين جسدها اللدن المعطاء كله .. لم يتذكر نيكولا أو يتداعى الى عقله صورة هذا الجسد ممددا عازيا على رمال مرسى علم الذهبية ، بينما ماريو يزينه ببديه الشهوانيتين ، بحبات البشـبش المتحركة . ذات القواقع اللؤلؤية .

بل أنه لم يشعر برجفه انترقب الداخلية التى نصاحب الشهوة ، وذراعه تحت ذراعها يقودها فى تلك السرايب والممرات بينما اظلام يحوطهما .

وحين احتوته اقبال هانم فى صدرها المتباهى وانحنى الى الخلف هابطة به على الصخور .. كان ذلك بالنسبة له بديهيا ومتوقعا .

لقد استجاب لها ، كأنما كان من واجبه أن يستجيب لها ..

تم أصلح ملابسه ورفع مصباح الكربون فأضاء لها حتى أصلحت  
ملابسها .. وتقدمها عائداً .

لقد القى هذا الحادث العابر بظله الجنسي على نفسيته اياما  
ثلاثة وربما اربعة ، وبعدها عاد الى طبيعته الجديدة المكتسبة من  
المكان .. ونسى كل شيء عن هذه المسألة .. فلم يشعر برجفة  
الشهوة بعدها حتى فقد ايسا .

وفى تلك الليلة الاولى التى واجه فيها الدهيب مطاطىء الرأس  
كانما قد انكسر بداخله شيء .. كانت وليمة الثعابين حول الفوهة  
التي احتوت ايسا ورفاقه ، هي الصورة الوحيدة التى تملأ رأسه  
حين أغلق عليه باب خيمته .. وكان ايسا يشاركه فراشه الصغير  
الضيق طول الوقت قبل أن يغلق عينيه .. يتصوره رافعا سيفه  
وهو راكع على اعتاب مغارة جده القديم الصخرة ويتصوره مارقا  
كالسهم على بعيره بين الجبال مبشرا تعساءها بالرحمة وفقراءها  
بالعدل .. صاحبها بحماسة المثل فى الوديان .. ويتصوره مشيرا  
للمنجوم يعلمه مواعيد طلوعها واختفائها .. ويتصوره مشمرا عن  
ساقيه المروقتين الغامقتى السمرة ، ماشيا على الاخشاب المشتعلة  
بقدميه الحافيتين جيئة وزهابا ثلاث مرات .. مادا هاتين القدمين فى  
وجوه الجميع كأنه يشهدهم على براءته .

وحين أغلق عينيه ودخل فى النوم اختفى ايسا وظهرت ايليا  
الكبرى زوجته .. ظهرت عارية كما اعتادت أن تظهر فى لياليهما  
القديمة بجوار فراشه الجانبي بمخزن الادوات فى مطعم والدها  
الساحلي .. وادخلت تحت غطاءه الحشن فى تلك الخيمة كل مفاتها  
القديمة التى خبرها وعرفها .. ولم يشبع منها تلك الليلة ولم تشبع  
منه .. حتى صعد الفجر من الوديان الحلفية وزحف بضوئه على  
صخور الدهيب ودخل خيمته ، فاستيقظ مترعا بالنشوة ليجد  
ايليا قد اختفت ايضا .

وعاد ائيه وعيه بأن ايسا قد مات فعلا .

فى ذلك الوقت شعر نيكولا بحاجته الى ايليا .

وجد نفسه وحيدا ، ووجد نفسه مطالبا بأن يكون قويا على  
مستوى تلك الوحدة .. وأمكنه أن يتغلب على ذلك الضعف الذى  
يجره لمسارب الشهوة .. وحشد طاقته كلها لينسج حلمه بأن ينشئ  
فى هذا الجبل مدينة عامرة بالخصوبة والحركة .

حتى جاءت ايليا .  
هل كان ممكنا ان تكتفى بالحلم يا نيكولا الى جوارك ايليا  
بمفاتيحها الأخاذة التي كانت تدير بها أعناق الرجال ورؤوسهم فى  
سواطى ايطاليا ؟

هل كان ممكنا لجسدك الذى اختبر هنا الظمأ كله أن يمتنع عن  
الارتواء من تلك الينابيع التي فجرتها ايليا ؟  
هل كان ممكنا لكل هذه اثرغائب الملتهبة التي استيقظت فى  
دمائك يا نيكولا ان تهدأ وتهجع ، بعد رحيل ايليا ؟

فما الغريب اذن فى أن تتكرر داخل جسدك رجفة النشوة  
التي تهز الروح وتسرقها كأنما سائل الحياة المخصب ينتقل من  
جسد الى جسد بينما انت تنزلق قائدا لعمالك فى قنوات الدرهييب  
باحثا عن كنوزه الخفية ؟

لقد كان طبيعيا أن يصبح الدرهييب بديلا لايليا . . وأن يصبح  
افتحامك لدخيلته على هذا المستوى الشهوانى . . كانه امرأة ترغب  
فى الاتحاد بها لامتلاكها .

وما هذه الصخور العاتية التي تواجهك بين الحين والحين كأنها  
تتحداك وتطالبك بمغالبتها والتغلب عليها . . غير ذلك انفور والصد  
الطبيين فى المرأة ، متممين لفتنتها وغوايتها .

كان الشتاء قد بدأ يبذر بواده فى سماء الحريف ، فسعى  
صاحب السعادة أنطون بك لدى بعض معارفه حتى التحقت ايليا  
انصغرى بالمدرسة الايطالية بالقاهرة . . فى القسم الداخلى . . وفى  
اجازات نهاية الاسبوع كانت تذهب الى بيت الخواجه أنطون فى  
جاردن سيتى محملة بكتبها وملابسها . . فتلقى بما تحمله هنا  
وهناك كان البيت بيتها .

حورية لم تبلغ عامها العاشر بعد ، فى بيت محروم من  
الحوريات . . فقد كانت السيدة زوجة أنطون بك مصابة بمرض  
أفعداها عن الحمل والانجاب . . بل انه فى سنواتها الاخيرة تلك قد  
أفعداها عن السير فى جنبات بيتها .

وكان فى البيت عدد لا بأس به من الخدم جاءت بهم تلك الاسرة  
المسيحية من ريف مصر حيث توجد اطيانها وممتلكاتها . . فكرس  
هؤلاء الخدم انفسهم لهذه الحورية الصغيرة المتوحدة . . التي كان

يبدو أن سيدهم أنطون بك المحروم من الحريات سعيد بوجودها .  
كان قد تخطى الخامسة والأربعين من عمره دون ولد .  
وما كان قادرا على الخروج عن تقاليد العرف والعادة والمعتقدات  
السالفة لينفذ حياته الجدياء الحانية . فكرس نفسه للعمل .  
واغرقها في معمل مصنعه لأدوات التجميل بين التراكيب الكيماوية  
المعقدة . حتى استطاع في معرض صناعى عام أن يفوز بالجائزة  
عن عطر استخلصه .

وبطريقة جانبية تبدأ من حملات الطبقة الراقية وتندرج بين  
محافل الجمعيات الخيرية وحفلاتها الصاخبة للتبرع والاحسان استطاع  
الخواجة أنطون أن يصل الى قصر الملك . وأن يحصل على الباكوية  
بالطريقة التى كانت متبعة فى ذلك الزمن . شهادة مذهبة مزينة  
بالتاج الذهبى علقها فى برواز خطير مذهب فى حائط الصالون  
الامامى لتواجه بتألقها كل من يدخل بيته للعمل أو للضيافة . لم  
تكلفه سوى هدايا لم تزد قيمتها عن ثمن فدانين أو ثلاثة .

وهاهو نيكولا الغريب الذى لا وطن له يفتتح أمامه أبواب  
التوسع . ويحطم حواجز خوفه الغريزى وتردده فيزرع له جزءا  
من ثروته فى جبل بالصحراء ، ويعفيه من الجهد والمشقة والفكر ،  
ويقف هناك بين الصخور بديلا عنه وعن شريكه الآخر الحاج بهاء .  
يهز لهما الجبل لتتساقط عليهم ثماره فى أدفو والقاهرة .

فما الذى يمنعه أن يكون سعيدا بإيليا الصغرى ضيفة فى  
بيته . وحين يجيء الصيف ، تأخذ أجازتها من المدرسة فتذهب  
الى والدها فى الجبل محملة بمرحها الطفولى النزق ، فلا يستغرب  
فى الصحراء وجودها . كأنها زهرة برية متفردة من تلك الزهور  
النادرة التى تنبت دون قاعدة بين حنايا صخور الجبال ، فتهدد  
بجمالها وحشيه الجبل . وتضفى عليه من جمالها وحنانها .

وفى انفجر تهبط ورديه الصباح داخل المغارة لتواصل ثقب  
الصخور فى مكان العلامات الطباشيرية التى خطتها نيكولا ، وتحشوها  
بالمفجرات . وقبل الظهر بقليل يبدأ التفجير . يجمع العمال  
أدواتهم من السرايب وينسحبون متراجعين خارج المنجم . يحصيه  
نيكولا واحدا وراء الآخر خلال انسحابهم حتى يتأكد انهم  
جميعا قد غادروا المنجم . فيشعل فتيلة التفجير وينسحب ساعة

الخطر .. ويهتز الجبل هزة لا تكاد ترى ، ويسمع من الخارج صوت الانفجار المكتوم .. سلسلة من الانفجارات المكتومة يدرك نيكولا جيدا وهو يحصيها بأذنه المرهفة بينما يتناول غذاءه البسيط المكون من ثريد اللحم ، انها نفتح الطريق الى الطبقة الثالثة .. وسراديبها .

وبعد ساعتين تكون سلسلة الانفجارات الداخلية المتتابعة قد توقفت تماما ، ويكون تراب الانهيارات الصخرية قد بدأ يسكن أيضا ويرتاح على أكوام الصخور التي فجرتها شحنات البارود من الجدران وأهالتها في قيعان السراديب والممرات .. فتبدأ الوردية انشائية في الهبوط الى المنجم لاجراج تلك الاكوام .

كالنمل يصعد الرجال ويهبطون من المغارة واليها ، حاملين على اكتافهم وظهورهم ماجادت به السراديب من صخور وأتربة بعد التفجير .. ثم ينحدرون بها في طابور متلاحق على حصى السطح المنحدر أسفل المغارة ، حتى يصلوا بها الى الساحة .. فيكومونها تلالا في الخلفية .. ليتلقاها رجال الوردية الاولى الذين يكونون قد انتهوا من الغداء والراحة .. فيتنالونها بأنفصص والترتيب .. يستخلصون منها خامة تلك الشمعية التكوين الشاهقة البياض ، فيرتبونها في درجاتها المختلفة .. أكواما ممهدة لنقلها الى الميزان ساعة التحميل .

هاهو الجبل يعطيهم ثماره بجداره واستحقاق .. فيجلس نيكولا متوسطا الباحة .. مزهوا بادراكه الذي هداه الى أن يفتح في قلب الجبل طبقة ثالثة متتبعا عرق اتلك المطل عليهم بذوايته .. هاهي الطبقة الثالثة قد فتحت وتشعبت السراديب من باحتها المربعة ، وتعددت الممرات ، وأرتفعت من سقفها بئر صاعدة لتسحب الهواء النقي من السماء الى قلب الجبل وشرايينه .

يجلس نيكولا مسترخيا يرقب طابور العمال المنحني اظهر نحت ثقل خامة التلك الشمعية مزهوا بنجاحه .. كم من الاطنان يا نيكولا حملها هؤلاء الرجال من داخل المغارة الى خلفية الباحة .. خلال هذه السنوات .. ليحملوا بها ظهور الجمال فتعبر بها الصحراء الى ميناء الدرهييب .

لقد أمكنك يا نيكولا أن نقيم على البحر ميناء ترسو به السفن



قادمة الى هذا الجبل الضائع فى متاهة الصحراء مغمور الاسم ..  
وعائدة منه .

يجلس نيكولا فى الباحة مزهوا يدير عينيه فىرى الباحة قد  
نسقت ورصفت ، واقامت على جوانبها ثلاثة بيوت خشبية ..  
وعنبر للمخازن .. وللطعام ، ودورات خشبية للمياه ، وورشة  
لاصلاح الآلات والادوات .. وأصبح لهم مولد للكهرباء ، وخزان كبير  
لحفظ المياه .

هل كنت تعلم بأكثر من هذا يا نيكولا ؟

لقد جعلت من الدرهيب زوجتك وأولادك وبيتك .. واقمت  
فيه حياة عائلية جديدة على المستوى الرجولى .. عائلة كبيرة كلها  
من الرجال .. حياة جديدة خشنة جافة وقاسية لكنك تعودتها شهرا  
بعد شهر ، حتى صارت حياتك التى كانت لك قبل ذلك نوعا من  
الوهم الغامض والخيالات .

كانت ايليا الكبرى هى الشهوة .

وأصبح الدرهيب هو الشهوة .

شهوة مقلقة توقفك ساهرا أمام المائدة الهندسية فى خيمتك  
على مصباح البترول ، تراجع ما تم حفره وترسم لما يجب أن يتم  
حفره .. ثم تغفو قبل الفجر ساعتين وتهبط قبل العمال الى المغارة  
تختبر الصخور .

وحدك كنت تدخل يا نيكولا .. تدق جدران السرايب بعصاك  
الحديدية تختبر صلابتها ، وترحف بمقياسك المولبى على أبعادها  
تسمع بالذبذبة تنفسها الداخلى وتنصت لضجيرها ، لتتلافى أن  
تفاجئك فى الصباح بانهياء غادر غير محسوب ، يختطف من  
مجموعتك عاملا أو اثنين .

وحين تستدير عائدا مطمئنا تفاجأ بأنك لم تكن وحدك .

أنسييت أبشر ؟

ذلك الصبى الأبنوسى الجذاب العينين .. ولد ايسا .

جليسك وانيسك فى ساعات الاسترخاء، وإراحة على حافة  
الجبل الغربية تشرف على الشمس الهابطة بضوئها الدموى على  
الوديان .. الأحمر المشوب بالصفرة الشاحبة فى تلك السماء،  
اللامتناهية . تظلل جبلك كأن ليس فى انكون غيره !

ونابعك كظلك خلال العمل ليكون ذراعين صغيرتين وذكيتين ،  
اضافيتين لك .

حامل صورتك وأوامرك فى الممرات المظلمة الى العمال ..  
وطاهى طعامك .. ثم سائق سيارتك .

ينتهي من منامته الارضية وينهض جالسا يفرك عينيه بمجرد  
ما تفتح عينيك .. ليقرب الى يديك كل ما يبعد عليك من أشياء .

فما الغريب أن تجده خلفك فى انسرداب حين تعود مطمئنا بعد  
اختبار الصخور ؟

ثم جاءت ايليا الصغرى فأصبحت ثالثكما .

الصيف بأكمله تقضيه ايليا الصغيرة معك قطعة منك ، مختلفة  
تمام الاختلاف عنك .. تبهرك وتذهلك فتغيب فى تأملها ساعات  
طويلة كأنك تحاول أن تتغلب على واحد من ألغاز الكون .

فى وجودها فكرت فى البيوت الخشبية وشرعت فى انشائها .

وهذا الحزان الكبير انمياها لتتمكن تلك البيوت الخشبية من  
توصيل الماء لسكانها فى المواسير .. كعادة المياه فى المدينة ..  
ألم يكن ذلك أيضا بسبب ايليا ؟ .. تلك الحورية النزقة لم تكن  
تتورع حين يحى، ميعاد حمامها أن تجرى الى براميل الماء عارية وتقفز  
فيها .. أو تطلب من البشر أن يصب الماء على جسدها الانشوى  
الصغير النامى .

لقد جاءت ايليا الصغيرة واضفت على حياتك الحسنة من  
جمالها وحنانها .. فأصبحت ربة بيتك .. وزهرة مدينتك الخشبية  
الجديدة .. تشرف على الطعام وتنثر مرحها وبهجتها بالمكان على  
الجميع .. وتبتكر الافكار فيسرع الجميع لتلبيةها .

وهكذا نسقت الباحة ورصفت .. وزرع جانب منها  
بالشجيرات .

وكان العمل ينمو . بينما المدينة الصغيرة على الجبل تنمو ..  
وايليا الصغيرة تنمو .. وابشر ينمو .. وأنت أيضا تنمو يا نيكولا .  
يتصاعد الحام بوفرة الى ظهور العمال . فتنقله الجمال عبر  
الصحراء الى أدفو على النيل .. وتنقله مراكب النيل الى مصنع  
الحواجه انطون فى القاهرة .. الذى كان أيضا ينمو ويتسع ..  
وفكرت أن تختصر طريق النقل يا نيكولا .

كانت قد أصبحت للمدينة الحشبية على الجبل نظمها وتقاليدها  
.. وامكنك أن تأخذ عائلتك الرجولية التى أصبحت تزينها ايليا  
ابنتك كل صيف .. مرة فى الشهر .. تجوبون فيها الوديان  
المجاورة للمدهيب لصيد الغزال ، أو ترحلون لزيارة الشاذل فى  
ضريحه المتواضع فى عين عيذاب ، على مشارف مكة يفصلهما البحر  
الاحمر الكبير .. فتذبحون لفقرائه الذبائح وتتناولون طعامكم الجبلى  
مع انصقور البنية الريش الصفراء المناقير .

أو تذهبون الى البحر على ساحل برانيس .. الى يمينكم على  
مسيرة ساعة يبدأ خليج رأس بناس الشهير يبتسط ويتمدد ، ذهبي  
الرمال ، مأوه شاهق الزرقة ، ليكشف عن جزر المرجان بأسمائها  
المنوعة الملونة للعين المجردة .. ووراءكم تهجع أنقاض تلك المدينة  
القديمة التى بناها القيصر بطليموس الزمار لابنته الاميرة برانيس  
ذات الاصل الانزجى .. وأمامكم داخل البحر ، فى عمقه البعيد ..  
تبدو ظلال جزيرة الزبرجد .

لقد استهواك هذا الساحل يانيكولا وأسر لبك .. فبينما انت  
مستلق على الرمال الناعمة عاريا ، تأخذ حماما من البود والشمس ،  
وايليا تشق الماء الشاهق الزرقة داخل الشاطئ امامك .. تلهو  
جئنة وذهابا كسمكة أو كحورية . ولدت فى رأسك فكرة اختصار  
طريق النقل .

لماذا لا تجيء الجمال بخام التلك من الدهيب الى هنا ..  
وتجىء السفن البخارية بديلة عن سفن الشراع ، عبر البحر الاحمر ،

لتنقله من هنا الى السويس .. فتختصر نصف الوقت وتضاعف كمية  
الحام المنقول .

وفكرت في تجهيز الساحل ليكون ميناء .. وسرعان ما امتدت  
من الرمال داخل الماء سقالة عريضة وطيدة لرسو السفن ، واقامت  
على الشاطئ ، كبائن خشبية للراحة وللاقامة .. وبدأ الضيوف  
يحيئون لمشاهدتك وأنت تنشىء على ذلك انشطاىء القديم المغمور  
ميناء شبه متحضر ، ليكون ملحقا لمدينتك الخشبية ؟

لقد فتحت في الصحراء منجما كان مهملا ومهجورا .. وأقمت  
حول المنجم مدينة سكنية من الخشب مجهزة بنظام يكفل انتظام  
العمل ونموه .. وأقمت للمدينة ميناء على البحر يرفع عنها سحابة  
العزلة وفكرتها .. ويربطها بالمدينة الكبرى .

وأصبح ما أقمته في الصحراء يا نيكولا مثالا أخذ يطمح اليه  
أصحاب المناجم الاخرى .. وتناقل الرواة اخباره فرغب في زيارته  
ذوات العاصمة ، وسراتها ، فبدأ الضيوف يحيئون .

فهل كنت ترى أو حتى تكاد تشعر ، أنك تبذر بذور المأساة  
التي سيحصد الجميع ثمارها حين يجيء الضيوف ؟



## الفصل التاسع

يجيء العجوز الطيب العم أوشيك الى الكابينة التى يرتاح فيها نيكولا بالميناء ٠٠ ويدخل مترددا تسبقه لحيته الرقطاء وشاربه الكثيف غير المنتظم وعمامته البيضاء المدلاة ٠٠ ويغمغم أمام نيكولا فى صوته الخفيض : أبشر يا ولدى الخير جه ٠٠ !

عادته ، أن يقبع صامتا على رمال الساحل دوبا صبوراً ، يرقب الافق حتى يلمح على البعد تلك البقعة البيضاء الصغيرة الطافية فوق التمايع الماء البعيد ، والتى غائبا ما تكون واحدة من « السكاكين » تلك المراكب الكبيرة نوعا التى تدور بالموتور ٠٠ تجيء فى موعدها متجهة اليهم تحمّل التموين والماء ٠٠ فما يكاد يراها حتى يهرول بقدميه العجوزتين الهزيلتين الى كابينة نيكولا ليبشره .

- الخير فيه ان شاء الله يا ولدى ٠٠ السكونر وصل .
- وين دى يا أوشيك ؟
- فيشير أوشيك باصبعه الى البحر البعيد قائلا :
- تراها يا ولدى ٠٠ جريبة !

ويحقد نيكولا ليرى أن كانت البقعة البيضاء هي سفينتهم  
فعلا ، أم واحدة من مراكب الصيد المسماة بالقطاير ، خدعت أوشيك .  
فيتأكد من صواب العجوز ، فيداعبه :  
- لكن دى قطيرة يا أوشيك . .  
فيرد أوشيك واقفا ينوى الانسحاب :  
- الله يعلم يا ولدى . . لكن دى ما قطيرة .

حين اتسع العمل فى المنجم واقيمت المدينة الخشبية على  
اندرهيب لم يعد أوشيك لائقا بأن يكون خفيها وحارس بوابتها ،  
فنقله نيكولا الى الميناء ليرعى الكبائن فى غيابهم بالمنجم ، ويشرف على  
العمال الذين يشنون الخام فى الباحة الى جوار السقالة ، تمهيدا  
لنقله الى السكونر حين تجيء .

وقبل أن تجيء السكونر يجيء نيكولا ليكون فى انتظارها  
فيتهلل وجه أوشيك المجدد ويبتهج ويهلل مرحبا به : شوب . .  
شوب . . شوب .  
عادتهم فى التحية . . يظل الواحد منهم وحيدا . . جالسا أو  
ماشيا وراء الماء والاخبار اياما طويلة ، حتى يلقي رفيقا يستقى منه  
أخبار المطر أو أخبار الرفاق ، فيهلل كل منهما فى وجه الآخر :  
شوب ، شوب ، شوب .

ثم يقعيان على الأرض متواجهين :

- كيف الحال ؟  
- رايجين . .  
- لعل ما فى عوجه ؟  
- ما فى عوجه . . وأنتو ؟  
- رايجين . .  
- ما فى عوجه . . ؟  
- ما فى عوجه .

يبتهج العجوز أوشيك ويسعد ، حين يكلمه نيكولا بلغته .  
- السكناپ شنو ؟  
- فيشكو أوشيك فراغ التموين .  
- أنا تموينى . . كو .

فيبتسم نيكولا ويخبره بأنه سيوزع التموين فور وصول  
السكونر .

يفرك العجوز كفيه الذابلتين ، ويبدأ فى اعداد القهوة على  
طريقة الجينة ، ثم يقدمها لنيكولا فنجالا بعد فنجال . فلا يمكنه أن  
يرفضها قبل الفنجال الرابع .  
ويسأله أوشيك :

— كيف الجينة هسا ؟

— مغشوشة يا أوشيك . !

— كيف مغشوشة يا أخى . .

ويتصنع العجوز الغضب :

— ها وصلت السكونر يا أوشيك ؟

— الله فراج يا أخى .

وينصرف لرقبها عند الافق .

تلك المرة كان نيكولا يعلم أن السكونر قادمة وعليها متاع  
الضيوف .

ها أنت ذا يانيكولا قد حملت العالم الخارجى على أن يجىء اليك  
فى تلك البقعة النائية . . يكونون جالسين حول الويسكى فى كلوب  
محمد على ، أو نادى السيارات ، ونادى الصيد . . مجموعة تضم  
وزيراً سابقاً . . باشا أو اثنين . . وثلاثاً أو أربعاً من حسان تلك  
الطبقة العالية المحلاة باللؤلؤ المضمخة بالعطور الاجنبية . . وبعض  
البكوات . . !

وتجىء سيرة الصحراء فينبى صاحب السعادة الحواجة انطون  
بك للحديث عن منجمه فى الدرهيىب ، وشاطئه الساحر فى برانيس،  
فيتحمسون للرؤية ، ويتحمس الحواجة أنطون فيوجه الدعوة ، ويبدأ  
فى عمل الترتيب .

يوائم بين موعدهم وموعد السكونر التى تروح وتجىء بالطعام  
والحام بين برانيس والسويس ، فيحملها بمعدات الرحلة وطعام  
الضيوف الخاص ومشروباتهم ، ثم يركب الجميع سياراتهم الى  
الغردقة ، ومن الغردقة يركبون لنشآت البحر الى برانيس . .  
فيهبطون فى ذلك الشاطئ الساحر المنعزل ، فيمزقون ستائر  
عزلته . . ويملاون الكبائن الحشنة فى الميناء بملابسهم الثمينة

وأدواتهم الناعمة وعطورهم .. وينتشرون على الرمال حول المرساة ،  
حفاة نصف عراة ، تاركين أنفسهم للطبيعة البكر حولهم .  
كم من الوجوه رأيتها يا نيكولا على حقيقتها الفعلية خلال  
تلك الرحلات ؟

كأنهم يسقطون أقنعتهم المستخدمة هناك في مكانهم على قمة  
المجتمع المصرى وفوق سطحه .. بمجرد أن تلامس أقدامهم رمال  
شاطئك .. ويضعون مهابتهم وعظمتهم المشكوك فيها جانبا ،  
ويصبحون أطفالا على ذك الشاطئ البكر .. يلهون فى الماء بنزق  
يشبه البراءة .. يسبحون ويلعبون الورق ويقبلون بعضهم البعض  
ويتضاجعون . ثم يتكدسون فى قطرة يقودها عبد ربه كريشباب  
داخل البحر ، ليصيدوا الاسماك .

عبد ربه كريشباب الذى يهيم الآن بين جبال الصحراء فاقد  
عقله ، بسبب واحدة من نزواتهم !  
تقد جاء فى خطاب أنطون أن الضيوف هذه المرة اكثر أهمية  
وأن شخصية كبرى ستلحق بهم على يختها الخاص .  
شخصية كبرى يانيكولا .

هل كان فى مصر شخصية كبرى .. غير الملك . ؟  
وجأت ايليا على عربة الجيب من المنجم يقودها ابشر الصغير  
لنفسهم فى تزيين المكان وترتيبه .. فأمرت الرجال بحمل الرمل  
يفرشونه حول الكبائن يغطون به بقع الزيت ، وأخذت تطمئن على  
تموين الخزانات بالماء .. فهاهى السكونر تلوح فى افق برانيس  
تحمل متاع الضيوف الذين يتناولون الآن غداءهم المبكر فى الغردقة .  
ما أسعدها ايليا الحبيبه بمجئ الضيوف لتزهو بجمالها البرى  
الذى انضجته شمس الصحراء وهواؤها على حسان الطبقة الراقية  
الذين يجيئون من سطح المجتمع المصرى هناك ، فرصتها لتكون محط  
انظار رجال مختلفين يملكون الجاه والسلطان ، ومحل مجاملتهم  
واستحسانهم .

هاهى امرأة تكاد تكون كاملة ، لم تصل بعد الى السادسة عشرة  
يتأملها نيكولا مزهوا ، لكنه يشعر بزهوة مشوبا بالالم .  
ثم ينادى عبد ربه كريشباب ويأمره أن يأخذ معه فى القطيرة  
رجلين ، ويذهبان فى البحر لاحضار كمية مضاعفة من الاستاكوزا .  
لتكون جاهزة فى انتظار الضيوف !



كان عبد ربه متوسط الطول ممتلئ العظام ، ساذج المكر وقد ولد في بطن من بطون الكريشاب الذين نسلوا من عبادة الصحراء . وانحدروا الى الحواف الساحلية لهذا البحر العجيب الاحمر ، الذى بهرهم بغرائب مخلوقاته . . فعاشوا على حافته الممتدة على رمال مصر والسودان . . يصيدون الاسماك بالحراب الطويلة ويجمعون الماء القليل العذوبة عند مصبات الوديان على البحر ، ينشلونه ويحفظونه للشرب والطعام .

وحين بلغ العاشرة خرج الى البحر مع الرجال ، على قواربهم المجوفة المصنوعة من نخيل الدوم . وبينما يكتمل نموه ليصير شابا ، ثم يصير رجلا ، تتكرر فى عائلته تلك الفاجعة المعتادة بين الكريشاب . . أن يخرج الرجل مع الرجال الى البحر ، فيعود الرجال ولا يعود . . أو يعود ولا يعود الرجال . . تأخذهم عروس البحر ، نصفها امرأة ونصفها سمكة . . تلك الجنية المسحورة التى لا تشبع أبدا . . تغويهم أو تختطفهم ، وتأخذهم الى عالمها العجيب تحت الماء حيث لم يستطيع قط انسان أن يدخله ويعود .

يحكى الناجون الحكاية فكان عبد ربه يرهف اذنيه للراوى ويعلق بصره بلسانه وشفتيه . ! يكون البحر منبسطا كمرآة صماء شديدة السكون فى هذا المحيط الشامل من الصمت المضاء بالنجوم . ويكون الرجال واقفين على قاربهم المنزلق على الماء الساكن يحفظون توازنه بأقدامهم الصلبة . . وفى ايديهم حراهم . . وعيونهم الجريئة الحادة مسددة الى الصفحة الساكنة لتلتقط أقل حركة غير معتادة تعكر صفو الماء . . وبمثل البرق تندفع احدى الحراب فى مكان الحركة . . ثم يجذب الرجل حربته من حبلها ، فتعود من الماء بصيدها الحى الذى يقاوم للافلات بينما يواصل القارب انزلاقه على الماء . . وهكذا تستغرق الرجال لذة الصيد . . وفجأة تبهر عيونهم على صفحة الماء اضاءات قوية مفاجئة . . واذا بشعر عروس البحر طافيا يلتمع ، يتموج فى انسكون كنغمة فطرية رائعة ! لا يحدث ذلك دائما . . لكنه يحدث بين الحين والحين ، حينما يسكب القمر فضته الذائبة على ظلمة المياه فيضيئها . تحت هذه الاشعة المنسكبة تستطيع تلك الجنية المسحورة أن تلعب لعبتها ، وحيثما يروغ الرجال بقاربهم يجدونها امامهم . .

يعرفون مطلبها فترتجف دخيلة كل منهم لما يعرفه ، ويحذق فى بقعة الضوء المتموجة على الماء لا مهرّب منها ، تجذبه اليها من عينيه ، فيقاوم .. ويستجمع صلابته .. وتتشبث قدماء المفلطحان بسطح قاربه .. لكن ذلك لا يجديه نفعا ، فحيثما تظهر العروس ، لابد أن تأخذ طلبتها .

لعل هذا الشعور اليقيني الناتج من التجربة هو الهى يسوق واحدا من الرجال الى التخاذل ، فيلقى بنفسه فى بقعة الضوء الغاوية .. فيلتف حول جسده البشرى شعر العروس المصنوع من أسلاك الذهب ، ويحتويه ، وينتفض الماء انتفاضة قوية ويمور بينما نستدير العروس لتغوص به الى عالمها .. ويعود الرجال ولا يعود هو أبدا .

وحيثما تتكافأ صلابة الجميع ، فلا يتخاذل منهم أحد ويلقى بنفسه الى أحضان العروس راغبا .. فحركة واحدة من ذيلها أقوى كافية لتجعل أعلى قاربهم اسفله .. فيسقط الرجال جميعا ، فى أحضانها الشرهه . !

لقد فقد عبد ربه بهذه الطريقة ثلاثة من عائلته .. ولد عمه وولد خاله وأخاه .. وسمع فى مجالس النساء وهو طفل ، ومجالس الرجال وهو صبي ، حكاياتهم .. فادرك ان له عند العروس ثارا .. وفى المرة الاخيرة حينما فقد شقيقه .. أقسم بين الرجال أن يأخذ بثأره وتوعد تلك الجنية المسحورة بأن يغويها ويسحبها الى عالمه الارضى .. !

لكن الجنية لم تظهر لعبد ربه أبدا ..

لقد كبر ونما وأصبح بين الرجال رجلا .. وصعد فى البحر شرقا وغربا بقاربه وحده ، أو بين الرجال بفاربههم .. دون أن تظهر له العروس .. يقولون انها تحب فى الرجال وسامتهم ، ولقد كان كل من ولد عمه وولد خاله وأخيه وسيما .. أما عبد ربه فملاحه مفلطحة نوعا .. بعيدة عن القبح ، كما انها أيضا بعيدة عن الوسامة .. فما الذى يغريها تلك العروس لتظهر له ؟

لكن عبد وبه كريشاب لم يفقد الامل فى أن يلقاها يوما وهو ينزلق بقاربه على الفضة الدائبة فوق الماء .. وساعتها سيبدل جهدا جنونيا ليغويها بملاحه المعلقة بين الجمال والقبح ، ويجذبها من

شعرها الذهبى الذى تجذب به الرجال .. ويأخذها سبية فى عالمه .  
لقد صار قسم عبد ربه وتوعده ، فكاهة للكريشاب ومثار  
تندرهم .. فحينما يخرج الى البحر ، تتوه عيناه كأنهما مكرستان  
للبحث عن شعر العروس .. فتغيب عنهما بقية الاسماك .. ويعود  
من الصيد خائبا ، أو على شفا الحية .

حتى مد الشيخ على يده اليه فى ذلك الخور النائي وانتشله  
وضعه فى الدرهب ليصيد السمك للعاملين نصف الوقت ، ويتعلم  
صناعة جديدة فى نصفه الباقي .. فتغيرت حياته .  
شرب الماء العذب .. وعاشر أقواما مختلفين ، ودخل بطنه  
طعام ما كان يسمع به قط ، وجرت النقود فى يده فتزوج ، وجاء  
بزوجته فأقام لها خصا على الساحل على مبعدة من الميناء ، وأصبح  
قسمه وتوعده مثار تندر وفكاهة فى الدرهب أيضا .. لكنه كان قد  
نسى القسم .. وكان حزنه وغضبه على ولد العم وولد الحال  
والشقيق ، قد هدا أواره ، واستكن فى قاع النفس للنسيان أيضا  
.. ولم تعد عيناه مكرستين للبحث عن شعر الجنية المسحورة على  
صفحة الماء .. وانهك عبد ربه فى تغذية المنجم بالاسماك .. وتعلم  
فى وقته الباقي فرز خامه التلك وتصنيفها .. وأصبحت هوايته حين  
يجيء الضيوف أن يأخذ قطيرة الميناء ويدخل بها البحر فتختصر له  
الطريق الى جزيرة الزبرجد فيصلها فى ساعتين ، يصيد الاستاكوزا  
من كهوف النباتات على حواف الجزيرة . بعد أن ينسحب المد ، ويعود  
بها طعاما مميزا على مائدتهم الصحراوية ، ثم يصحبهم فى الامسيات  
داخل البحر ، يعلمهم صيد البياض والكوش والبراكودا وأسماك  
المرجان المتوحشة ، ويرجع بهم الى الميناء تفيض السعادة من جوانبهم  
.. وتفيض نقودهم من جيبه .. بل انه لم يعد يجد حرجا حين  
يسألونه متندين ومتفكهين ، عن عروس البحر التى تواعد أن يجيء  
بها لعالمه الارضى .

خبزت له زوجته على الرمال رغيئين لعشائه ، حملهما مع أدواته  
الى الميناء ، ومضى يجهز قاربه .. ثم طلب من أبشر أن يصطحبه .  
وقبل العصر بقليل كان عبد ربه يرفع جبال المرساة .. وأدار  
أبشر الموتور ، وتحرك القارب مبتعدا عن الشاطئ ساحبا خلفه  
دوامة مثلثة الاستطالة من الزبد الابيض ، جاعلا من جزيرة الزبرجد  
وجهته .

وجهن عبد ربه سنارته الكبيرة وحشاها بسمكة متوسطة ،  
ثم دلاها خلف القارب المندفع على مبعدة ٠٠ فأخذت السمكة الكبيرة  
نوعا المعلقة بالسنارة من طرفها ، تتقاذف نصف غاطسة في الماء تابعة  
القارب وكأنها تسابقه وتوشك أن تلحق به ٠٠ تخدع الاسماك  
الضخمة وتغريها فتتبع تلك الفريسة المعلقة ثم تنقض عليها من  
الحلف فتحويها في فمها الكبير الواسع ، فتمسك بها السنارة  
المختفيه من داخل حلقومها .

وقبل أن يصلا بقاربهما الى حواف جزيرة الزبرجد ، كان  
عبد ربه قد صاد قطعتين كبيرتين من سمك التونة بهذه الطريقة ،  
تزن الواحدة خمسين رطلا ٠٠ قدر في نفسه أن نيكولا سيكون مزهوا  
حين يشكهما في سيخ النار ويشويهما للضيوف على طريقة الحملان .  
وأخذت جزيرة الزبرجد تدنو من القارب المندفع اليها بينما  
تحولت صفحة الماء الى اللون الدموي خلال الغروب . ولاحت لهما  
الهضبة الجيرية المغطاة باتقواقع وطفح البحر ، بينما كان جبل  
الزبرجد مشربا من وسط الجزيرة تلمع صخوره الغامقة الزرقاء مشعة  
بلونها البنفسجي المشرب بدماء الشمس فبدأ ابشر يهدئ من سرعة  
القارب حتى زحفت مقدمته على الحافة الرملية فأوقفه ٠٠ وقفز عبدربه  
وبيده حبال المرساة فغرسها في الرمال ٠٠ وانحنى ابشر فأشعل  
مصباح القارب وعلقه ليكون دليلهما مهما ابتعدا عن الشاطئ وراء  
حيات الاستاكوزا ٠٠ ومد عبد ربه ذراعه القوى الى القارب فحمل  
الزكائب ومصاييح الكربون ومضى يتفقد المكان حوله حتى قفز ابشر  
من القارب الى جواره .

كان المد المائي قد بدأ في الانسحاب عن ساحل الجزيرة كعادته  
تلك الساعة بعد الغروب ، فأصبح عمقه اقل من ركبة رجل ٠٠ في  
مثل هذا العمق تبدأ اشعب المرجانية المتطرفة في الظهور . حيث  
تجىء الاستاكوزا لتعلق غذاءها من تلك الشعب .

تشبه الجنبرى لكنها متوحشة الحجم ، كبيرة الرأس لكن لحمها  
المكون من تلك النباتات الفسفورية التي تلتقها موجود في ذيلها ٠٠  
وفى هذا الذيل أيضا تكمن قوتها وأسلحة دفاعها ، حيوان له شهرة  
يعرفها عبد ربه جيدا ٠٠ وشهرته تكمن في هذا الذيل المكون من  
خلاصة فسفورية تضاعف القدرة على الشهوة ، لطالما سمع عبد ربه

الضيوف يتندرون بما تفعله الاستاكوزا فى أجسادهم الرجولية .  
فيزداد حماسه لصيدها وارضائهم .

سار فى الحافة المائية يتبعه أبشر ، وقد صوب كل منهم مصباحه الكربونى لضىء له الماء أمامه ، فيتبين الشعب وما تحويه .  
الضوء هو أداة الصيد . . فالاستاكوزا سريعة وقوية ، لكن الضوء يربكها ويشل حركتها فما يكاد يسقط على جبهدها الفسفورى حتى يفعل الاشعاع فعله فترتبك خلاياها ، وتتشبث فى القاع الرملى باطرافها المتعددة المحيطة بذيلها . . وتنصب أشواكها كحرا ب تحمي جسدها العاجز من الحيوانات الأخرى الملتهمه . . تكون فى تلك الحالة عمياء غشى الضوء منافذ ابصارها . . فينقض عليها عبد ربه بيده الحشنة من أعلى ، ويتخلل اطرافها بأصابعه ، ثم يجذبها من الماء محاذرا ذيلها القوى الذى يضرب الهواء فى محاولة الخلاص . . ولا تهدأ الاستاكوزا حتى يلتقى بها عبدربه فى ظلام الزكية المحمولة على ظهره ، ثم يسدد مصباحه ويتابع سيره فى الماء وراء واحدة غيرها .

وقد اكتمل القمر فى سماء البحر . . وكسا جزيرة الزبرجد الصخور الخالية بضوئه الموشى بالبلاتين ، وبدأت الصخور الشامخة فى الظلال كآلهة قديمة منسية فى تلك الجزيرة الغنية بالكثور . . وكان ابشر قد خاض بحذاء البحر ممتدا فى الخلدان الصغيرة وراء حبيبات الاستاكوزا ، وسرقه الوقت وهو يملأ زكيبته بالحيوان الفسفورى ، حتى لم يعد بالزكية مكان . . فاستدار وأدار شعلة الكربون فيما حوله فلم ير لعبد ربه كريشباب أثرا . . كما لم ير لضوء قاربهم أثرا . . فعدل من حملة على ظهره وقفل عائدا وأخذ يفكر وهو يخوض فى الماء ، فى هذا العالم العجيب الواسع الممتد ، كأنما لا نهاية له حيث تقيم أعداد لا حصر لها من المخلوقات لم يتعرف عليها بعد . . ففى دخيلته كان فخورا بصيده من حبات الاستاكوزا ، كما كان فخورا بقدرته على تعلم ادارة وابور اقارب وقيادته . . كعادته فى الزهو والفخر ، كلما أثار فضوله شئ جديد فى ذلك العالم فيتعلمه . . لقد كان يخرج فى الامسيات التى يجمع فيها الجميع بمعسكر المدرهيب وينامون فيجلس أمام السيارة الجيب كانه عاشق يملأ قلبه من محاسن محبوبته وملامحها وكثيرا ما تسئل اليها خلسة ، يتأمل تفاصيلها ويتكشفها متتبعا ذلك الشريط المسجل

في ذاكرته من الصور المختلصة للاسطى على وهو يدبر بيده الساحرة هذه التفاصيل ويحركها فتدب الحياة في السيارة ٠٠ وخلال نومه القلق والمتقطع كان يحلم لأصابه بتلك القدرة اتنى يملكها الاسطى على في أصابعه ، ولم يكتف بالتأمل والحلم ، فبدأ يلاحق الاسطى على ويتابعه ، حتى علمه ٠

هو يعرف جيدا أن تلك الطاقة الشرهة للمعرفة في داخله هي مصدر زهوه وفخره ٠٠ وكان يؤكد له جدارته بها ، لما كان يسمعه من نيكولا عن والده ايسا ٠٠ فما أحق ايسا بولد يكون مختلفا عن الجميع ٠

وبدأت برودة الماء المشوبة بدفء مختزن حول قدميه وساقيه تنعشه وتبعث في جسده تدفقا نشطا رغم اجهاده وقد نما اسمه الى اذنيه مطوفا في الفضاء عبر السكون البحرى حول الجزيرة مصطدما بالصخور الناتئة ، فانتبه الى أن عبد ربه يناديه ٠

كان كل منهما قد اعطى ظهره للآخر وسار خلف الاستاكوزا في اتجاه تاركين القارب بينهما ٠٠ متفقين على أن ينادى زميله من يعود أولا الى القارب ٠٠ ٠٠ فلا بد أن عبد ربه قد عاد الآن ٠

رفع ابشر شعلة الكربون محاولا أن يضىء أمامه على مبعدة ٠٠ فلم ير أنرا لعبد ربه أو ضوء القارب ٠٠ فعرف أنه كان قد أوغل في البعد عنهما ٠٠ فأخذ يغذ السير داخل الماء وهو يصيح مرددا اسم عبد ربه في الفضاء ٠

كان عبد ربه كريشاب قد ملأ زكيته بجبات الاستاكوزا واستدار عائدا يخوض في الماء متجها الى القارب ، حتى وصله ، فألقى في قاعه بزكيته ٠٠ ومضى يرتب الصيد في القاع المزدحم مفسحا مكانا لما سيحضره أبشر معه ، ثم جلس على مقدمة القارب متوقعا على ركبتيه منتظرا عودته واخرج من عب جلبابه علبة الدخان ومضى ييرم لنفسه سيجارة ٠٠ وبينما هو يحدق في الماء الملتمع داخل البحر بمواجهته توقفت أنظاره فجأة على بقعة متألقة ، فرجف قلبه ٠٠ كان شعر العروس الذهبي يتألق تحت الضوء متموجا ٠٠ يظهر ويختفى ٠٠ فانتصب واقفا على سطح القارب وقد امتلأ كيانه بالخوف ٠٠ كل الحكايات القديمة التي تروى غزوات الجنية الساحرة قفزت الى رأسه فلم يهدأ روعه حتى أدرك أنه على القارب وأن القارب مربوط في الشاطئ ٠٠ وانه بمنجاة من العروس وكيدها ٠٠ فأخذ

يحملق فى البقعة الملتمة ويتأملها فى ظلال هذا الامان .. ولدهشته  
وجدها تتجه ناحيته .

أخذ عقله الفطرى يعمل بسرعة غير معتادة .. وتذكر بخوف  
قسمه القديم ووعيده .. وتساءل فى لحظة ان كان قد حدث  
ما انتظره طويلا .. واستطاعت ملامحه المعلقة بين الجمال والقبح أن  
تغوى تلك الجنية وتخرجها له .

كانت البقعة الملتمة تدنو منحرفة من داخل البحر ناحيته ،  
وأمكنه أن يرى جلدها البنى خلال اقترابها فوجد نفسه يرتعد ،  
وانحنى فقبض حربته بتردد من القارب وسدها تجاه البقعة المضيئة  
المتحركة ووقف ساكنا واجف القلب مثبتا قدميه المفلطحين على  
سطح القارب الخشبي ، وكان المد المائى قد بدأ يفيض فيغمر ما كشفه  
الجزر خلال الغروب ، واختفت شعب المرجان حول  
القارب ، بل ان القارب نفسه ، الذى كان مغموسا فى رمال اشاطئ  
قد أخذ يعلو ويعوم .. وكلما زاد المد زاد حجم ما يظهر من جلد  
العروس البنى ، يتقدم تجاه الشط تسبقه بقعة الشعر الذهبية  
الملتمة ، فيزداد خوف عبد ربه ويرجف قلبه ، ويصيح صارخا  
مناديا أبشر .

هل جاء دورك يا عبد ربه ليلتف حوتك ذلك الشعر الذهبى  
يسحبك الى زفاف هذه العروس النهمة فتنضم الى ولد عمك وولد  
خالك وشقيقك .. وتذهب الى تلك الاعماق البحرية فلا تعود ؟

هل جاءت ساعتك يا عبد ربه وحانت .. أم تصمد وتكون رجلا  
فتحقق ما وعدت وتوعدت وانت الآن خارج الماء فى أمان نوعا من  
سحر تلك الجنية وغوايتها ؟

ودفع المد جسم الجنية دفعة زائدة فطمرت ، ولاح لعبد ربه  
استدارة جسدها البنى الضخم وطراوته .. ولم يعد يفصلها عنه  
غير أمتار عشرة أو تزيد قليلا .. ورايه انها ساكنة الجسد رغم انها  
تواصل التقدم تجاهه .. فرفع ذراعه بحربته ثم تردد لحظة .. لعله  
خشى أن يكون سهلا عليها أن تجذبه من حبل حربته وهو فى موقفه  
فوق القارب ، فقفز من القارب الى الرمال وتوقف محتثيا بجوار  
صخرة وبدأ يسدد حربته من جديد .. لكن العروس بدت طافية  
وكأنها قد تركت جسدها للمد المائى يقوده دون مقاومة ، فيدفع بها

نحو الشاطئء دفعا حيثما حتى قطعت المسافة الفاصلة بينها وبين القارب واصطدمت به ، حتى اجتازته .. ثم انقلبت بدفعة من المد فأصبح نصفها على الشاطئء .

تراجع عبد ربه مرتجفا من حجمها الهائل ، وصبوب حربته ولم يجرؤ أن يقلف بها ، وبعد حين مدها ومس العروس مسافقا حذرا في رقبته .. فلم تتحرك ولم تختلج .  
فأدرك عبد ربه كريشاب أن بغيته قد جاءت الى قدميه زاحفة وميتة .

كان طوال النهار الماضي يستمع الى فرقة المتفجرات تدوى فى عمق البحر فترتفع مكانها نافورة ضخمة من الماء ما تلبث أن تنهال الى البحر من جديد ، فيسوده السكون حتى يدوى انفجار جديد .. تلك المفجرات يلقي بها داخل البحر هؤلاء الذين يبحثون عن البترول فى قاعه العجيب .. قد أصابت تلك العروس فاختنقت وطفت ، وجاءته زاحفة ؟

جرب عبد ربه أن يحرك الوحش الجاثم على الرمال مرة واثنتين ، فلم يجد به للحياة أثرا فاقترب وأخذ يتأملها دون خوف .  
كان شعرها الذهبى قصيرا خشنا ، ولا بد أن الماء هو الذى يطيله ويموجه ، والضوء يعطيه التماعته .. وذراعاها قصيرتين جدا ، وصدرها ضامرا لكن حلمته بارزتان .. وبطنها اللحمية مستديرة وناصعة .. وكان وجهها منكفئا على الرمال ، وبدا له عند نهايتها السفلى ذيلها السمكى مغمورا بالماء .

قال لنفسه : ما بالها قبيحة تلك العروس فى هزيمتها على الرمل . أتراها تكتسب قوتها وسحرها من الماء والقمر ؟  
وحمد حظه انها لم تظهر له وهى حية ، ثم خطر له خاطر شيطانى اندفع الى تنفيذه فأخرج الحبال من القارب ومضى يربط العروس من رقبته وكتفها ووسطها .. وبينما هو يفعل ، أخذ يصيح مناديا أبشر .. فكلما سمع أبشر النداء يغذ السير داخل الماء متجها الى القارب حتى وصله .. فراعته الجسد الضخم ممددا على الرمل بجوار القارب بينما عبد ربه يحكم وثاقها بحباله .

وأبهجه أن يوفى عبد ربه دينه للناس ويأخذ بثأر ولد خاله



وولد عمه وأخيه ، ويرفع عن حياته تندر الناس وفكاهاتهم ٠٠ قال  
عبد ربه انه رآها على حافة المد بينما كان يتتبع الاستاكوزا فألقى  
عليها بحباله ثم ضربها خلف أذنها بكعب حربته فافقدها الوعي ،  
وبدأ يجذبها الى الشاطئ ٠٠ لكن أبشر قد استتراب في أن تكون  
الضربة من القوة أكثر مما قدر عبد ربه ، وتكون قد قتلتها ، فأكد  
عبد ربه اغماءها ، قال له جرب أن تدفعها الآن الى الماء ٠٠ استراها  
تفوق وتمور كبركان حي ثم تغوص ضاربة تلك الصخور بذيلها  
المخيف وليس علينا غير أن نبعداها عن الماء فلنصعد بها الى ذيل  
القارب ونحكم وثاقها به ٠

وهكذا تعاونا على جذب مؤخرة القارب وأمالتها الى الحلف بعد  
أن حفر أبشر أسفلها حفرة متوسطة ٠٠ وأخذا يدفعان بالعروس حتى  
رفعها على المؤخرة ، ومضيا يحكما وثاقها الى القارب من أعلى ومن  
أسفل ، ومن الامام والحلف ٠٠ حتى استقرت ممددة بجسدها الضخم  
الطويل عليه ٠٠ ثم مضيا يدفعان بالقارب الى الماء لكن مؤخرته ظلت  
غاطسة تحت ثقل العروس الوحشي ، وأبدى أبشر تخوفه من تلك  
المؤخرة الغاطسة وحمل سمكتي التونة ٠٠ وزكيتي الاستاكوزا ،  
وأحكم وثاقهما على مقدمة القارب ، فارتفع الجزء الغاطس عن الماء بقدر  
مطمئن ، وأكد عبد ربه أن اقارب في سرعته المندفعة داخل البحر ،  
سيساعد تلك الحافة الغاطسة على تجنب الماء ٠٠ فبدأ أبشر يدير  
الموتور ٠

ولم يلبث القارب أن أندفع داخل البحر ، مخلفا جزيرة الزبرجد  
وراءه وقد قبع عبد ربه في المؤخرة بجوار سببته ، ممسكا حربته  
مشددا قبضته عليها ٠٠ مترقبا اسماك القرش المتوحشة ، التي لا بد  
سوف تجذبها رائحة العروس ٠٠ فتتبع القارب متحينة الفرصة ،  
لتهبش ذيلها الضخم الذي ينغمس في البحر ، كلما مال القارب بين  
الحين والحين خلال اندفاعه ٠

حتى لاح لهما شاطئ برانيس على البعد ، ولدهشتهما كان  
الشاطئ يلتمع بالنور ٠ نور كثير غير معتاد لم يره عبد ربه في الميناء  
من قبل ٠



## الفصل العاشر

ما بالك تغرق نفسك يا نيكولا فى تلك التفصيلات الهزيلة  
التي لا جدوى منها ، بينما أنت تحوم بذاكرتك حول بذرة العلقم  
التي ألقيت بأهمال فى رمال مدينتك فأثمرت شجرة ضخمة  
مستفحلة ، أظلت تلك المدينة بالحراب والحزن ؟  
لم لا تخوض مباشرة فى اللحم المبلور لبداية المأساة وقد مضت  
على ذلك الان سنوات كثيرة تتزايد يوما بعد يوم ولا تنقص ٠٠ وقد  
أصبحت الان بمنجاة من فظاعة التوقع ، وفظاعة الوقوع ، بعد أن  
وقعت المفاجعة فعلا وكان ما كان ؟

ألم يخامرك الشعور بالخطر فى لحظة بينما يسطع فجأة على  
ساحة الميناء ذلك الضوء الباهر المنبعث من كشافات عربات الجيب  
الست المحيطة بسيارة صاحب الجلالة ٠٠ فيكشف الضوء عن ضيوفك  
عراة أو أشباه عراة ، رجالهم ونسأؤهم داخل ماء البحر الدافئ على  
حافة مينائك الذى لم يخلص بعد من حرارة الشمس الغاربة ٠٠  
ويكشف أيضا عن ذلك السماط البدوى الممدود بطول الباحة أمام

الكبائن ، حافلا بالطعام الذى صنعه طهارة الضيوف القادمون معهم من مصر بينما تلتهم الحراف على النار يديرها أبناء الشيخ على ليدفئوها حتى ينتهى الضيوف من حمامهم المسائي الغريب هذا .  
ثم تزايد هذا الشعور بالخطر ومضى يدق داخلك بالحاح وانت نرى اشباح الحرس الملكى بشاراتهم النحاسية واسلحتهم الملتمة تحت ضوء الكشافات ، وهم يطأون بأحذيتهم الثقيلة رمال الباحة ، ويصطفون فى مجرى الكشافات التى بقيت مضادة صانعين بأسلحتهم قوسا ليعبر صاحب الجلالة فى ظله وحمايته .  
ثم ضاع منك الانتباه لذلك الشعور الداخلى بالخطر وانت تنهض مبهورا بالجلال والعظمة التى صنعها الجند والاضواء فى المكان فجأة ، حول هبوط ذلك الرجل التسمين المنصب ملكا ، من سيارته ، ليزور مدينتك . . وقد وقف تحت قوس السلاح الابيض تحجبه ظلال الجند عن ضوء الكشافات ، يرقب ذلك القطيع الصغير من رعاياه يخرجون من البحر والماء يتساقط من أجسامهم اللامعة ، يظلمون أعينهم بأيديهم فى مواجهة ذلك الضوء المسدد مباشرة تجاههم ، تتقدمهم أقبال هانم دون أن تبذل جهدا لترى ، بل ركزت جهدها فى شد قامتها وأبراز صدرها ، واثقة ان صاحب الجلالة فى بؤرة هذا الضوء سيراها هى . . فعليها ان تحسن تقديم نفسها . .

ولكم أسعدها أنها تكاد تكون عارية . . بينما كان صاحب الجلالة يضغط بكفه السمينة على أصابعها التى مدتها مسلمة .  
واستأذنت للسيدات فى بضع دقائق للزينة بينما اخذ الخواجه أنطون بك يتقافز فى الضوء أمام الأركب معبرا عن سعادته بهذا الشرف الذى تفصل جلالتة وغمره به . .

كانوا يتوقعون جلالتة فى الغد ، حين يتحرك ميكرا من معسكره الذى نصبه الحرس على حافة رأس بناس الرملية ، ليوصل رحلته لصيد الغزال فى وديان جبل علبة . .

فى تلك اللحظات المزدحمة بالمفاجآت والبهجة والخرج . . وكل مخلوق فى تلك المجموعة مشغول بالتنقيب داخل نفسه عن شئ يقدمه لصاحب الجلالة ويستميل به انتباهه ، وصل عبد ربه كرشاب بقاربه الى الشط ووقف مبهورا فى دائرة الضوء يتطلع الى أبشر وأبشر يتطلع اليه . . فى وجهيهما البدوى سذاجة طاهرة لا حدود

لها ٠٠ وفي خلفيتهم القارب مغموسا في الشاطئ الرملى ، تتأرجح على مؤخرته مع المد ، تلك الجنية المسحورة على صفة الاسماك ٠٠ كأنهم بكتلتهم هذه التى برزت على الشاطئ فجأة وأحتلت اهتمام الضوء ٠٠ بذرة الفجيرة الاولى تولد فى بطن المكان ٠

وجاء الخبر الى السباط بأن عبد ربه كريشاب قد وصل لثأره وأغوى عروس البحر فأخرجها وجاء بها الى البر ٠٠ فوجدها أحدهم فرصة لتسليية صاحب الجلالة ، فأنطلق يحكى عن عبد ربه كريشاب وثأره ٠٠ وقسمه ووعيده ٠٠ وحين لاحظ احدهم ان الحكاية تستهوى الملك تساءل بمكر ان كان مايزال كريشاب جادا فى قسمه ، فلسوف يسعدهم ان يحضروا زفافه لعروس البحر الميلة ٠٠ فأنفجرت الفكرة على السباط البدوى أمام صاحب الجلالة براقة حافلة بالتشويق والغرابة ٠٠ ان يضاجع الرجل سمكة ، حدث لم يشهده جلالته من

قبل ، فتحمس الجميع ونهضوا مشحونين بالمرح الوحشى وتدافعوا تجاه الشاطئ مهللين كأنما يستقبلون بطلا ٠٠ بينما عيونهم الملتمة بشهوة الفضول مسددة الى عبد ربه تكاد تنقب هلاهيله وجسده وتنفذ منه الى البحر العريض وراءه ٠٠ والى الوحش ٠٠ والى المشهد الخرافى للزفاف المنتظر ٠٠ حتى ملأوا المكان حول القارب يتأملون العروس المسحورة ويطنبون فى محاسنها ويشدون على يد عبد ربه كريشاب وعلى كتفيه وبيبالغون فى أطنا بطلوته كأنهم يقبضونه عليها ٠

لقد وقف عبد ربه كريشاب بينهم مذهولا فى البدء كأنه أرنب جبلى وقع فى شباك مربكة ، ثم بدأت نفسه الفطرية تتلقى التهنية بزهو وتسعد بها ، وأنطلق على سجيته يحكى كيف رأى العروس وتفاذى غوايتها وأغواها حتى اقتربت من البر فضر بها وأفقداه وعيها ، ثم تعاون مع أبشر على أحضارها ٠٠

وجاء ذكر القسم القديم والوعيد خلال الحديث ، فلم ينتبه عبد ربه الى الفخ الذى يستدرجونه اليه ٠٠ بفطرته البريئة استجاب لحماسهم ، وقد ظنها فرصة للتحرر من هذا القسم القديم الذى عفا عليه الزمن ، وأنشغل فى دخيلته بمعالجة ضميره من تلك الكذبة الصغيرة التى كذبها ٠٠ ان العروس حية وهى ميتة ٠٠ ولاحساسه بالذنب بدأت الشهامة تغلب عليه ويخجله احتفاؤهم الذى يوشك أن

بشعره بأنه لا يستحقه وحينما أدرك أنهم يمهدون للزفاف ويعدون له أسقط فى يده ٠٠ ولم يعد بإمكانه التراجع أو المقاومة !

كانت المقاعد قد صفت وتصدر صاحب الجلالة الدائرة ، وسلطت أضواء سيارة على الرمال حيث كان الرجال يمهدون المكان للعروس القادمة التى يشترك عمال الميناء فى جرها ٠٠ وحينما توسدت البؤرة تحت الضوء كان جسدها الاحمر قد غطى بالرمل فحمل الرجال دلاء الماء من البحر وأخذوا يصبونها فوقها فأنزاح الرمل تحت دفعات الماء وظهر صدرها الضامر وبطنها العريض المحمى المشقوق من أسفله ، فتعالت صيحات الاستحسان والتشجيع ، ووجد عبد ربه كريشاب نفسه أسير الضوء الكاشف أمام ملك وحاشيته يحيطونه بحماسهم كأنه بطلهم ، لا يبدو عليهم أن الشك يداخلهم لحظة فى أنه سيخذلهم وأنه لن يكون رجلهم ٠٠ فكيف يخذلهم ٠٠ وكيف لا يكون رجلهم ؟

ومضى ينقل بصره المتردد ٠٠ والمرتعف بين السمكة الممددة بظهرها على الرمل ٠٠ وبين البشر المحيطين بها ٠٠ وبدأت له المسألة قدرا لا مفر منه فهى لحظة يجتازها رجلا ، ويمضى بعدها بين الرجال متوجا بالصدق والشهامة وبقية المناقب الاخرى ، أو يسقط فى برائتها ويعجز ، فلانقوم له بعد ذلك بينهم قائمة ولا يقدم له أحدهم قدحا فى مجلسه .

وأحرجه السكون والصمت حين سادا فى محيط الدائرة كأنهم يعلنون فراغ صبرهم ، وألتقطت عيناه نظرة ملكية من عيني صاحب الجلالة اللتين ظل طوال الوقت يتجنبهما أجلالا وخشية ، فزاد حرجه وبدأ العرق الغزير ينبثق من جسده المرتجف داخل هلاهيله ، فتقدم منه صاحب السعادة الحواجه أنطون بك حاملا كأسا ممثلا بالويسكى ، وطلب منه أن يجرعه فجرع من الكأس جرعتين ألتهبت بعدهما احشاؤه ، وصعد الدم الى رأسه وأصاب عقله بصمم وقتى ، فمد يده الى تكة سرواله وجذبها وأخذ يخلص منه ساقيه العضليتين ، فأتاح للجميع فرصة قصيرة لاستباحة مراكز رجولته ، ومضى منكس الوجه فأنحنى وألقى بنفسه دفعة واحدة منبطحا فوق الجرم اللحمى للعروس الراقدة .

شعر بقشعريرة حينما التحم جسده العارى بلحمها الخشن

المبيل ٠٠ فدفن وجهه فى صدرها الضامر وأخذ يبكى ٠٠ دون أن يسمعه أحد .

وجلس نيكولا صامتا على الطرف المقابل للسيدة أقبال هانم من السماط الممدود ٠٠ وعلى مرمى حجر منهما كان ضوء السيارة المسدد يكشف الدائرة البشرية التى تضم ملكا وباشا وثلاثة بكوات مشكوك فى أصلهم وخواجه أكيد ، ومجموعة لا بأس بها من رجال الارض والمال يملكون تقريبا ربع الاقتصاد المصرى ٠٠ يزدردون لعابهم مع أكواب الويسكى التى يحملونها طول الوقت بينما يحملون بشبق وحشى فى الجسد الاسود العارى لذلك البدوى المغمر الذى أوقعه المكان فى فخاخ مرحهم المستهين ، وقبل بخلق فطرى أن يلتحم جسده البشرى هذا الانتحام الحميم بذلك الجرم المؤنث المخيف الحجم ، لمخلوق من عالم آخر ٠٠ رخو ولزج ومثير للنفور والاشمئزاز .

وقد أخرجت أقبال هانم نظارتها المقربة والمكبرة التى لا تفارق حقيبتها كتحفة فنية أنيقة ودقيقة ، وسددتها الى بؤرة المشهد ، ومضت تضبط عدساتها حتى أمكنها أن ترى العرق الغزير يتدفق من مسام الجسد الاسود لذلك البدوى العارى ٠٠ وان ترى نبض قلبه البدوى يدفع صدره ويملاً عضلاته النافرة بالدماء ، حتى كادت تسمع على هذا البعد لهاث أنفاسه ٠٠ وحركت نظارتها الى وجوه الرجال المحملقين بشغف ، وكانت للوهلة الاولى قد تقززت ، فعجبت كيف يثير شهيتهم هذا الانتحام الشاذ والمقزز ٠٠ ومضت تدقق النظر فى تلك الاعضاء الخاصة للمخلوقين الملتحمين فى بؤرة الضوء ، ولدهشتها وجدت أن ذلك قد بدأ يثيرها أيضا ٠٠

ومن الشرفة المواجهة للسماط ٠٠ أطلت النساء بفضولهن النزق ، وسألت أحداهن أقبال هانم عما يحدث فضحكت السيدة أقبال وأجابتها بجملة فاحشة ٠٠ وبدأت تصف لهن ما يحدث بالفرنسية بطريقة ماجنة حافلة بالاثارة والتشويق ٠٠ وكأنها تذيع عليهن مباراة هامة ، بين فريقين فى الكرة .

ورأى نيكولا ألييا واقفة فى نافذة منفردة فلم يعرفها فى البدء وقد موجت شعرها الذهبى وأدارته حول رأسها وتركت خصلاته تغطى جانبها من وجهها فبدت أكبر من عمرها ، وكانت مستغرقة تتأمل السيدة أقبال هانم ، وتنصت بشغف لوصفها وترمى ببصرها

الى بؤرة الضوء ، حيث كان من الصعب عليها أن ترى بوضوح ما يحدث فيها . . لكن نيكولا يدرك جيدا أن كلمات أقبال هانم ستساعدنا على تصور وضايقه انها تترك نفسها لفضولها ، فنظر في ساعته وأدار ظهره للكبان ومضى مبتعدا تجاه دائرة الرجال المحيطة بعبد ربه كريشاب . . وبينما كان يقترب لمح على الساحل ذلك القارب الذى حمل العروس الوحشية من داخل الماء الى مينائهم يكاد نصفه الغموس فى الرمل يدخل فى دائرة الضوء الملقاة حول الحفل الوحشى الماجن ، بينما نصفه الآخر المورجج على الماء غارق فى الظلمة . . ورأى ابشر . . قابعا فى مؤخرة القارب محتضنا ركبتيه بذراعيه . . دافسا ذقنه بينهما . . بينما عيناه الواسعتان الشديدتا الحدة . . عينا ايسا . . مسددتان الى وسط الدائرة ، حيث يلهث عبد ربه كريشاب فوق بطن الوحش منتهيا من واجبه الشاذ . . فانقبض قلب نيكولا ومال مبتعدا وهو يلوك فى نفسه فى ذلك الشعور بالقلق الذى أخذ ينمو ويتزايد منذ توقعه للضيوف حتى مجيئهم .

كان ما يحدث فى مكانه الآن شيئا فوق التصور والعقل ، ورغم بهجته الداخلية بوجود صاحب تلك البلاد كلها فى زيارة تشرفه وتميزه . . الا أن ذلك لم يمنع الضيق أن يستولى على مشاعره لاستباحة هؤلاء الرجال مكانه الخاص بنزقهم .

وكان عبد ربه كريشاب يلهث مايزال عاجزا عن النهوض ، كأنما كان غائبا عن وعيه خلال فعلته وبعد أن انتهى عاد الوعى وأدرك كم هى مشينة ومخجلة . . فعجز عن رفع رأسه لمواجهة كل هؤلاء البشر المحيطين به ، وارتاح لثقل جسده الملقى بتراخ غير مسئول على جسد عروس البحر ، كأنما هذا الجسم الوحشى كان أرحم به من تلك العيون التى تحلق فيه وتلتهمه بفضولها وتطلعها !

كان فى البداية قد بكى ، وشد البكاء من أزره كأنما قد غسل له نفسيته من الذنب . . لكنه بعد أن انتهى احس بالفراغ والضياع وعجز عن اتخاذ الخطوة التالية . . أن ينهض ، فبقى فى مكانه عاريا على بطن السمكة العارية حتى استغرب صاحب الجلالة بقاءه فأوما مستفسرا ، فأشرع الحواجه انطون بك الى وسط الدائرة يستطلع الامر وانحنى على عبد ربه كريشاب ثم نهض مندهشا . . وأعلن أنه مستغرق فى النوم .



ونفض الملك فنهض الجميع ، وسرعان ما دار موتور السيارة  
التي كانت تسدد كشافها على بؤرة الحفل التي كان عبدربه وعروسته  
هما مركزها .

وبدأ ضوؤها ينسحب تاركا عبدربه وسـمـمـكـته فى الظلام  
وأخذ يزحف على الرمال مضيئا لصاحب الجلالة طريقه الى السماء . .  
وقد أثار ماحدث شهية الجميع .

وجاءت النساء فاتخذ المكان طابعه المفتقد ، وأهـسـبـغ عليهن  
الرجال من الشراب والغزل ما يعوضهن عن غيابهن . . فأظهرن  
داريتهن الكاملة بتفاصيل الزفاف الشاذ كأنما هن بذلك يصدمن  
الرجال فى غرورهم . . وشاعت بين المجموعة اذاعة اقبال هانم  
للتفاصيل خلال نظارتها المكبرة ، فابتسم لها الملك مشجعا وادانها  
منه . . فوصل الحفل الى حافة لم يعد ممكنا التراجع بعدها .

ولعل واحدا من قادة الحرس قد أصدر أوامره فاطفأت السيارات  
كشافاتها ، فساد المكان ظلام مفاجئ ، أتاح للرغبات الحبيسة داخل  
الملابس الفاخرة المحبوكـة أن تتحرر وتنطلق وأصبح مسموعا  
بوضوح فى ذلك الظلام المضاء بالنجوم الشديدة البعد ، صوت  
السيدة اقبال هانم وهى تتأوه بين الحين والحين بينما تتأود متمنعة  
مستعذبة تحت تأثير ما يمكن تخيله من أفعال صاحب الجلالة والمهابة .  
وانفلتت فى الظلام امرأة مارقة من السماء وهى تضحك  
بخلاعة ، فطاردها رجلها ، وانبتق صوتهما على البعد وهو يلحق بها  
ويسقطان معا على الرمال . . ثم اختلطت الاصوات وتلاحمت كأنما  
هى نغم متسق ذلك الذى كانت المجموعة تعزفه فى ذلك الظلام  
الخلوى .

وقد شذ عن النغم صوت نيكولا ، فتصاعد فى الظلام هامسا  
مناديا ايليا . . كان الموقف قد استغرقه لحظة فمضى يتسمع  
للاصوات فى الظلمة ويسلى نفسه بالتعرف على أصحابها ، وفجأة  
تذكر ايليا . . فناداها بصوته المهموس أولا ليتبين مكانها فى تلك  
المعمعة ولما لم تاته اجابتها تصاعد صوته رويدا ، ثم نهض ملهوبا  
فجأة ومضى يتلمس طريقه بحذر بين الاجساد باحثا عنها . . نعر  
فى فخدين لزجين واصطدمت ذراعه بصدر عار . . ولعله لمس عضوا  
من أعضاء رجل . . وكان يلهج بالاعتذار فلا يعبأ به أحد .

وجرى الى الكباشن ملهوبا فلم يجدها فى غرفتها . . فأخذ يقفز

بين أغرف باحثا عنها .. وهبط السلم يمنى النفس بأن تكون قد  
نأت بنفسها عن كل هذا الشبق الجنونى .. فمضى الى الشاطئ وهو  
يناديه .. وخلال اسراعه وهروله تعثر بشيء طرى فانقلب على  
الرمال بجواره ، وحين رفع رأسه وجد نفسه ملقى بجوار عروس  
البحر .. ومايزال عبد ربه جاثما بجسده العارى فوقها .  
وكانت ايليا .. وأبشر .. جالسين على الرمل قبالة ،  
ساكنين فى ذلك الظلام الساكن ، يحملقان فى صديقهما كريشاب  
وعروسته .

كطفلين ملائكيين جالسين على الرمال المنداة ، وقد الصق كل  
منهما كتفه بالآخر ، ومضى يحملق فى الجسدين المتناقضى الحجم  
والنوع ، الساكنين امامهما على بعد خطوات ، سيكون الموت ..  
وهمست ايليا فى اذن أبشر بتوجسها من أن تكون العروس قد  
قضمت رقبة عبد ربه كريشاب ، وأماتته ؟ .

فهز أبشر رأسه الصغير الاسود ، وضيق عينيه الواسعتين  
فى وجه ايليا الابيض ، وغمغم بأن السمكة ميتة .. ولا بد أن عبدربه  
كريشاب كان يعرف ذلك ؟

دهشت ايليا ومضت تستفزع ماحدث باسئلة فضولية دفعت  
بأبشر لان يحكى ماكنمه حتى عن عبد ربه كريشاب نفسه .. هو  
قد لاحظ منذ البداية أن العروس ميتة وكنمها عن كريشاب حتى  
ينصره أمام نفسه وأمام الآخرين .. وهاهو كريشاب الآن يدفع  
ثمن كذبتة .

وسقط نيكولا أمامهما فانتبها ونهضا متلاصقين .. فأمرها  
وهو ينفذ الرمال الرطبة عن بنطلونه أن تذهب لفراشها فمضت  
تحميلق فيه كأنما تواصل اندهاشها مما حدث بأجمعه . هل يعرف  
هو مثلما تعرف هى أن عبد ربه كريشاب قد زف نفسه الى سمكة  
ميتة ؟ .

ولاحظ نيكولا جمودها فدنا منها مبتسما وربت على خدها  
الرقيق ، وغمغم بانها ماتزال صغيرة بعد ، لترى كل ما حدث فأبعدت  
ايليا خدها عن كف نيكولا الممتدة وشمخت بأنفها ، كعادة أمها ايليا  
الكبرى حين كانت تحتفظ ببراءتها .. واستندارت مبتعدة دون أن  
تنبس بحرف .. كعادة أمها ايليا الكبرى حين تضبط مخطئة ،  
فتشمخ بانفها مبتعدة لتلقى بوزر الخطأ على نفسية من يضبطه .

فهز نيكولا رأسه معجبا ، وتابعها لحظة ببصره ثم جذب ابشر  
من ذراعه وانحنى على عبد ربه ومضى يهزه من كتفيه ، ثم قلب وجهه  
ومضى يصيح فى أذنيه . . دون أن يتحرك عبد ربه من غشيته .  
كان يتنفس بهدوء كأنه غارق فى نوم طبيعى تملأه أحلام  
بهيجة ، وعلى شفقيه كانت مرتسمة ابتسامة زهو وبراءة فاستولى على  
نيكولا قلق داخلي . . لعله قد أدرك أن اللعبة قد مست عقل الرجل  
. . فأمر ابشر أن يملأ الدلو من البحر ويحضره . . ومضى يبذل  
وجه عبد ربه ورأسه ورقبته ، ويدلك بالماء البارد صدغيه وجبهته .  
بينما خلعت ايليا حذاءها ومشت متباطئة تشق الرمل بقدميها  
الصغيرتين وقد نكست رأسها تتابع بعينيها حركة قدميها وتفكر فى  
كلمات والدها . . أصغيرة هى حقا ، أم هو فى قرارته يفضل أن تظل  
صغيرة ليستأثر بها ؟ !

ألم تتسرب الى اذنيها فى مدرسة الجالية بالقاهرة حكايات  
زميلاتها الكبار عن ليلة انسبت والاحد فى قاعة الموسيقى بالمدرسة  
وفى حدائق البيوت ؟ . . ألم تقرأ مع زميلاتها كتباً ويشاهدن صورا  
ويتبادلن الفكاهات الخليعة والنكت ؟ فما الذى يظن بابا نيكولا  
العبيط هذا أننى سأتعلمه من حفلته ؟  
ليست خلاعة السيدة اقبال هانم وزميلاتها ، ولا غزال الرجال  
ومجونهم هو الذى كان يستهويها . . ولا حتى التحامهم فى الظلام  
وصراخهم الشيق ! .

انما كان يستهويها منذ البدء وجود الملك .  
أن ترى عن قرب ملكا وتتأمله . . وهامى حتى امالها فى الملك  
تخيب . . فلا فرق بينه وبين أى رجل من الحاشية ، سوى تلك الهالة  
من التمجيل والتفضيل التى يتطوع الجميع بتقديمها له . . لاتدرى لم  
. . ربما خشية وخوفا من أن يأمر بقطع رؤوسهم كما قرأت مرة فى  
اسطورة ملك ! .

كانت مستغرقة فى خواطرها تستمتع فى دخيلتها برجفة  
البرد اللذيذة تتسرب الى جسدها بينما قدمها تشقان الرمل  
وتغوصان فيه حتى تصلا الى الدفء المستكن فى جوفه ثم تصعدان  
الى السطح البارد وتشقانه من جديد . . حينما رآها ذلك الوصيف  
الخاص للملك .

كان واقفا فى الظلام يلعب منه سيجاره المعلق بالفلتر الطويل  
الانىق ، يتطلع بزهو الى السمات الذى سادته الفوضى وانقلبت  
مقاعد الجالسين عليها على الرمال حوله ، يصخبون ويلهثون ، ثم  
يمد بصره ليصل الى البقعة التى يشع منها ضوء موله ٠٠ فىرى هذا  
المولى مسترخيا بهيكله المهيىب على الرمل بينما قد تعلق اقبال هانم  
بأطرافه كأنما قد سمرت به ٠٠ فلا يدهشه ما يحدث أو يثير شهيته ،  
انما يدفعه لتقدير ما بقى من الوقت لينتهى موله مما يشغله الآن .  
ليبدأ فى الاعداد لما يشغله بعدها ٠٠ فىى الفجر ستتحرك القافلة  
بصاحب الجلالة مخترة وديان الصحراء وجبالها الصخرية الوحشة  
الى وديان علية الزهرة ، فيطار دجلاته غزالة أو غزالتين تعود بهما  
القافلة مزهوة مظفرة ! .

ورأى ايليا قادمة من تجاه الشاطىء تضى البقعة المظلمة حولها  
بوجهها الابيض وشعرها الذهبى فانتبه ٠٠ تلك نبتة برية طالعة  
عليه من ظلمة الشاطىء تفوح منها بوادر نضج شهى ، استجابت له  
خبرته الدفينة واهتزت كما يهتز بالشهوة قلب رجل ٠٠ لكن قلبه  
الخاص كان يهتز بالشهوة لرجل آخر ٠٠ كان لعابه الداخلى يسيل  
على ضحيته بينما عقله يتصورها مبسوطة كقربان بين ذراعى موله  
وولى نعمته ٠٠ كأنما هو يلتذ بلذته ؟ .

رأها مقبلة ٠٠ كشجرة شهوة فواحة لم تخرج بعد ثمارها  
فجرى عقله المدرب الماجور مجراه المتوقع والمعتاد ٠٠ وتصورها وجبة  
الحلوى على مائدة صاحب الجلالة ، فى خيمة الصيد بوادى عليه ،  
الحافلة بأطباق لحم الغزال المنقوع فى النبيذ قبل أن يشوى . ذلك  
الغزال الذى صاده ذلك المولى ، أو صاده له الصاحب وأوهموه  
بصيده ٠٠ ليعلقوا جلده على طرف المائدة الى جواره علامة ايثار  
وتفاخر .

وبينما كان يجرى بعينه متفحصا ايليا المقبلة مفكرة مستغرقة  
٠٠ أمكنه أن يرى بذكرته شارب صاحب الجلالة الانيق والمديب ،  
نهتز ذؤابته وتتراقص حول ابتسامة الرضا والطمع ، التى سيغدق  
منها جلالته على ايليا .

واقترب ملها مغمغا : ألسنت ايليا ؟ ٠٠ سمعتهم ينادونك  
بذلك ٠٠ ها ٠٠ ابنة نيكولانت ؟ ٠٠ ما أجملك ٠٠ فلا أقدم

متروبا يمنحني فرصة التطلع اليك .  
وقادها من يدها التي تحمل حذاءها ، الى جانب السباط  
مقتربا بها ، بمكر ناعم وليق ، من بقعة الالتحام المثير على الرمال ،  
وهو يغمز بعينه متوددا فخفضت عينيه الى الرمال بخجل . . لكنها  
لم تغلق اذنيها عن تلك الهمسات الصاخبة ، والصرخات الخافتة  
المختلصة من الصمت بين المقاعد المقلوبة حولها .  
وناولها كأسا من خمر مخففة . . وشربا في نخبها ، بينما  
يستندرجها للحديث عن مدرستها في القاهرة ، وحياتها الصيفية في  
الصحراء ، وطموحها ، وأحلامها . . وببراءة طفلية وصرخة تكاد  
تكون مغرورة ومتكبرة انطلقت ايليا تحكى عن نفسها وعن الآخرين  
بمرح . . فزاد اقتناعا بفراسته . . فتحت هذا القناع الباهر  
للجمال الطفولي الطازج النضج ، الذي تظهر به تلك الايليا الصغيرة ،  
توجد امرأة شديدة المراس لم تكتشف بعد . . فقرر أن يقودها من  
غرورها .

لقد قدم لمولاه مئات العذارى من قبل كهدايا مفاجئة أو متوقعة  
على شواطئ أخرى كثيرة في العلمين ورأس الحكمة والمنتره وغيرها . .  
وفى الكباتن الصحرواية في حلوان والمقطم والاسماعيلية وتحت  
سفح الهرم . . وكن جميعا اقرب للاستسلام من طول التوقع ، منهن  
للمقاومة التي يأخذها مولاه مأخذ الفواتح لشهيته . . وقدر ان الامر  
تلك المرة سيكون مختلفا مع ايليا هذه . . فبدأ يحدثها عن رحلة  
الصيد التي سيقومون بها فجرا . . فقالت ايليا ، انها ذهبت مرة مع  
والدها نيكولا والخواجة انطون بك في رحلة صيد بوديان عليه هذه  
وصادوا غزالة صغيرة أطلقوا عليها اسمها . . وأهدباها لها . .  
كانت ترتجف دائما وتبدو مذعورة فبنت لها قفصا كبيرا من الخشب  
الرفيع بلون الرمال ، في جانب من الباحة في الدرهيب خلف الكباتن  
. . لكنها ماتت . . فقال لها أن مولاه صاحب الجلالة سوف يهديها  
غزالته التي سيصيدها لو ذهبت معه . . فلن يجسد مولاه في الركب  
سواها يستحق غزالته . . ووعدا أن يعمل على اصطحابها في حاشية  
الملك . . فلم تظهر اهتمامها . . ورجحت أن بابا نيكولا لن يوافق على  
ذهابها . . فأكد لها أن بابا نيكولا اكثر ذكاء ولباقة من أن يعترض على  
رغبة الملك .

وأوما لها ناصحا بالذهاب للنوم فورا ، لتحفظ بنشاطها حتى  
يوقظها عندما يتهيا الركب لرحلة الفجر المبكرة .



## الفصل الحادى عشر

فى الفجر دق الخواجة انطون بك ، باب الكابينة على نيكولا وأخبره أن صاحب الجلالة يطلب ايليا لترافقه فى رحلته ، فبهت نيكولا وشحب .. فأشار أنطون لما يعنيه مصاحبته لصاحب الجلالة من رعاية وشرف .

ولم يكن نيكولا قد نام اكثر من ساعة فوقف بالباب مؤرجحا بين النوم واليقظة ، يواجه هذا الموقف المفاجئ ، المزدحم بآلاف المحظورات .. وبالرغم من السمة الحضارية التى اتسمت بها الدعوة الموجهة لايليا .. ورغم الزهو والحماس الذى جاء بهما الخواجة أنطون بك ، ليطلب ايليا ويتعجلها . ورغم البساطة والبراءة والتلقائية التى أطلت بها ايليا من مخدعها فى هذا الوقت الشديد التبكير ، لتلبية دعوة صاحب الجلالة .. الا أن شيئا فى داخل نيكولا أخذ يتقلص وينقبض ، ويتقلص وينقبض .. وتما لك متحاملا على ارادته ليواجه الموقف بما يليق برجل يتلقى شرفا من ملك .. شرفا لا يجرو أن يظنه مشوبا بالتوجس أو الريبة !

وكانت السيارات قد هيئت يتقدمها الحرس ، وركب صاحب  
الجلالة مفسحا لايلىا مكانا فى سيارته فخرجت مزدهرة مشرقة طفلة  
ما تزال .. لكنها طفلة ناضجة .. لبست رداءها الصحراوى المعتاد  
وقفزت سلاالم الكابينة الى الرمال بمرح ، ودلفت دون تردد أو وجل  
فى سيارة الملك .. ولوحت لبابا نيكولا بأصابعها النحيلة الجذابة ،  
ولم يكن فى رأسها أى خاطر من تلك الحواطر التى تزاومت فى رؤوس  
المحيطين بها .

وسار انطون بك مبتعدا عن نيكولا وهو يفرك كفيه ويقول  
لنفسه : « أنت سعيد الحظ يا أنطون ، لقد ولدتك أمك سعيدا » !  
لقد غمز له الوصيف بعينييه محييا وهو ينطلق بسيارته وراء  
سيارة صاحب الجلالة التى تحمل ايليا .. آه .. ما أشهاك يا ايليا  
.. ! واستطاع أن يقرأ فى تلك التحية المسبوبة بالخلاعة اسمه مكتوبا  
فى قائمة مقدمة للملك .. مسبقا بلقب باشا .. ألم يأخذ على عاتقه  
اقناع نيكولا ببراءة المسألة ليوافق على رحيلها ؟  
ذلك هو العصفور الاول : انطون باشا .  
وتصبح صاحب السعادة التى يستخدمها الناس مجاملة له ، من  
حقه فعلا .

أما العصفور الثانى ، فكان ايليا نفسها .. !

هاهى ايليا الشهية ثمرة للطف على شجرتك ، قال ذلك وهو  
يجتاز البلوك الخشبي للمخازن والورش ، ويصعد فى الرمال وراءها  
.. كان راغبا أن يخلو لنفسه فمضى يخوض العشب الشوكى  
المنشابك فى تلك الهضبة المهجورة خلف الميناء حتى وصل الى الشاطئ  
البكر .. وكان يقفز أحيانا بحيوية ومرح للتعبير عن سعادته ، وبعدها  
يقعى على الرمال محتضنا صدره بركبتيه النحيلتين ليلتقط أنفاسه .  
أنت سعيد الحظ يا أنطون يا ابن مليكه ، لقد ولدتك أمك  
سعيدا ، فأعطاك الرب نيكولا ، وأعطاك نيكولا منجما وأعطاك ميناء ..  
وجاءك بأيليا .. وهى ايليا تجيئك بالباشوية فى رحلة واحدة ..  
رحلة واحدة فقط لن تتكرر فمولانا ملول وسريع السأم .. ! وبعدها  
تعود ايليا خالصة لك .. آه .. ما أشهاك يا ايليا !

لقد مضت سنوات خمس وانطون يشتهى ايليا ، وينتظرها .  
سنوات خمس ، منذ كانت ايليا جنية ساحرة لم تتخط العاشرة بعد ،



فى بيته العتيق بجاردن سيتى المحروم من الجنيات .. ورغم هذه السنوات الخمس فما يزال عبق جسمها الصغير النشهى يملأ حواسه ، منخرا من تلك الامسيات التى كانت تنحنى فيها عليه لتعطيه قبلتها البنوية قبل نومها ، تحت سمع وبصر زوجته ، التى لايمكنها أبدا ان تقرا خواطره وأفكاره .

أمسية بعد أمسية وسنة بعد سنة فى ليالى الشتاء والربيع المدرسية .. والخواجة أنطون يرى بجساره وجرأة نمو تلك الابنة الضيفة ويرقب اكتمال جسدها طفرة بعد طفرة تحت غلالة نومها الملائكية !

خلال تلك الامسيات المختلصة من زوجته التى لايمكنها أن تمسك بخواطره وأفكاره ، اشتهى الخواجة أنطون ايليا الصغيرة ، ضيفته .. وابنة نيكولا ، ذراع .. وحلاله ما يختلسه من زوجته القعيدة العاجزة عن الحركة .. فركب جواد خياله فى تلك الامسيات وداعب جسد ايليا واخذ يكتشفه ومضى به جواد الخيال بعيدا فى كثير من الاحيان وغازلها .. لكن النهار كان يطلع على خيالاته دائما فاذا هى ايليا التى يعرفها .. طفلة نيكولا التى لايجرؤ أبدا على تلويث طهرها .

وكثيرا ما جفل به الخيال أكثر من مرة حينما حاول أن يقدم فى وضح النهار ، على اشتهاء ايليا .. خارج نطاق تلك القبله البنوية التى تعطيها له قبل نومها .. وعجز دائما عن اقتحام تلك الهوة المكونة من العمر والبراءة ، التى تفصل بينهما !

سنوات خمس وهو يحسب المسألة على هذا الشكل : حين تبلغ ايليا الخامسة عشرة تكون انت قد بلغت الخمسين يا أنطون .. فماذا يتبقى أمامك .. ؟ زوجتك القعيدة ستكون قد احتملتها عشرين سنة ، دون أن تنجب لك .. قد تموت قبل ان تبلغ ايليا الخامسة عشرة ، وقد تبقى فلا عليك .. لقد اخذت منك ما يكفى .. وما بقى فهو لك ، فلتزوج ايليا .. نيكولا صديقك وشريكك وذراعك أيضا .. فلتتوسل اليه أن يزوجك ايليا حين تبلغ الخامسة عشرة .

خمس سنوات أخرى أو عشر يا أنطون تعيشها مع ايليا . وبعدها تبلغ انت الستين وتبلغ هى الخامسة والعشرين .. وتبدأ هى من حيث تنتهى انت ، لايمهم ، الا تكفيك السنوات العشر !

ومضى يرقص طربا على الرمال المبللة ، فانزلت قدمه وخاضت  
فى مياه الشاطئ ٠٠ ودهمت موجة حنون ساقه المكسوة بحذائه  
وينطولونه وجواربه ، فزاده ذلك طربا على طرب ٠٠ انت سعيد الحظ  
يا أنطون ، لقد ولدتك امك سعيدا فأعطاك الرب نيكولا ، وأعطاك  
نيكولا ايليا ٠

وها انت يا أنطون السعيد تضرب عصفورين بحجر واحد  
فتشتريك فى تدبير ذهاب ايليا مع صاحب الجلالة ، فتحصل بذلك على  
لقب باشا ٠٠ وفى نفس الوقت يتفضل صاحب الجلالة ويكسر ذلك  
الحاجز المكون من العمر والبراءة الذى يفصلك عنها ؟  
ولن تكون بحاجة لان تتوسل الى نيكولا ذراعك وصديقك فلربما  
ساعتئذ يتوسل هو اليك ٠

وجرى صاحب السعادة ، على الرمال عائدا وهو يجمع فى  
طريقه حبات البشيش الملتصقة المبللة ، تسكن حركتها كلما دب  
بجوارها ، وتعود للحركة كلما سكن ٠٠ كان يقفز بنحوه الملحوظ  
قفزات غير مدربة ٠٠ فيهتز كأنما ينفض وقاره واناقة عنه ٠٠ ثم يعود  
لنفسه لاهثا ، ليعاود الكرة من جديد ٠٠ وحينما لاحظ خروج العمال  
من بلوكات الورش ، يقودهم الرئيس حفناوى لشحن ما بقى من خامه  
التلك على الشاطئ للمم نفسه نهائيا ٠٠ والتحف بتحفظه الرتيب  
البارد ٠ وحياتهم مشجعا وهو يدلف الى سلم الكابينة متجها لغرفته ٠

ونام أنطون بك حتى الظهيرة ، حين أيقظه الدق ٠٠ فنهض  
متحاملا ليجد الرئيس حفناوى يطلبه على عجل ٠٠ وقاده حفناوى الى  
غرفة نيكولا ودفع الباب فرأى رأس نيكولا مدلاة من حافة سريره ٠٠  
تسيل على رقبتة خيوط دافقة من العرق وتنحدر على ذقنه وأذنيه !

كان الخواجة أنطون قد غادره ، فبقى وحيدا على سلم الكابينة  
وقد صعدت معدته الى حلقومه ، وركبتيه ترتجفان ٠٠ يجذبه للانهيـار  
شئ فى داخله ، على عتبة هذا الفجر الدامى المعلق فى الأفق فوق  
سطح البحر مباشرة ٠ فوق هذه الرمال المنداة ، التى ما تزال تحمل  
آثار قدمى ايليا الصغيرتين اللتين سارت بهما الى سيارة الملك وقفزت  
فيها ٠

ومال برأسه على حاجز السلم ، وبدأ يفرغ جوفه ، وحين انتهى

شعر برأسه يدخل في الدوار ، فتحامل على الجدران • متخطبا حتى  
وصل إلى فراشه فارتقى عليه •  
لعل مأخذ يعبه من خمر طيلة الليل وحده ، يسحبه الآن إلى  
الغيبوبة •• لكن ما باله يرتعد كأنه درويش لبسه الوصول  
والاتصال ؟ •

ومضى نيكولا يواصل زحفه على جدران الغرفة الخشبية مصطدما  
بالأرفف والمقاعد ، حتى وصل إلى الدولاب ، وأخرج منه غطاءين  
اضافيين •• ضمهما إلى غطاءه •• ودخل تماما في الغيبوبة •  
رأى نفسه عاريا مع أبيه في حمام تركي •• وبدأ الحوض  
الكبير المليء بالماء الساخن وكأنه وعاء كبير جدا من الفضة يغلي على نار  
جهنمية لا ترى ، فيتصاعد البخار ويتكاثف ، وتتلاحم مجموعات قتلة  
أباه عاريا وتلده هو أيضا عاريا ، وتلد كل هؤلاء النساء والرجال  
والاطفال الذين يراهم في الحمام التركي معه •• يصنعون اختلاطا  
حميما وتلاحما بين الأجساد العارية المكسوة بالبخار الكثيف ، يموه  
عريها ويضفي عليه الغموض والسحر •• وشعر بنفسه خفيفا كفقاعة  
محمولة على هذا البخار الكثيف الذي يتحول إلى سحب •• ثم تختفي  
جدران الحمام المكسوة بالرخام النقي ، لتنتقل تلك السحب في سماء  
زرقاء لا متناهية ، فيشعر نيكولا بنفسه متطائرا ومتجاوزا إلى أبعاد  
يعجز الوعي عن حصرها حتى تسقطه السحابة التي تحمله عاريا فوق  
جبل ، بينما عرق الحمام التركي وماؤه لا يزالان يقطران من جسده  
الهلامي !

كان الوقت ربيعا ، وكان الجبل مزهرا مطلا على البحر • يتراعى  
عند سفحه واد لا قدرة على وصف اتساعه •• مليء بالجمال •• جمال  
عارية بيضاء في لون اللبن ، وصفراء في لون زهرة الحنظل الصخرية  
وسمراء تميل إلى الحمرة ، عجب ألوانها على تلك الرمال الذهبية  
المفرطة في النقاء • وأعجب منها عناقها •• تلك الرقاب الطويلة تمتد  
وتتمايل وتتبادل الغزل برؤوسها الصغيرة ويلف كل منها عنقه على  
عنق الآخر ثم يتلاصقان ويتجاذبان وكأنما كل منهما يدلك للآخر رقبتة  
•• ويبت رأسه الصغير مشاعره ونجواه •• ورأى أيسا وهو يحكي له  
عن البناجير والهجين وبقية سلالات الجمال الأخرى المتفوقة •• وكيف  
يطلقونها في هذا الوادي ربيع كل عام •• عارية على الرمل بجوار  
البحر •• تتعارف وتتجاذب وتتبادل العناق والحب •• ويقضى كل  
جمل وطرا من ناقته •

وقد يأخذ احد الجمال امه .. أو تأخذ ناقة شقيقها !  
ثم رأى نيكولا نفسه يغادر هذا الجبل الذى ألقى به السحابة  
فوقه ، مرتديا ثياب ملك أشورى قديم .. يرغل فى أبهة الملك وعظمته  
متصدرا كوكبة من عظماء المملكة يحتفلون ببدء موسم سيريس الهة  
الزراع والخصب .

ورأى عجوزا تنسلل اليه بين المحتفلين ، تحدثه عن فتاة فى سن  
ابنته أخذت تمتدح صباها ونضارة جمالها .. وتزين له الامر قائلة أن  
زوجته الملكة ستظل غائبة عن فراشه أيام الموسم العشرة .. فما الذى  
يمنعها ان تقود الى هذا الفراش تلك الصغيرة التى شغفت به حبا حتى  
أوشك أن يهلكها الحب ؟

ورأى نيكولا الغائب نيكولا الملك يتلمظ شهوة ، فمن اين له وقد  
قارب الشيخوخة ، أن تعشقه جارية فى سن ابنته .. ورأى نفسه فى  
خيمة الديباج الاحمر الوفيرة الدفء وحورية مختبئة الملامح فى حريرها  
الدمشقى . تنضو عنه ثيابه بأصابع بهجتها ولهفتها ، وتحمله على  
أجنحة عطائها فيغمض عينيه هياما ونشوة .. مستسلما بأكمله لها ،  
مستسلما بأكملها له حتى تتوحد نشوتهم وتتقد فتأخذهما الغيبوبة  
السحرية معا .

قال حفناوى انهم انتهوا من نقل الخامة الى السكونر دون أن  
يظهر نيكولا ، على غير عادته .. وحين تهيأت السكونر للرحيل ولم  
يظهر نيكولا أيضا ذهب اليه فى غرفته وحاول أن يوقظه .. يهزه من  
هنا فيميل معه ، ويهزه من هنا فيميل معه ، دون أن يتحرك له جفن ،  
أو حتى يصدر عنه نفس .. فأقترب الخواجة انطون من نيكولا حتى  
لحظ تنفسه . فأطمأن وطمأن حفناوى ، وتعاون الرجلان على تعديل  
نومته ، فلاحظا أن جسده شديد البرودة ، رغم العرق الغزير الذى  
يتصبب منه .

وغغم الخواجة انطون لنفسه بمكر انه كان يظن الايطاليين  
أكثر تساهلا لكن يبدو أن نيكولا فعلا قوقازى . ولا بد تورقه الآن  
رحلة ابنته مع الملك .. ثم عدل من وضع الاغطية حوله وهو يخبر  
حفناوى بأنه أجهد نفسه فى اليومين السابقين ، وظل فى الليلة الماضية  
صاحيا الى الفجر .. واقترح أن يتركاه نائما .

وجذبا الباب خلفهما على نيكولا الغائب فى اللحظة المشبوبة التى  
كانت ابنته تعريه فيها بأصابع لهفتها وبهجتها من رداة الملكى  
لثلتحم به .

## الفصل الثانى عشر

دخلت ايليا عالم المحظورات دون توقع أو شغف ، فلم يتح لروحها الطفلة ان تترقب أو تتوقع ، فحتى دنيا المراهقة التى تصنعها زميلاتها الأكبر عمرا فى المدرسة ، أخذت منها موقفا محايدا ٠٠ فلم يشغفها يوما شئ ، قدر شغفها بانتهاء الدراسة ، للقفز فوق زميلاتها وفوق المدرسة ، وفوق بيت العم انطوان فى جاردن سیتی ٠ للقفز فوق هذا جميعه ، وعبر المدينة العاصمة كلها ٠٠ الى الصحراء ٠٠ الى الدرهب ٠٠ حيث يقيم بابا نيكولا ، وحيث يتاح لجسدها الطفولى وروحها البريئة ، أن تتحرر وتنطلق ، كنبته أنثوية شديدة النقاء والنعمومة ، على الرمال ، عند أعتاب مياه البحر الشفافة . بين تلك الصخور الفائقة الخشونة ٠

وهكذا عبر جسر مما تحبه ايليا وتهواه ٠٠ فى ذلك المناخ الصحراوى الذى كانت تزهو بطفولتها على الضيوف فيه لخبرتها به ٠٠ انزلت الى عالم المحظورات خطوة بخطوة دون أن تشعر بالخطر حين امتدت كف صاحب الجلالة تربت على خدها وهو يسألها عن اسمها وعمرها ٠

لم تنتبه ايليا للرجل المجاور لها ، هذا المسمى بالملك . وكان انتباهها لكل الجلال والمهابة التي تحيط بالسيارة التي تجلس فيها الى جانبه . . . وراودها الشعور بأن هذا الجلال وهذه المهابة انما هي فى الحقيقة لها . . . واحتوتها تلك النشوة المنبعثة من خيالها ، وغذى عطف الملك ورعايته لها طوال الرحلة هذا الخيال فاستغرقها . . . ولم تشعر بمشقة الرحلة . . . كما لم تشعر بما استغرقت من وقت . . . وفى وديان علبة رفع الحرس ذلك الغطاء الجلدى عن سيارتها فوقفت الى جوار الملك وهو يبدأ مطاردة الغزال بسيارته . . . ممثلة بذلك الشعور بالتميز الذى يغذى دائما غرورها البرىء الطفلى . . . كأنما هى ملكة حقيقية تطل على شعبها ، كما شاهدت فى صور المجلات والكتب المرسومة الملونة .

بل انها حتى فى تلك اللحظة الخطيرة والحاسمة بعد الصيد بساعات ، حينما احاط الملك خصرها الدقيق بذراعه السمينة وسار بها الى خيمته المنفردة المضروب حولها نطاق من الحرس كانت مستغرقة فى وهما . . . فاستسلمت لذراعه الملكية بأناقة تليق بملكة ، ودخلت شامخة وهى تومئ برأسها لرجال الحاشية الذين وقفوا على مبعده ، متظاهرين بالانشغال فى كنوسهم وطعامهم .

كانت مسحورة بالرحلة . . . مسحورة بالصنعة من حاشية العصر المحيطة بها . . . مسحورة برعاية الملك واهتمامه بها ، مسحورة بالحرر التى كرر الجميع رشفها فى نخبها . . . وصنع رجال الحرس ضجة مهيبه ، وهم ينتبهون بأسلحتهم تحية لعبور الملك وعبورها معه ، وأقاموا بأجسادهم المكسوة بشياهم البيضاء والزرقاء وأشرطتهم الملونة حاجزا بين الخيمة والحاشية . . . وحينما حملها صاحب الجلالة بذراعيه الضخمتين من باب الخيمة الى الى الفراش الوثير المنصوب فى صدرها وهو يداعب بشفتيه وجهها الدافئ الملتهب بالانفعال ، أدركت ذلك المحذور الذى انتهت اليه ، وبدأ عقلها يعمل بسرعة ، طاردا الخوف من نفسها .

لقد ألســـــوها منذ البدء ذلك الجو النفسى الخاص بملكة فعاشته ببراءتها . . . وعليها الآن أن تدرك أنهم خدعوها به ، ليساعدها الوهم على تكريس جسدها الصغير لفعل لم ينتهيا له . . . ! ولم يعد أمامها غير أن تصبح وتصرخ ، وتصرف فعلا بما

يلأنها كطفلة .. حيث لن يستجيب أحد خارج تلك الحيمة لصياحها  
وصراخها .. أو تستجمع شجاعة أكبر من طاقتها وقدرتها ، لترتدى  
دورها الوهمى الى نهايته .. وتقبل ذلك الفعل كما يمكن ان تقبله  
تلك الملكة التى أوهموها بها .

وهكذا تشبثت ايليا الصغرى بعنادها الموروث من نيكولا  
ومن ايليا الكبرى .. وحركت ذاكرتها الى دنيا المراهقة التى  
اتخذت منها موقفا محايدا فى المدرسة .. والى تعليقات اقبال  
هانم على زفاف عبد ربه كريشاب وسمكته .. بل واستعادت أيضا  
صورة ذلك الالتحام الغريب الذى كانت تتأمله بجوار ابشر  
لكريشاب وسمكته الميتة التى يعرف انها ميتة ، ومضت تقارن بين  
جسدها الصغير الدقيق ، وبين جسد صاحب الجلالة الضخم ..  
وحين تعرى من ملابسه الملكية ، أخذت تقارن بين جسده الكثيف  
الشعر وبين جسد السمكة .

ومضت فى تمثيل دورها بشجاعة نادرة تفضل صاحب  
الجلالة واثنى عليها بعد ذلك بين خلصائه فى مناسبة مشابهة الى أن  
هاجمها الألم فجأة فاختلطت فى رأسها الصور ، وعضت نواجذها  
على طرف ثوبها .. لكن الألم أخذ يستمر ويتزايد حتى أفقدها  
الوعى .

لم تدر ايليا كم بقيت غائبة ، وعندما انتبهت وجدت نفسها  
مطروحة على الفراش الذى يتصدر الحيمة ، غير مغطاة أمام عيني  
صاحب الجلالة الجالس بجوارها يدخن سيجارا فطيع الرائحة ..  
وعند اقدامهما وقف الوصيف منهنكما فى حديث بدأه مولاه حينما  
استدعاه وهى نائمة .. ففزعت وحاولت أن تلملم ساقها فعاودها  
الألم .. فانحنى على نفسها وتدفقت الدموع من عينيها حارة  
وغزيرة واخرج الوصيف من جيبة قلادة من الملاتين يتوسطها  
فص من العقيق ، دلاها بين أصابعه بعناية ورقة ودنا بها من ايليا ،  
فما كاد يقترب بوجهه منها حتى انتفضت فجأة كقطعة متوحشة  
وخمشته وجهه بأظافرها ففزعت عنه ابتسامته الجلدية ..  
وأسالت خيوطا من الدم القانى مكانها .. فتراجع مفزوعا وكفاه  
على وجهه المجروح ، بينما انطلق صاحب الجلالة مقهقها .  
وقفزت واقفة ومضت ترتدى ثيابها بصلاية وهى تتجشم

عناء لامساك دموعها ، وحينما انتهت واجهت صاحب الجلالة بعينين تفيضان بغضا . . وطلبت منه أن يأمر باعادتها الى والدها ، فكف صاحب الجلالة عن ضحكه ، ومضى يؤنب الوصيف لازعاجه ايليا بقلادته السخيفة حتى دفعها لأن تطلب مغادرتهم . . وأمره أن يكلف ضابطا من الحرس بتجهيز سيارة تعود بها على الفور .

ونظرت ايليا من السبارة وهى تدخل الميناء ، تتمنى لو يخلو من الجميع فتتسلل دون أن يراها أحد الى فراشها ، لكن نظرتها الى الميناء كشفت فشل أمنيتها . وهكذا اضطرت أن تهبط بتعبها وهمومها بين هذه العيون المتعددة التى وقفت لها . . تحديق وجهها الشاحب وساقياها المتهالكين . . فلم تميز بينهم سوى صاحب السعادة الحوجة أنطون بك ، والدها الشتوى خلال فترة الدراسة بالعاصمة . ودخلها قدر من الطمأنينة فأباحت لدموعها أن تعود وتتفجر من عينيها الساخنتين .

كان الضابط المفرط الحياء والادب ، قد أعلن أن الأنسة اصابتها وعكة مفاجئة اضطرتها للعودة وقطع الرحلة فأوما له أنطون بك شاكرًا وتناولها منه . . ولم يزد فى سؤالها . . بدا كأنه قد فهم ماحدث وكأنه أيضا يلتمس لها العذر فيه ، فأراحها ذلك أيضا .

كانت متهاكة الساقين فعلا ، تتعثر فى سيرها وكان السير يصيبها بألم . . فاحتواها أنطون بك بذراعيه احتواء كاملا ، ومضى بها الى فراشها المجاور لفراش نيكولا فى غرفته . وكانت ايليا قد تنازلت للضيوف عن غرفتها طوال بقائهم . . ثم رفعها قليلا الى الفراش ، وساعدها حتى تمددت ، بينما قلبه يلهث انفعالا ورغبة ، وألقى نظرة على نيكولا الغارق فى الغيبوبة على السرير المقابل ، وتوقف لحظة يحدث نفسه ويمنيها بأن فرصته الآن قد أصبحت كاملة . . سيسيقظ نيكولا ويفاجأ بما وقع لايلىا ، وستربكه المفاجأة ويعجز لقصور ثورته وغضبه عن الوصول الى سلطان صاحب الجلالة وسطوته . وخلال عجزه سيمتلىء عارا وخزيا وعليك يا أنطون أن تتسلل بشهامة خلال هذا الحزى لتنقذ صديقك ، وتحصل على ايليا ما بقى لك من عمر . . !

ومضى ينقل عينيها الماكرتين بين السريرين حيث ترقد الأبنة المشتبهة ، والأب الصديق والشرير . . بينما كانت ايليا قد



استسلمت لطمأنينة المكان الاليف بعد الرحلة الاليمية ، فغلبها  
النعاس واستغرقت فيه .  
وحين انتبه نيكولا من غيبوبته رأى ايليا مطروحة ومغتصبة  
ومنهكة ، على الأسرير المجاور له .

لقد استيقظ فوجد رأسه مصابا بصداع شديد . ثم أحس  
بجسده كله متصدعا يشوب تصدعه شيء من رخاوة النشوة ولذتها .  
وكشفت أغطيته فلاحظ انها مبللة بعرقه الغزير الذى بلل ثيابه  
جميعها . وفاحت فى أنفه من تحت الأغطية رائحة الشهوة التى  
أفرزها جسده خلال غيبوبته فانبتت فى عقله على الفور كضوء  
ساطع صورته وهو يضاجع ابنته ، فارتجف وهزت القشعريرة  
جسده كله فى نفس اللحظة التى انتهت فيها عيناه الى تلك الابنة  
المهددة على فراشها المجاور له . ولم يكن أمامه من فرصة للتملص .  
كان الحلم ما يزال ساخنا فى نفسه المفعمة ، وبدأت التفاصيل ترد  
على ذهنه المنتبه متتابعة فأحس بأصابع ايليا على جسده مাত্রال حارة  
وساخنة ، بينما تعريه من ملابسه وتتجسسه . فروعت نفسه  
وعاودته القشعريرة . وهاله ما حدث . فنفض أغطيته ونهض من  
فراشه قفزا ووقف منحنيا أمام فراش ايليا ومضى يحدق محاولا  
أن يتبين الوهم من الحقيقة . وكان وهمه حيماء وعارما ، لانه قد  
دخل فيه مخمورا ، ودخل فيه منكسرا تحت وطأة الشعور بالعجز  
أمام رغبة السلطان الذى لا سبيل لمقاومة رغبته . وكانت نفسه  
مهيأة للهرب من ذلك العجز فعاش مشهدا قديما عاشه من قبل مع  
والده فى حمام تركى أملا فى البراءة . وحملته البراءة على سحب  
من بخار كثيف الى نصوع الصحراء ووضوحها ، ومداهها الفسيح  
اللامتناهى ، حيث اختلط فى عقله الزمان والمكان ، وطفت على السطح  
دخيلته المحتوية على ايليا . ايليا المرأة الدائمة والابدية . تلك التى  
ليست أمه ولا زوجته ولا ابنته . فذاب فى الوهم وعاشه بحرارة  
ونشوة ، فأصبح حقيقة ، وسقط الواقع وضاع خلال تلك الساعات  
التى استغرقتها غيبوبته . وهكذا وقف مبهورا أمام فراش ايليا  
ابنته ، يحدق فى جسدها المطروح والمنتهاك ممتلئا بالشعور بأنه  
هو الذى انتهكها !

وأخفى وجهه فجأة بكفيه الكبيرتين واستدار شارد اللب  
وغادر الغرفة مهرولا وهو يلتفت خلفه بفزع وسقط من سلم الكابين

بينما يتراجع بظهره ثم تحامل ونهض .. وفقر جاريا الى البحر ..  
فألقي بنفسه فيه .

كان المشهد مألوفاً ، ان يخرج نيكولا من غرفته جاريا الى البحر ، فيلقى بنفسه فيه . لكنه تلك المرة كان مرتديا بنطلونه وقميصه .. رآه ابشر من مجلسه على السقافة الممتدة للرسو داخل الميناء وقد دلى في البحر خيوط سنائره متربصا بها في تلك الساعة قبل الغروب . لأسماك البياض المتوسطة التي تسعى وراء الاسماك الصغيرة في دفء المياه القريبة من الشاطئ .

دهش فترك سنائره ووقف محققا وقد تصور لها نزوة من نيكولا بعد نومه الطويلة التي استغرقت نهارا بأكمله ، ان يقفز في البحر فيغسل عرقه ويغسل ملابسه .. لكنه رأى نيكولا جادا في سباحته .. متوغلا داخل البحر الى تلك المناطق الخطيرة والمحظورة ، حيث تلهو اسماك القرش على اعتاب مساكنها في الاعماق فمضى يصرخ مناديا ومحدرا .. فجاء على صراخه العم أوشيك ، وجاء رجال الورشة .. وكان الحواجه أنطون مشغولا مع الضيوف الذين بدأوا ينقلون متاعهم الى اللشبات التي عادت من الغردقة لتحملهم اليها ، فانتبه على صراخ أبشر ، وأسرع الى السقالة يبحث بعينه في البحر حيث يشير .. فرأى نيكولا يسبح باصرار وصلابة ، مقاوما ثقل ملابسه الممتلئة بالماء ، متجها باسراع الى تلك المنطقة الخطيرة والمنوعة ، حيث يوجد في بطن الماء جبل عظيم .. تتوالد في كهوفه وتلهو حوله سمكة القرش المتوحشة .. وقد بهت الحواجه انطون لحظة ، وتزاحمت في رأسه الصور .. وأدهشه أن يقدم نيكولا على الانتحار لان الملك قد أخذ براءة ابنته .. فهو يعرف عددا كبيرا من رجال المجتمع قد أخذ صاحب الجلالة بناتهم .. فأضفى عليهم ذلك رضاء وسعادة واكتسبوا به شرفا .

وخطر له أن يترك المقادير تسوق نيكولا الى حتفه لتصبح ايليا وحيدة .. ويصبح هو ملاذها الوحيد .. ثم انتبه خارج ذاته على صوت أبشر الملهوف وهو يقفز جاريا على الشاطئ الى حيث يقف بنصفه المؤرجح فوق الماء ، قارب عبد ربه كريشباب ، فجرده من حراب الصيد وعاد يحملها مسرعا الى القاربين اللذين بدأ رجال الورشة في ادارتهما ، بينما أخذ الواقفون على الشاطئ يستحثونهم

وهم يرقبون نيكولا المسرسل بعناد وصلابة فى سباحته تجاه  
الخطير ، رغم صياحهم عليه ، ومنادائهم له .  
وقد لحقت القوارب بنيكولا فى ذلك اليوم التعس ، وأحاطت  
به . . كل قارب من جانب ، ومد الرجال أيديهم الى البحر يحاولون  
انتشاله ، لكنه أخذ يستعصى عليهم وينفلت كلما أمسكوا به . .  
مطبقا عينيه مستغرقا بكل جهده فى ذراعيه اللتين تضربان الماء  
وتضربان أذرع الرجال ، كأنما فى داخله قدر يسوقه ، تجاه البحر  
الفسيح ليذوب فيه بما يشغل روحه من وزر الاثم .

وظهرت تحت الماء بقعة خضراء مستطيلة ملتوية ، فصاح  
الرجال محذرين من القرش وبدأوا يحيطون نيكولا بحرايهم ، ليمنعوا  
الوحش من الاقتراب منه . . لكن الوحش كان حرا وكان مراوغا ،  
وكان قد خرج بعيدا عن الكهوف مستطلعا رائحة الطعام ، أوفى نزهة  
فاضطربت حواسه استجابة لذبذبة ذلك الجسم السباح  
فى الماء على مقربة . . وتقوس على نفسه ثم اندفع بحمية الصياد  
تجاه تجاه نيكولا . فريسته الموعودة ، ولم تثبط من همته الحيوانية  
تلك الحراي التي اصابت جلده السميك اللزج وأسالت الدماء منه . .  
بل كان يتلقى الإصابة كأنها خدش . . وينفلت مبتعدا وهو يجر فى  
الماء خلفه خطا قانيا من الدماء ، ثم يستدير على نفسه عائدا ، ليهاجم  
نيكولا من جديد ، فتمنعه الحراي أن يصل اليه . . وقد هيجت  
خيوط الدماء فى البحر شهية القروش الاخرى ، فتحركت تسعى  
نشيطة مقبلة خلف رفيقها الجريح . . ولمح الرجال فى القاربين  
أجسامها الخضراء وانزقاء تلمع ملتوية مقتربة تحت الماء الشفاف ،  
فأدركوا ان نهاية نيكولا تقترب باقترابها ، وأسرعوا الى حبال  
القوارب فألقوا بها الى الماء ، ومضوا بتعاون فى الحركة بين القاربين ،  
يحكمون لفها حول جسد نيكولا المندفع المستعصى عليهم حتى أمكنهم  
أن يوثقوه بها . . وبدأوا يجذبونها حتى الصقوا نيكولا بالقارب ،  
وأخذوا يرفعونه من كتفيه وذراعيه الى حافته . . ولمح أبشر ذلك  
القرش الجريح يندفع بحركة يائسة الى ظهر نيكولا فينشرب فكه  
العريض الوحشى ، فسدد حربته ، وأطلقها فى عنق الوحش فغاصت  
فيه . . وانفرج الفك عن بنطلون نيكولا وظهره الذى ينزف دما بينما  
غاص القرش مبتعدا بالحرية المغروسة فى مقتله .  
وقد أصاب الرجال الدعر اذ وجدوا جرح نيكولا غائرا . .

وكانت المستشفى الوحيدة بالمنطقة فى الغردقة ، فتقرر أن يسرع الضيوف بالرحيل ليحملوا نيكولا معهم .. وبقي صاحب السعادة أنطون بك فى الميناء ليدبر أمور العمل ويلحق بهم .

وكان الحادث قد القى بظله على العمال والعبادة فتجمعوا على البراميل الفارغة وفى باحات الورش يثرثرون ويحللون باحثين عن ذلك الدافع الخفى الذى دفع بنيكولا الوقور القوى الذى يعرفونه ، الى تلك السباحة المستهترة فى منطقة القرش التى يعرفها جيدا ، ثم أجمعوا على أن نيكولا قد أصابه الحزن واختل توازنه العقلى ، لان الملك قد خرب ايليا ابنته ، فنهرهم الخواجه انطون بك وفض تجمعهم ، وأمر من لا عمل له بالميناء بالرحيل فورا الى الدرهيـب لمواصلة العمل بالمنجم .

ثم اتصل بمحطة الاحياء المائية واخبرهم بأن صاحب الجلالة قد صاد اثنتى عروس البحر وعليهم أن يحضروا لاختـذاها .. فجاء الى الميناء قارب مجهز نزل رجاله الى الشط وتحلقوا حول السمكة الميتة .. يزيحونها من هنا حينا ، ومن هناك حينا آخر ، حتى دفعوا بها الى القارب وانطلقوا بها .. بينما الخواجة انطون يتابعهم وهو يتصورها متصدرة متحف الاحياء وقد ألصقت بذيلها لافتة مذهبة ، يزينها اسم صاحب الجلالة كصائد لها ، بجوار نوعها وتاريخ صيدها .

ذلك عمل اضافى يقدمه الخواجه أنطون بك لابد وأن جلالتـه سيضعه أيضا فى اعتباره .

ومضى عائدا الى الكابينة ليطل على ايليا !



## الفصل الثالث عشر

التأمت جراح نيكولا ، وفكت أربطته ٠٠ وأصبح ممكنا له أن  
يمشى ويتحرك من غرفته فى المستشفى الى الشرفة المطلة على الرمال  
الصفراء ، والاكشاك الخشبية الملونة الملحقة بالكبائن والشاليهات ٠٠  
فيجلس محدقا فى الفراغ داخل مقعد هزاز ، صموتا ، مقتضبا  
النبرات مغلقا شديد الانغلاق ٠٠ فنصحته صاحب السعادة الحواجه  
أنطون بك بالراحة ٠٠ واقترح له رحلة ٠٠ فى القاهرة ٠٠ أو فى  
الاسكندرية ٠٠ أو حتى فليذهبوا جميعا الى ايطاليا ٠٠ «نعم حقا ٠٠  
الى ايطاليا ما رأيك يا نيكولا ؟ ٠ أنا وانت وايليا واقبال هانم ، ان  
أرادت أن تذهب معنا ٠٠ فلنذهب جميعا الى ايطاليا أسبوعين » ٠  
وكان يفكر أن ذلك يكون مناسبا أيضا للحصول على موافقة  
ايليا الكبرى ٠٠ زوجة نيكولا الغائبة ، يسمع عنها ولا يراها ٠  
لكن نيكولا لم يكن شغوفًا بأحد فى الاسكندرية ، كما لم يكن  
شغوفًا بأحد فى القاهرة ٠٠ وكذلك أيضا لم يكن شغوفًا بأحد فى  
ايطاليا ٠ ولم تستجب نفسه لفكرة الرحيل ، فما فائدة الرحيل  
يا نيكولا مادمت تحمل داخلك معك أينما حللت ؟ ٠

وعاد الى الصحراء منطويا على ذاته . . . وظنت اقبال هانم أن في قدرتها اخراجه من تلك الذات خلال الايام القليلة التي ستبقاها معهم في الدرهييب ، فخاب ظنها وخابت غوايتها وما كان أغربه على المكان مشهدها خارجة في مغرب الشمس قادمة من الكباشن الخشبية المحيطة بباحة المنجم ، بالديكولتيه الواسع يكشف عن صدرها الابيض المورّد وكتفيها العاجيتين في تلك البيئة الصخرية السمراء . . . أو شعرها المموج طبقات فوق طبقات تتخلله أمشاطها الصغيرة المطعمة باللؤلؤ . . . أو فم سيجارتها الذهبي الطويل تقبض طرفه بين أسنانها البيضاء بينما عيناها الملونتان تحلقان بنعال فوق كل المرتيات . . . غريب مشهدها وغير مألوف ، بالنسبة لهؤلاء البدو انعبادة الذين يكونون في تلك الساعة ينفضون غبار التلك عن رؤوسهم المشعثة ووجوههم الكشيفة الشعر . . . ويتهاؤون لاشعال نارهم بين الصخور جماعات وفرادى لطهى عجينة الخبز أو شعيرهم المخلوط بالبقول .

تكون قد استيقظت من قيلولتها وشربت الشاي في فراشها المطل على الرمال ، وتبادلت مع أيليا حوار العصر وهي تنتظرهم بمساعدتها في الاشراف على تجهيز مائدة المساء . . . ثم تنقلت خارجة ياحثة عن نيكولا فتعرض له ناعمة متمسحة .  
وما كانت تدرك أن سعيها الشيق هذا خلف نيكولا يؤجج شعوره فيزداد احسانه بثقل العقاب ووطأته ؟ .  
لقد ظنوا جميعا أنه قد نجا وعاد من جديد ليملا الصحراء بناء للحياة وبهجة ، كما ظل يفعل هناك طوال تلك السنوات ولم يدرك أحد أن نيكولا الذي يعرفونه قد مات !

غرق نيكولا القديم في ذلك اليوم الذى أمالته فيه الحمر على حافة سلم الكباين ليفرغ جوفه .  
غرق نيكولا القديم في ذلك اليوم الذى ركبته فيه الحمى ونام في اليوم يومين .

سقط من عقله الحفل والضيوف ورحلة الصيد والملك وأنطون بك ، وكل ماهو مؤلم ومثير للآلم . وعاش في الحلم عظمة اللامالوف وبهجته الخرافية الساحرة ، التي حطمت كل حواجز الاستحالة الاخلاقية التي صنعتها البشر وهم يبنون على مراحل التاريخ

مجتمعهم . فأنصهر نيكولا في الحلم وخرج منه سبيكة جديدة ،  
متشبها بكل ما عاشه في الحلم ورآه .  
وأصبحت أيليا خطيئته وعقابه ، لا جنته وثوابه كما كان يقول  
لها .

وحين فتح عينيه في المستشفى على الألم لم يكن عقله قادرا على  
التأمل أو التفكير ، كان يصحو على انشغال الغرفة بالطبيب أو  
المرضة . . أو بعض الزوار . لكنه خلال صحوه يكون غائبا . .  
يحدق فيمن حوله ، فتبدو عيناه فاهرتين كأنما تحتويان المرئيات  
جميعها ، بينما هو في الحقيقة لا يرى غير ما يملأ عقله الخاص . .  
لا يرى خارج ذاته ونفسيته .  
قال له الطبيب : ستعيش يا نيكولا . ستنجو من ذلك الجرح  
وتعيش ، لكنه سيخلف لك عجزا يصيب رجولتك .  
فلم ينزعج نيكولا . . ولم يندهش . . تلقى الأمر بنوع من  
الرضا .

ولعل خطأ غير مرئي كان يربط نيكولا بعيدا في الماضي ، بترية  
منبته الدينية المتزمتة ، فاعتبر ذلك عقابا سماويا يحل به .  
وهكذا بدا له العقاب طبيعيا . .  
أن يخرج على المألوف ويضاجع أبنته ، فتؤخذ رجولته منه !

نقد كانت النوبة القديمة هي أرض كوش . . وكان أمير كوش  
يحكم الصحراء الشرقية الجنوبية من مصر الى بلاد السودان ، حتى  
جنوب الخرطوم .

وعندما أراد موسى النبي أن يضع حية على باب خيمة  
الاجتماع ، استدعى رجلا من أرض كوش ليصنعها من البرونز  
والبرونز ليس معدنا ولكنه مركب . . مما يقطع بأن أهل كوش كانت  
لهم خبرة بالمعادن ومركباتها . . فكيف جئت لتعلمهم التعدين  
يا نيكولا ؟

وحيد أنت وحدة مطلقة ومحاط بظروف قاسية وغريبة . .  
وكما أنت قادر على أفضل صور الخير فأنت قادر أيضا على أفظع أنواع  
الشر . . « لقد خلق الرب الآله آدم ترابا من الارض ، ونفخ في أنفه  
نسمة حياة فصار نفسا حية وغرس جنة في عدن شرقا . . وأثبت  
من الارض كل شجرة شهية للنظر جيدة لتأكل . . وشجرة الحياة في

وسط الجنة . وشجرة معرفة الخير والشر . . وكان نهر يخرج من عدن  
ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة . . اسم الاول فيشون  
واسم الثانى جيجون وهو المحيط بكل أرض كوش . . الخ . . الخ  
يوجد ذلك فى سفر التكوين يا نيكولا . . مازلت تذكره .

وكان نهر الجنة الذى يحيط بأرض كوش يجرى من انشرق الى  
الغرب ، وليس ذلك بغريب ، فمازالت مجارى هذا النهر واضحة  
آثارها على الصخور ، وفى الوديان الساحلية التى عرفتها جميعا فى  
المصحراء . . فى هذا العهد السحيق يا نيكولا كان ممكنا للرجل أن  
يتزوج أخته أو أمه . . وقد حدث ذلك ملايين المرات دون أن تهتز له  
الجبال المقدسة أو تמיד الأرض . . لكن آلاف السنين قد مرت عليك  
من وقتها للآن ولا بد أنك قد تعلمت ما هو أخلاقى ، وما هو غير  
أخلاقى . . وقد فقا ذلك الملك الشاب القديم عينه بعدما تزوج  
أمه .

فالسؤال الممنوع هو عن الحياة والموت . . أما الواجب الاساسى  
فهو العمل الذى لا مهرب منه . . وما عدا ذلك فلا توجد أسئلة . . ؟!  
يكون جالسا فى جانب من الباحة يرقب العمال يصعدون  
ويهبطون فى فتحه المنجم ينقلون خامة التلك الى دائرة التخزين  
الحقلية ، وأمامه رقعة الشطرنج بلونيهما القديمين الاسود والاحمر  
يحاول الهروب اليها من داخل نفسه بينما يحرك الافيال والفرسان  
أمامه على مربعاتها الصغيرة . . فتجى أقبال هانم تحوم حوله ، وبين  
الحين والحين تنحنى أمامه لتضع نهديها فى عينيه مع كوبة الشاي أو  
القهوة ، وبعض البسكويت ، تحاول أن تغويه دون أن تثقل عليه . .  
غير مدركة أو متصورة أن هذا الجسد القوى المتكامل الذى خبرته  
وعرفته ، قد أصبح أصم الى الابد . . حتى عن الحب والشهوة أصبح  
السؤال محرما وممنوعا أيضا . . والواجب الوحيد الباقي يا نيكولا  
هو العمل . . هكذا تكون الاجابة على تلك الافكار التى تذهب وتجى ،  
مؤرجحة فى عقلك المضنى العاجز عن التركيز .

لقد آن الأوان لنشرع فورا فى شق الجبل عموديا من الداخل الى  
قمته الخارجية ، لتوسيع بئر التهوية القديمة وأكمال انشائها فتصبح  
قادرة على تغذية المنجم بكمية أكبر من الهواء النقى . . ولتصبحوا  
قادرين على التوسع فى حفر الانفاق والممرات طولا وعرضا فى الطبقة



الثالثة وراء الحامة الشمعية التكوين ، التي تزداد غزارة وكثافة بين الصخور ٠٠ فما تكاد تنهار في أرض الممرات كتلة هائلة ، ويتم نقلها وأفراغها ، ويهدأ الغبار الشمعي الذي يملأ الممرات بعد سقوطها ٠٠ حتى تظهر في جدار الجبل كتلة أخرى هائلة .

واستطاع نيكولا أن ينسى نفسه في الرسوم والقياسات حتى انتهى من التصميم النهائي للبئر على الورق ، ثم شرع فوراً في تنفيذ التصميم الورقي على صخور الجبل .

ولاحظ على ايليا بعض الأعراض التي توحى بحملها فارتبكت .

وكان نيكولا معلقاً على جوانب البئر العمودية ، يشرف على تنفيذ تصميمه الهندسي الذي يحميها من السيول والأمطار فلا يدخل من فتحتها النهائية على قمة الجبل ، سوى الهواء النقي ٠٠ وكأن العمل يخدر روحه القلقة ويمتص عذابها ولم يعد يخرج من بطن الجبل قبل أن تهبط الظلمة ، في الباحة ، وتصبح الوجوه غارقة في الظلال ٠٠ عساه كان يتخفى نيكولا في تلك الظلمة ، فلا تتكشف للآخرين دخيلته التي تتلوى بفداحة الاثم وجلال العقاب ، ومن ثم لم يكن متاحاً ليليا أن تقرب من نفسه وتسرع له بهومها ٠٠ ولم تجد أمامها غير أنطون بك ٠٠ هذا المثلثف عليها ، المطوف حولها ، فأسرت له بحملها ولدهشتها وجدته يبتهج ووجدته يهون الامر عليها ويفريها به ! ٠٠

كان واضحاً أن تلك البذرة القيت في ذلك اليوم التعس في خيمة صاحب الجلالة اشره ، قد أثمرت وأعطت نتائجها ٠ وكأنما تتجسد تلك الحادثة الكئيبة في اللحم والعظم ، وتجري فيها الدماء ، لتتحرك في الحياة على قدمين ، وتذكرها بامتهانها وذاتها .

وكان هو يعلم يقيناً أن تلك فرصته لينجب طفلاً يحمل اسمه فما كان له أبداً أن ينبج وقد فشلت حكمة الطب وأدويته ، في اخصاب شجرته العقيم المجدبة ٠٠ وما كان له أن يفكر في العار أو يفكر في الحزى ٠ وزوجته ايليا الجميلة ٠٠ ايليا المحببة والمستهتة . ستنجب له ولداً طالما تمناه وانتظره ٠٠ من صلب ملك ٠٠ محتوي على خصائص ملك ومميزاته ! ورأى في ذلك كله مدعاة للمتعجيل بالزواج واتمامه حتى تجيء

الولادة في ميعاد قريب نوعا من ميعادها الطبيعي !

واحسرتاه على تلك الصغيرة ايليا .

وحيدة هي في بحر الحياة الزاخر بالمنافع المتضاربة ، والشهوات الفاجعة ، والحوادث المضنية التي لا تكون في الحسبان .  
تتأمل الرمال المترامية ، من نافذتها المفتوحة وتفكر في تلك الوقائع المتتالية التي حطت على رأسها الصغير ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد . . . فأين منها الآن ايليا الكبرى ، أمها ايليا الكبرى ، التي تنصدر هناك في ايطاليا ذلك الملهى المظلل بالاشجار الصناعية فوق الصخور المظلة على البحر . . ؟

وأين منها بابا نيكولا نفسه ، يدخل في الغيبوبة حين يجهد الانتباه ، وحتى لحظات انتباهه يمضيها محققا فيمن حوله مذهولا كالغائب ، لا يدري أحد . . . ولا يمكن لأحد أن يخمن . . . أى عراق يدور في رأسه الذى بدأ يتسرب اليه المشيب .

أى هول ذلك الذى يحتويه فى دخيلته ، فيجعله طاعنا فى السن هكذا فجأة ، أبيض الشعر كأنما عمره مائة عام ؟ !  
هي تعرف أن بابا نيكولا يكن لها حبا مضاعفا أحسسته ولاحظته وكان دائما يقول أنها جنته . . . أنها ثوابه وجائزته ، وأنها خير ما أعطته أمها ايليا الكبرى . . . تلك اتى أحبها واختلفت مناهجها فافتقدا الوفاق وافترقا . . . وكان يقول أنها هي ، ايليا الصغرى ، عوضه وثوابه عن ذلك الوفاق المفقد !

هي تعلم كم يكن لها من الاعزاز والحب بابا نيكولا ، وتعلم مدى زهوه وفخره بها ، فهل أصابه ما حدث لها مع الملك بجرح نافذ أفقده القدرة على التبصر والسيطرة فرغب أن يلقي بنفسه الى التهلكة . . . وكانت تحس بقدر من الذنب بينما هي وحيدة تفكر فى وحدتها لأنها قد تسببت بشكل أو بآخر فى ايذاء والدها . . . وهامو حملها يزيد الامر سوءا ! .

وتلقت اقبال هانم ذلك الحيط فبدأت تجدل منه حبلا غير مرئية تحيط بها ايليا وتقودها الى ذراعى الخواجه انطون بك النسيم بها .

حدثتها عن فكرة الزواج أولا ، فتقبلتها ايليا كفكرة مفاجئة لم تنتهيا لها ، فبدأت تقنعها أن الزواج ضرورى كحل يلقي ستارا من

الصمت والنسيان على ما حدث ويفتح في صدر المجتمع واجهة جديدة .. ينظر إليها الناس من خلالها بدلا من تلك الواجهة التي سيطلبون زمنا منها فلا يرون سوى صورتها ضحية لتلك الحادثة .

وحين اقتنعت بدأت تحدثها عن انطون :  
سيكون باشا خلال شهر ، على أكثر تقدير .....  
نقى بما أقول يا ايليا ....

وفوق ذلك فقد صنع له بابا نيكولا من ذلك الجبل في بطن الصحراء ، ثروة كبيرة يعتد بها .. انه يملك الآن في مدينة القاهرة وضواحيها مصنعين كبيرين ، فوق ما يملكه في هذه الصحراء .  
الثلاث لانيك نيكولا ، والثلاث للحاج بهاء .. والثلاث له .....  
فاذا تزوجت به ضمنت الثلاثين يا ايليا .

أنت صغيرة الآن ، ولا تدركين ما للمال من قيمة .. لكن تأكدى أن المال قادر على كل شيء .. فان ملكته ملكت الحياة بأجمعها .. بل وملكته أيضا عيون الناس التى تطل عليك وأمكنك التأثير حتى فى عقولهم وأفكارهم !

وأغرقها أنطون بك فى تلك الايام بالهدايا ، واستأجر لها لنشا فاحرا تذهب به الى جزر المرجان ، لتتسلى بصيد الاسماك الملونة .. واشترى من رجل يعرفه فى القاهرة مجموعة كبيرة من الفكاهات ليرويها على مسامعها فتبهجها وتنسيها أحزانها .

قالت لها اقبال هانم فليكن أكبر منك ، أو فليكن عجوزا .. بل فليمت أيضا .. ماذا يهمك من ذلك ، فاعمر ملك يديك والزمن ما يزال ممتدا شديدا الطول أمامك .. وستكون الثروة لك .. وساعتها يمكنك أن تبدئى من جديد على هواك .. تبدئين بالحب ، أو تبدئين بالزواج مرة ثانية .. ستكونين حرة .

نقى من كلامى ، أؤكد لك .. لا يوجد حولنا ، من هو أصلح منه .. !

واحيورتاه على تلك الصغيرة ايليا .  
وحيدة فى بحر انشعوات والمطامع .  
صغيرة على كل ما يراجهها .

فكيف لها أن تتخذ قرارا ، وهى تعلم أنها بالقرار ترمى  
مسيرها ؟!

لقد علمها بابا نيكولا أن تكون قوية . . وأن تكون حازمة .  
فأين لها بابا نيكولا الآن ؟!  
قال لها أن عيبه فى ضعفه العاطفى وتردده ، فلتكن هى  
تكلمة له .

قال لها : انى اعتمد عليك يا ايليا حين يحط بى الضعف  
وتجرنى عيوبى الى الهزيمة ، فكونى قوية .  
وهاهى تلك السيدة المجربة تخبرها بأن الثروة هى القوة ؟!  
فلا تملك غير أن تخبر اقبال هانم بموافقتها .



## الفصل الرابع عشر

اشترى الخواجه أنطون بك حقيبتين مלאهما بالهدايا والملابس ، واشترى الطعام المقلب والمشروبات للمنجم ، وشحنها جميعا من السويس على السكونر الذاهبة الى برانيس بينما أخذ هو القطار الى أدفو ونزل في ضيافة الحاج بهاء وحين جلسا الى العشاء وخلت القاعة الا من ذلك النفر القليل من أتباع الحاج يقفون على مبعدة يناولون الملح أو الماء أو الفاكهة والقهوة . . . مال الخواجه أنطون على الحاج بهاء وسأله أن كان يعرف في الصعيد شيخا ذا حيثية ، يذهبان اليه لاستبدال اسمه من أنطون الى عبد الله . . . وهمس له بتفاصيل المسألة قال أنه يرغب في طلاق زوجته ، والطلاق في ملتهم ممنوع ، فلا بد من تغييرها بملة أخرى تسمح بهذا الطلاق وتقره . . . ليتحرر من تلك الزوجة ويتزوج ايليا .

فانتشى الحاج بهاء برغبة الخواجه انطون أن يدخل في دينه واعتبر ذلك كله وشائج قرابة ومودة . سوف تغني شركتهم وتزيد ثمارها .

ولم يمهل بعد العشاء للراحة فغادرا البيت معا يسبقهما

التوابع بالكلوب لانارة السكة فى دروب أدفو وشوارعها الضيقة  
المتفرقة ، حيث يقيم الشيخ .

كان قائما يصلى وخلف ظهره مبخرة تملأ الغرفة الساقط  
جيرها عن الجدران ، بدخان كثيف الرائحة فأمرهم تابعه أن ينتظروا  
ساكنين حتى ينتهى من عبادته ، فانتظروا ٠٠ فأتقوم يجيئون ٠٠  
عظماؤهم وصعاليكهم من فجاج الارض قاصدين الشيخ ، فيخبرهم  
بمجرد دخولهم بأسباب مجيئهم دون أن ينطقوا بها ٠٠ ويخبرهم برده  
قبل أن يطلبوه ٠٠ ويستطيع أن يخبر عن المريض والسارق ،  
والغائب له سنين يمكنه أن يطلعهم على مكانه دون أن يعرفه ٠٠ وحين  
انتهى من عبادته نظر الى الحاج بهاء معاتباً وقال ان شغلتهم التى  
جاءوا لها ليست عنده ، وان لها طقوساً وقواعد يجب أن يتبعوها  
تبدأ عادة بطلب يقدمه الحواجة انطون الى أية محكمة .

فاعتذر الحاج عن ازعاجه للشيخ ، وقبل يده ٠٠ فربت على  
رأسه وابتسم للحواجة انطون مشجعاً .  
وفى الصباح ذهب الى المحكمة فقدم انطون طلباً برغبته فى  
الخروج من ملته ، فأخبروه أنهم سيرسلون الى البطرخانة يسألونها  
٠٠ قبل أن يوافقوا ٠٠ وان البطرخانة سترسل له واعظاً من القسيس  
يتولى اقناعه بالعدول عن رغبته ٠٠ فان لم يكن جاداً فسوف يخبرهم  
القسيس بذلك ٠٠ وبعدها يوافقون على طلبه .

اجراءات طويلة ، ومعقدة نوعاً ، واستغرقت من الزمان أسابيع  
وشهوراً ، مشى فيها الحاج بهاء باخلاص متحمس مع الحواجة أنطون  
٠٠ وذهب القسيس الى انطون فى برانيس ٠٠ رحلة لطيفة قام بها  
من قبل البطرخانة ليتولى اقناع ذلك الراغب فى تغيير ملته واعتقاده  
٠٠ وهو يعلم يقيناً أنه لا الملة ، ولا الاعتقاد ، سيكون لها دخل فى  
الامر ٠٠ وأغلب الظن كما تعود ٠٠ سيكون خلف الامر امرأة  
وربما تهريب ، ميراث أو غيره ٠٠ وأستعذب رياح الصحراء الجافة  
تملاً ثيابه السوداء الفضفاضة على ذلك الشاطئ النقى الذى يشبه  
شواطئ الجنة التى يبشر بها ، واستلطفت روحه ايليا ، وهنا أنطون  
الخارج ، فى دخيلة نفسه عليها ٠٠ وحاول باخلاص معتاد أن يجادله  
ويحاوره وهو موثق أن جدله وحواره ذاهبان هباء فى مواجهة تلك  
الجنة التى تبدو وكأنها قد نبتت من تلك الطبيعة نبتاً ٠٠ ورحل

القسيس ليرسل تقريره الى البطرخانة فتحوله البطرخانة الى المحكمة  
٠٠ فترسل المحكمة الى الخواجه أنطون تطلب حضوره لتوافق على  
طلبه ٠٠ وذهب معه الحاج بهاء ليشهد نطقه للشهادتين واجراءات  
اسلامه ٠٠ ثم عاد به الى الصمحاء راكبا جملا . يسبقهما رجال  
المنجم وبعض البدو يحملون أعلاما وبيارق ويدقون دفولا وينشدون .  
وأقيمت الزينات فوق البيوت الخشبية وحول المغارة ٠٠ ونصب  
الرجال الاعلام والاضواء على الاعمدة الخشبية في سطح الجبل ٠٠  
وذبحت العجول لفقراء الجبل ومتشرديه ٠٠ بينما جاء شباب البشارية  
بسيوفهم الصليبية القديمة ودرقاتهم . ومضوا يملأون المكان  
برقصاتهم وأهازيجهم ٠٠ بينما كان الشيخ على والحاج بهاء واقفين  
على باب المغارة . يطلقان الرصاص في الهواء تيمنا وبركة .  
ولم يلحظ أحد في ذلك الليل الخلوى ، تلك الصقور الجارحة  
التي جذبتها رائحة الذبائح وفضلاتها . فأخرجتها من مكانها البعيدة  
في قمم الجبال المجاورة .  
جاءت تحوم من بعد ٠٠ تنتظر من القوم غفلة أو هدأة ٠٠  
لتنقض من عل انقضاضة واحدة مفاجئة وموفقة . ترتفع بعدها وهي  
تحمل في مخالبها رؤوس الذبائح أو أقدامها !

وهكذا تزوجت ايليا عبد الله الذي كان اسمه أنطون ، أو  
الخواجه عبد الله . كما صار اسمه عند بدو الجبل .  
وبعد أن كانت فتاة الجبل وجنيته الساحرة ، وزهرته الإفطرية  
المستوحشة أصبحت سيدته وملكته ٠٠

لقد أفقدها صاحب الجلالة براءتها وطفولتها ٠٠ فأصبحت تحمل  
نفسية ملكة عن اقتناع ٠٠ تطور طبيعى لاحتساسها الملكي خلال  
الطفولة ٠٠ عريها الحر المتعالى ، كنبته اثوية باهرة بين تلك الصخور  
العارمة الخشونة .  
وهكذا ببساطة أمكنها أن تسلب الخواجه عبد الله صوابه فتقوده  
كطفل لها ٠٠ !

وكان نيكولا غائبا طوال النهار في قلب الجبل مشغولا بالحفر  
المتصاعد في بئر التهوية . فتولت هي شئون المنجم الخارجية ، وأدارتها  
بجدارة مكتسبة من خبرتها معه .  
وفي الامسيات ، وحين يلتقون على مائدة العشاء التي تعدها

ايليا فى الشرفه الزجاجية المطله على باحه المنجم ، بعد أن يقتسل  
نيكولا من تراب الحفر وغبار التلك ويرتدى سترته الليلية ، يلاحظ  
نيكولا أن جسد ايليا يسرح فى الامتلاء بطريقة غير عاديه ، فيتأمل تلك  
الملاحظة أياما وأسابيع ، حتى يتأكد له أن ايليا حامل .. فيحسب  
المسألة بأيامها وشهورها الى أن يدرك نهائيا انه لا دخل لزوجهها فى ذلك  
الحمل ، فاعتكف فى غرفته .. !

وقع الامر على عقله وقوع اللطمه فلم يكن ذلك فى حسبان  
قط .. لقد أثم وتلقى عقابه عن ذلك الاثم بروح شجاعه ولم يتذكر  
أن للاثم بذرة قد غاصت فى اللحم العميق المظلم ، لتسقى بالدم وتثمر  
كائنا حيا يطارده باللعنة ابد الدهر !

وامتنع عن النزول الى المنجم .. وامتنع عن الخروج من غرفته  
التي يعتكف بها فدخل عليه أنطون باشا ، ودخلت عليه ايليا ، لكنه  
كان يقابلهم بالصمت ، كان يحملق ، وترتجف شفاته ، وتهتز الجدران  
الخارجية لحنجرته كأنما يرغب فى انكلام لكنه يعجز عن النطق .  
ولاحظوا ضيقه الشديد باقتحام عزلته ، فلم يعد يدخل عليه  
أحد سوى ايليا .

تدخل بافطاره فى الصباح ، ثم تدخل بالغداء فى الظهر ..  
فتجد طعام الافطار كما هو لم يمس !  
وفكرت فى احضار طبيب من القاهرة .. وحين أراد الطبيب  
فحصه انفجرت ثوره نيكولا وطرده من غرفته ، ورأى العبايدة الذين  
كانوا يفرزون التلك ويكومونه فى جانب الباحة المخصص للتخزين ،  
ذلك الطبيب الضيف يخرج مهرولا ويتعثر على سلم الكباين ، ويسقط  
فى الرمال أمامهم ، بينما تلاحقه من غرفة نيكولا ، حقيبتيه بأدواتها  
الطبية ، وفازة للزهور ، وبعض الاحذية !

ودخلت اليه ايليا فاحاطته بذراعيها حانية مهدئه ، لكن نيكولا  
نفضها عنه ومضى فى الغرفة يروح ويحيى كأنما يعصف به الم  
لا يحتمل ، وفجأة توقف وأمسك بمعصمها فأوقفها قبالته .. ومضى  
يحدق فى عينيها بجزع .. ولانت نبراته حتى وصلت الى حد التوسل  
وهو يطلب منها أن تتخلص من حملها .. فدهشت ايليا ، واخبرته  
برغبة زوجها فى الاحتفاظ به ، فانفجر صارخا ومضى يسبب شريكه  
ويلعنه !



وصحا نيكولا قبيل الفجر بساعتين ، على أصوات يحملها من بعيد ليل الصحراء الرقراق .. لعل روحه القلقة المنتبهة فلا تهجع ولا تسكن ، هي التي انتقطتها أولا قبل أذنيه .. فمضى يتسمع مغمض العينين ، فتبين أهازيج غنائية ممطوطة الايقاع وحزينة .. ففتح عينيه مستجمعا انتباهه الكامل حين أدرك أن أتباع أبي الحسن الشاذلي قد بدأت طلائعهم تهل على الصحراء في موسمهم السنوي لزيارته .

وانقلب على ظهره في الفراش متوترا ، وقد استتارت تلك النغمات الممطوطة الايقاع شغفه الداخلى الى طمأنينة الروح ، وسكينة القلب .. ثم مد يده فأضاء النور ونظر في ساعته ودخل في بنطلونه وقميصه متعجلا ، ودس قدميه في خفه الجلدى .. ثم غادر بيته الحشبي ومضى عبر الباحة تجاه فتحة المنجم حتى دنا منها وتجنبها ، وصعد متسلقا وقد ازدادت تلك الهازيج الغنائية عبر الليل وضوحا واقتربا .

ها هم ، أتباع أبي الحسن ومريدوه والمتعلقون به ، يحجون اليه حجتهم الصغرى .. يقدمون اليه في ذلك الموعد من كل عام .. من فجاج الارض ومسالكها المتباينة ، يعجب نيكولا لتباينهم الشديد كتباين تلك الطرق التي يسلكونها .. فمن عمال ورعاة وبدو وأثرياء ريفيين ، الى أفندية وأطباء وقضاة وأساتذة ووزراء .. من كل أرض فيها مسلمون ، يجيئون قاصدين تلك البقعة في صحراء الشرق الى ذلك الوادى المسمى عيذاب .. فى مواجهة مكة على البحر حيث توجد كعبة المسلمين .. فيتخلقون حول ذلك البناء الصغير المتواضع فى صحن الجبل الذى يحيط بالوادى ، ويلقون بأهازيجهم وغنائياتهم على قبة ضريحه المستديرة التى تعشش انصافير ، ويالللغابة فى ثقبها .. فمن المصحراء يا ترى بالانصافير ؟

أهى معجزة من معجزات هذا الرجل أبى الحسن ، الذى تغل قبل موته فى جرعة ماء من تلك البئر المرة ، المجاورة لقبته ، وأمر أتباعه بإعادتها الى البئر ، فصار ماء البئر عذبا مستساغ المذاق .. ؟ يصعد نيكولا فى الصخور ويصعد ، كأنما روحه القلقة تدفعه ، وتحمله مع خبرته بمسارب الصخور ونتوءاتها ، متسلقا الى قمة الدرهيـب العظيم ، حيث يمكنه من ذلك الارتفاع الشاهق أن يطل على

الناحية الاخرى من الجبل ، على الطريق المتتوية القادمة من عتبات جبل الحفافيت ، تحمل على صخورها الحادة والمدببة ، عربات هؤلاء القوم تجرها الجياد والجمال محملة بانديق والحلوى ، وماشية التضحية . . ومحملة بشوقهم وحماسهم ، ولهفتهم الظائمة الى لقاء الرجل الندى مات منذ سبعمائة سنة !

وقف بيكولا هناك وحيدا فوق قمة الدرهيبي ، يحيط به الليل الرقراق المضاء بملايين النجوم الشديدة اقرب والمتناهية في البعد في نفس الوقت وأخذ يفكر . . هاكم رجل غادر وطنه وجاب الارض زاهدا ، فنما خلال الترحال ، وأمكنه أن يخلص جسمه البشرى من أثقال بشريته ، فسما به وشف حتى أمكنه التحليق في الطريق الى الله . . ويؤكد اتباعه ومريدوه انه وصل اليه .

أبو الحسن الشاذلي . . ذلك اسمه المدون بخط عربى ركيك على حائط مقامه الاخير تحت تلك القبة الصغيرة المتواضعة التى تحوى فى ثوبها مئات من أعشاش العصافير ، حيث لا توجد فى الصحراء عصافير ! . .

كان يقول « أتريد أن تجاهد نفسك وانت تغربها بالشهوات حتى تغلبك . . الا فقد جهلت ، فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة . . فلا تكن كالعليل يقول لاأتداوى حتى أجد الشفاء ، فيقال له لا تجد انشفاء حتى تتداوى ، بالجهد ، ليس معه حلاوة ، ما معه الا رؤوس الاسنة . . فجاهد نفسك . . هذا هو الجهاد الاكبر . . » .

فكيف لك الآن أن تجاهد نفسك يانيكولا وما كان قد كان ، وبدوره قد أثمرت وبدأت تفرخ . . وسينتصب لك على وجه الارض كيان من لحم ودم يمشى ويجسرى ويصيح ويصرخ مؤكدا ائمك وخطيئتك . ؟ .

قالت له ايليا : جئتك بولد يانيكولا ليكون ظريفا ويسليك ، ويجعلك جدا . . !

كانت قد ولدت طفلها فرفض رؤيته . . قال فى نفسه : يا شؤم ماجئت به يا ايليا . . ولدا يجعلنى جدا وأبا فى نفس الوقت !

فكر فيكولا فى وقفته المشتاقة الظائمة تلك ، لو يلقي بنفسه من قمة الدرهيبي الى عربة من عربات هؤلاء المريدين والاتباع التى تحمل زاهم وهداياهم الى شيخهم الصوفى فى عمق الصحراء . .

فيحملونه معهم اليه ، ليقدم الذبائح على جدران ضريحه في الفجر ،  
ويقفز في الهواء متطوحا في حلقات الذكر التي تقام حوله ، فينفض  
عن قلبه همومه ويلقى عن روحه أثقالها .. ويتخفف .. فيصبح  
حرا من الائم والخطيئة .. حرا من جسده البشري .. لكنه شعر  
بأن ذكر الدنيا كله . لو شارك فيه متطوحا فلن ينفض عن روحه  
المذنبه أثقالها ، ولن تجديه الذبائح ولن تغسل دماؤها خطيئته .  
وكان الفجر ما يزال جنينا في بطن الافق حين استقر نيكولا  
على قراره واعتنقه متشبثا به .. ثم أخذ يقتات عليه وهو يهبط  
الجبل مسرعا غير عابئ بالصخور التي تغرس أسنانها في مداسه  
الجلدى .. وحين هبط الى الباحة أخذ يعدو فتجاوز كابينته الى  
كابينة الزوجين انطون وايليا .. صديقه وابنته .. فمضى يتسمع  
الى الجدران الخشبية وهو يدور حولها .. حتى استقر تحت نافذة  
ايليا .

واطمان الى الصمت فلا صوت ولا حركة .. فمشى الى النافذة  
المجاورة وارهف اذنيه .. حتى الطفل أيضا كان ساكنا .

وأمسك نيكولا انفاسه اللاهثة وهو يستدير الى سلم الكابينة  
وصعد .. وقد خلع خفه الجلدى ثم اجتاز غرفة الزوجين الى غرفة  
الطفل الملحقة بها وأمسك بمقبض اباب وقد خشى أن يكون مغلقا ،  
لكن المقبض قد دار في يده فسارعت دقات قلبه . وتسارع لهائنه .  
ومضى متسللا في الغرفة المظلمة يتحسس طريقه الى فراش  
الطفل حتى اهتدى اليه فمد يديه وحمله محاذرا أن يوقظه .. ومضى  
متسللا الى الخارج كما جاء .. وهبط سلم الكابينة محاذرا حتى  
لمست قدماه العاريتان الرمل والحصى . فانطلق يجري مغادرا الباحة  
وعبر ساحات التخزين الى منفذ الجبل الخارجى المؤدى الى انصحراء ،  
وكلما اجتاز مكانا زادت سرعته كأنما يخشى ان يلحقوا به .

حمل نيكولا ثمرة خطيئته النابضة بالدم في اللحم الصغير  
اللزج وأخذ يجري مهرولا على حصى الباحة الاحمر الذى ذاب  
احمراره في رمادية الفجر الطامع على الكائنات .. حتى خلص من  
المنحدر الطويل المفضى الى المدق العام ، الذى مهدته العربات والجمال  
وأقدام العابرين فى الصحراء قادمين الى الدرهبب أو عابرين به .  
وكان المدق خاليا ، فمضى نيكولا يتلفت يمينا ، ويتلفت

يسارا ، ثم نظر الى اللفافة التى تشدها قبضته الى صدره بقوة ..  
فغير المدق أمامه تنتصب ذؤابة جبلية مدببة الصخور تماثل من  
الدرهيب نصف الارتفاع أو أقل قليلا من النصف ، وراءها لو  
عبرها ، بحر الرمال الواسع اللامتناهى حيث تموت جوعا فى  
امتدادها الوحشى عشرات الذئاب يوما بعد يوم ، فتتغذى على جيفها  
عشرات الضباع انى لم تمت من الجوع بعد .

وعبر نيكولا المدق متحمسا ، ونوقف أمام الذؤابة الجبلية  
يلتمس لاقدامه مصعدا على صخورها ، وقد أخذ يشدد قبضته التى  
نضم لفافة الطفل الى صدره بينما يتسلق الصخور بقبضته الاخرى  
ولا يدري نيكولا كم من الوقت مر به حتى وجد نفسه أخيرا فوق  
الهيضة الصخرية لهذا الجبل انصغير . على مكان ممهد أشبه بالشرفة  
يطل على بحر الرمال الساكن فينقبض قلبه لسكونه الرمادى الموحش  
وتناهى الى اذنيه عواء الضباع يحلل ذلك السكون فاهتز من داخله  
وارتعب وكان يشعر بساقيه تؤلمانه وترتجفان .. وكانت الريح  
باردة فوضع اللفافة على صخرة واقعد صخرة أخرى . ومضى  
يتحسس ساقيه ويدلكهما فاكشف انهما تؤلمانه أكثر ، وقد مزقت  
الصخور التى تسلقها ملابسه ، وجرحت ساقيه وقدميه حتى  
أدمتها .. فأراح ظهره على الصخرة التى اقتعداها ومضى يلتقط  
انفاسه .. وعيناه على اللفافة حيث وضعها .. ولده وحفيده  
وخطيئته .. وقد بدأ يدهشه ويريبه ان الطفل لم يبك بعد ، فأسرع  
الى اللفافة يفضها بيدين ترتجفان وقلب واجف ، فطالعه لأول مرة  
وجه الثمرة النابتة من الذنب فمضى يتأملها .

كانت العينان مغمضتين والكتلة اللحمية الصغيرة ساكنة فزاد  
عجبه ، فصراخ تلك الكتلة اللحمية ظل يخترق اذنيه عبر الجدران  
الخشبية الفاصلة بين كابينته وكابينة ايليا ، طوال الليالى الماضية  
منذ وضعت حملها .. صراخا طفوليا رفيعا ومدببا كان ينفذ فى عقله  
ويوخزه .. فما بالها الآن ساكنة ؟ .

وأخذ يهز اللفافة ، فراعة ان العينين ظلتا مغمضتين ، والكتلة  
اللحمية بقيت على سكونها .. وكانت حركتها تدغدغه وتحرق  
أعصابه ومشاعره بينما هو يفر بها من الكابينة عبر منحدر المنجم  
الى المدق . اتراه قد شدد قبضته على اللفافة بينما يهرب بها ، حتى

قتل الحركة واماتها وهو يتسلق تلك الهضبة الصخرية وينفذ من  
صخورها . ؟

وابتعد نيكولا وهو يحدق بعينين متحجرتين في المفاة  
المفتوحة على الصخرة . يتوسطها الطفل الساكن وقد انحدرت  
ذراعه ارفيعة حتى لامست برودة الحجر ، وبرزت ساقيه الضئيلتان  
في العراء .

وسمع بأذن خياله عواء الضباع المتزايد ، في بحر الرمال  
الساكن . يتجسد فيصبح وحشا زاحفا على الصخور ، ليخطف  
بانيابه هذا الطعام المباح .

ورأى بعين خياله ، صقرا جارحا من تلك الصقور البنية  
الريش الصفراء المناقير ، يحوم في السماء دائرا في دائرة متسعة ،  
مرة ، ومرتين ، وثلاثا . دورانا يتزايد انخفاضه في كل مرة تمهيدا  
للاقتضاض فيحمل في مخالبه تلك الفريسة المطروحة حالالا له .  
فيرفعها في السماء ، قرباز شفاعة من نيكولا وتوبة !

فالقى بنفسه بين انه خور منه ذراعا هابطا الهضبة بأرابع وهو  
يخفي وجهه بين كفيه .





## الفصل الخامس عشر

صحت ايليا فى الموعد الذى اعتاد طفلها ان يوقظها فيه طالبا طعامه يبكائه .  
وتفقدت البكاء وهى ماتزال فى فراشها فلم تسمعها ، فنهضت منكاسلة ، وغادرت الفراش وهى تتأبب . . وأخذت تعد للطفل رضاعته المعتادة . ن تلك العلب الفاخرة التى أهدتها اياها ايليا اكبرى امها . . وبينما كان الطعام ينضج على النار غسلت وجهها ونظرت الى أنطون الذى يغط فى فراشة المجاور لفراشها ولوت شفتيها مشمزة نافرة ثم عبأت الطعام للطفل فى زجاجة رضاعته بعناية غير مدربة ، وحملته الى غرفته فما كاد بصرها يقع على الفراش حتى فوجئت بخواته من طفلها . . بهتت لحظة ومضت تتلفت فى الحجرة هنا وهناك كأنما كان ممكنا لذلك الرضيع ان ينتقل من رقدته . . حتى ادركت اختفاءه فأثقت ما بيدها واسرعت الى فراش زوجها ومهت تهزه حتى أيقظته فنهض مفزوعا وجرى الى الفراش الخاوى ليتأكد بنفسه من صدق ما أخبرته . . وقد فوجيء ايضا باختفاء طفله الملكى فجرى مسرعا الى كابينة نيكولا ، فوجد فراشه

خاويا ، فاستدار الى ايليا التى لحقت به واكد لها ان نيكولا هو الذى فعلها . !

وكان الشروق قد جلل الجبل بضوئه الذهبى ، وبدأ شغيلة المنجم ينهضون من رقادهم المضمنى ويشعلون نارهم تحت الشىء الاسود وحبات الفول المتصلبة حينما شاهدوا الحاجة عبدالله يهبط سلم الكابين مهرولا تجاه خيامهم فى بيجامته الحمراء المخططة بالأزرق اللامع ، والابيض اللامع ، فأدهشهم مشهده المضطرب ، كما ادهشهم نزوله المبكر هذا ، وضمنوا ان شيئا غير عادى قد حدث .

وافتحم فطورهم الصباحى وهو يلقي اليهم بأوامره المهتاجة ليبحث بعضهم عن نيكولا داخل المغارة بينما يذهب البعض الآخر لتجهيز السيارة الجيب واحضارها .

وقد عاد الذين ذهبوا الى المغارة وحول السفوح القريبة من فتحة المنجم ليخبروا بفشلهم . . وجاءت السيارة فركبها انطون وحشد فيها مااستطاعت أن تحمله من العباددة ، وانطلق بها عبر المنحدر الهابط من باحة المنجم الى الصحراء وراء نيكولا وطفله الملكى بينما بقيت ايليا ، تتطلع الى الشروق يوشى أطراف السماء بأوشيته المذهبة . . وتفكر فى شعورها . . كانت منزعة . . لكن انزعاجها مشوب بالهدوء ، كأنما هو نوع من الاستسلام والتسليم بما حدث يتوافق تماما مع شعورها الاول الذى رفض هذا انطلق المزروع عنوة فى احشائها .

ولم يكن شعورها الطفولى قد انضجته الامومة بعد . . فما زاد الامر بالنسبة لها عن قدر هائل من الالم تحملته وهى منطرحه على ظهرها بينما يدا طبيب امها الايطالى المدرب يجذب من احشائها تلك الكتلة المحمية المزجة . . التى قيدتها بمجموعة من الواجبات لاطعامها وتنظيفها . . وما كان اسرعا الى النفور والضيق حينما يصحو الحاجة عبدالله فيبدأ برنامجه اليومى فى مراقبة الطفل ، وملاحقتها للاهتمام به .

هذا الحواجه عبدالله نفسه ، الذى لا تشعر تجاهه بغير شعور اواجب وشعور الندم . . فقد أدركت بوضوح فى تلك الليالى التى بللها خلالها بلعابة وعرقه ، انها استجابت لأنعوبة غير شريفة قامت بها السيدة اقبال هانم ، فألقت بها برضاها وموافقتها . . فى زيجة غير متكافئة . . !



وعندما جاءها فى الظهيرة والقى تحت عينها بلفافة الطفل ممزقة غارقة فى الدماء ، صرخت مفزوعة واخفت عينها بكفيها الموردين . . كانت نفسها مهيأة لضياح الطفل ضياعا معنويا لم يرسم له خيالها شكلا من الاشكال المادية . . فلم تكن مهيأة لرؤية الدم . . فصدم لونه روحها الشفافة . فدخلتها البشاعة . . وانهارت فوق فراشها تبكى .

فندم على تهوره . . اذ القى باللفافة الغارقة فى الدم تحت عينها بشعور المحقق المغيظ الذى فقد فى لحظة خاطفة ، أهم ما يملكه ، دون أن يتمكن من الدفاع عنه . !  
لقد أنطلق بالسيارة المعبأة بالعمال والعبادة ، حتى خرج من منزلق الباحة الى المدق العام ونزل خيرالله ، أحسن من يقتفى الاثر من عبادة المنجم ، الى المدق ، ومضى يتشمم ترابه وحصاه ويدقق فيه النظر . . ثم أشار لهم أن يتبعوه ، ومضى يقودهم حتى توقفوا أمام الدوابة الجبلية . . ولم يعد ممكنا للسيارة ان تواصل المسير فغادروها وقفز من تمكن منهم من خلف خيرالله يتسلقون الدوابة حتى اعتلوا قممتها ووقفوا على الشرفة المساوية التى قدم نيكولا قربانه الدموى فيها . . وشاهدوا فئات لحم على الصخور . . وشاهدوا آثار أقدام جبوانية مطبوعة أطرافها ومخالباها بالدم . . وشاهدوا اللفافة الممزقة التى غرق بياضها فى اللون الاحمر القانى . . نكسوا رؤسهم وهم يجمعونها ويطوونها .

واخذ بعضهم يلتمس بعينه نيكولا فى ذلك الفراغ الصحراوى المترامى البعد ، من هذا الارتفاع المناسب . . وهز بعضهم رأسه ، وهو يلوح تجاه بحر الرمال الخطير والمخيف ، مؤكدا ان نيكولا هناك الآن .

ألم يسبح بنفسه منتحرا من قبل ، بين انياب سمك القرش فأنقذوه ؟ فما الذى يمنعه اليوم من فعلها ؟ .  
وواصلوا الهبوط حاملين اللفافة ، لينقلوا المخواجة عبدالله المنتظر تحت الدوابة فى السيارة نتيجة بحثهم . . فلطمته تلك النتيجة . . وتمنى لو أن نيكولا قد أغرق نفسه الشريرة والشيطنانية فى بحر الرمال فعلا .  
وكان أبشر قد خالجه الشك فى أن يكون نيكولا قد كرر فعلته . .

فالقنع خير الله بالبقاء للتأكد بتقصى الاثر . . وهكذا بقى الانسان يتشممان حواف الشرفة الصخرية ، ويدققان النظر فى صخورها فراعهن ان رائحة الوحش الكريهة ، قد أمتزجت برائحة الدماء وملأت المكان ونفذت فى مسام صخوره ، وأصبح مستحيلا أن يشموا فى التراب ، رائحة نيكولا . حتى الحصى ، الذى بقى لهم كامل ، يتبينان من حركته وسكونه خطوات نيكولا ووقع أقدامه ، أكتشفوا أنه قد فقد استقراره ، وانه كان عرضة لعديد من الاقدام الحيوانية ، لابد قد تصارعت فوقه صراعا همجيا ودمويا قلب نظامه وسكونه . .  
واخفى الى الابد ، خطوات نيكولا ! .

لكن أبشر لم يفقد الامل .  
دائما أبشر .

فى البحر . حيثمالقى نيكولا بنفسه ومضى سابحا الى كهوف القرش العميقة ، كان أبشر هو الذى صرخ ، هو الذى جمع الرجال لانقاذهم .

تقدم من ايليا وقال انه لم يبق أمامهم سوى الصراخ فى البئر ، تلك عاداتهم القديمة ، لمعرفة مصر الغائب . . فليبحثوا الآن عن بئر قديمه ولتعلن ايليا وتصرخ فيها باسم نيكولا ، فان جاءها صدى الصوت ، كان نيكولا حيا . . وكان موجودا . . وان صمت البشر وابتلع الصراخ دون رد ، يكون نيكولا قد انتهى فعلا فى بحر الرمال الخادع .

فظرت ايليا بلهفة داخل عيني أبشر ، كأنما تقرأ فى هاتين العينين السوداوتين ، دخيلة أبشر المؤمنة بوجود نيكولا وحتمية بقائه .

ومالت بنظراتها متأملة فى كيان أبشر البدوى كأنما تكتشفه لأول مرة . . وكانت تشعر بحرارة القرب منه فى مقعد السيارة وهو واقف على مسافة يمكنها من خلالها ان تستمع الى قلبه وهو يدق . هذا هو أبشر رفيق طفولتها ، وصاحب لهوها وعيبتها على صخور الصحراء ورمائها . . ورفيق جديتها ومسئوليتها حينما بدأ نيكولا ينشئ على الجبل مدينته .

أصبح مرأه مألوفاً وعاديا بالنسبة لها . . فما بالها الآن تتلمس بعيونها دخيلته وتبحث فيها ؟

كانما تلك الروح القديمة لثائر الصحراء الرومانسى أيسا .  
نطل عليها الآن كما أطلت على أبيها من قبل من خلال هاتين العينين  
المركبتين فى جسد الابن . . !

وطلبت من الجميع أن يصعدوا الى السيارة ليعتصروا عن بئر . .  
وقفز أبشر الى عجلة القيادة بجوارها ، وأدار السيارة مسددا عينيه  
الى الطريق الوعرة ، مجنبا عجلاتها أسنان الصخور وأحواها المدينة  
منحدرا على المدقات وصاعدا معها . ودار حول الدرهب صاعدا الى  
جانبه الغربى . . حيث لاحت لهم على البعد تلك البئر المهجورة  
المشؤومة التى كان قد خيل لهم أنها قد ذهبت فى النسيان بفجيعتها  
وشؤمها ، وجث الرجال الثلاثة . أيسا ورفيقه ، الذين اختفوا فيها  
بينما يحاولون تطهيرها حينما كان تشغيل الدرهب فى أوله .

وأوقف أبشر السيارة حين لم يعد ممكنا لعجلاتها أن تجتاز الصخور  
التي ضاقت حولها فغادروها ومضوا يصعدون خلفه ، وقد عادت الى  
ذاكرة الرجال عشرات الثعابين تسعى حول الحافة ، صاعدة هابطة ،  
تفح وهى تدور وتلتف . . ولكن الحافة الآن كانت خالية ، ولا أثر  
للثعابين فيها ، وكانت قطعة الصاج القديمة التى غطى بها الشيخ  
على فوهة البئر على الجث الضائعة ، ما يزال جزء منها باقيا ، بينما  
تأكل الجزء الآخر وتهرأ والتوى ، فتقدم أبشر وهم ينقلون أقدامهم  
خلفه على الحصى بحذر ، وكانما يخشون أن تخرج عشرات الثعابين  
من ذاكرتهم وتسعى بين أقدامهم ! .

ومد أبشر ذراعيه المفتولتين فأزاح قطعة الصاج جانبا واستدار  
الى ايليا وسألها ان تتقدم وتلقى فى الفوهة بصراخها ، فلتصرخ على  
نيكولا وتناديه بما اعتادت من قبل ، ان تناديه به . . فأقتربت ايليا  
تجاه الحافة ومالت بجسدها ليصبح فمها موازيا للفوهة . . بينما  
أمسك بها أبشر من وسطها لتطمئن فى ميلها ، وأمسك باقى الرجال  
به من وسطه ، وتأهبوا للبدء فصاح بها أبشر أصرخى الآن يا ايليا ،  
من قلبك المتلهف على نيكولا ، القلق عليه ، أصرخى باسمه فى البئر  
فاستجمعت ايليا قواها ووطدت قدميها على الحصى ، وصرخت باسم  
نيكولا فى الفوهة . . لكن لم يخرج من فمها صوت . . فأوقفها أبشر  
لثقل أنفاسها ، ثم عاودت الانحناء وأمسكها من وسطها وأمسك  
الرجال به . . وصرخت ايليا باسم أبيها ، فاندفع الاسم الى الفوهة ،

لحظة قصيرة جدا توازى عمرا بأكمله استغرقها اندفاع الصوت عبر الفوهة الى قاع البئر أمسك الجميع خلائها بأنفاسهم . منتظرين ان يتردد الصوت ويعود اليهم ، أو يموت فى الصمت . . لكن الاسم ما كاد يحتاز الفوهة حتى بدأ يتردد صدها فى المدى العميق الموصل الى القاع ثم يتصاعد اليهم سريعا متلاحقا وكأنه ألف أسم القيت فى البئر فرقصت الفرحة فى قلوب الجميع ، بينما ايليا لم تتمالك نفسها وعادوت الصياح بالأسم ، فكانما الصدى هو نيكولا نفسه الذى تنادى عليه . وقد أجاب نداءها .

وعاد صوتها يتردد متصاعدا اليهم بآلاف الاسماء من قاع البئر وأبشر يجذبها من وسطها ليهدى من انفعالها . . فلم تتمالك نفسها واحتضنته . . واخذت تسأل ملهوفة عما يمكن عمله من بعد . . فأحنى أبشر وجهه وهو يسحب جسده الاسمر من بين ذراعيها اللؤلؤيتين وقال ان نيكولا موجود الآن فى مكان ما من هذه الصحراء الشاسعة . . وليس أمامهم من سبيل سوى البحث عنه .

وفتحت الصحراء قلبها لهذين المونين . . الاسمر والاشقر معا ، أبشر وايليا . . كما فتحت من قبل لايسا ونيكولا ، كانما لا يتطرق اليأس الى قلب المكان ابدًا ، فيعاود بين الحين والحين نفس التجربة مع البشر ، ويكررها ! .

وانفتح الطريق أمام العربية الجيب التى تحملهما سهلا وميسرا الى الشيخ شاذلى . . لعل نيكولا قد لجأ بعد فعلته المشؤمة الى ضريح ذلك المؤمن الميت من سبعمائة سنة يغسل فى بئر المعجزة هذه ، همومه الغامضة الدافينة التى لم تستطع حتى ايليا ، أن تسبر غوره اليها . . لكن الضريح كانت خالية الا من مئات الصقور تحوم على الهضبات كأنها تحتفل بموسمها السنوى ، ثم تنقض فتختطف بمخالبها من الارض بقايا الاحتفال الذى كان قائما وانفض برحيل الاتباع والمريدين والزوار . من أقدام ماشية التضحية وأحشائها .

وكان العم جامع ذلك العجوز القديم الذى تجاوز بعمره عشرة أعوام بعد المائة . . ما يزال قابعا بطريقته المعتادة على فخذ ونصف كأنه مشرب ، ليرى بأذنيه ، بعد ان فقدت عيناه قدرتهما على الرؤية مواصلا ما يتشددق به على الناس ويفاخرهم بحراسته لمقام الشيخ العظيم الراحل فى تلك المتاهة اللامتناهية . . بينما هو فى الحقيقة يحتمى به . . !

ولم يكن لنيكولا فى المكان أثر .  
ومرقت بهما السيارة فى دروب الصحراء عبر تلافيف الجبال ،  
يطوفان بالمناجم المتناثرة على مسافات هائلة يسألان سائقى عرباتها  
وقادة جمالها عن نيكولا ، فلا يحصلان اجابة شافية ، حتى الرعاة  
فرسان الصحراء ، الذين يجوسون حفاة بين صخورها ورمالها شبرا  
بشبر ، لم يسمعو نيكولا ، أو يشاهدوه ، منذ آخر مرة استضافهم  
فى الدرهبى وحملهم بالماء والخبز ؟

وفى الطريق كانت ايليا ، تستمد من الاجابات المؤسفة صلابة  
وقوة ، فيمضى بها الخيال المثقل بالحوادث وهى جالسة مستكينة  
لتلك الطمأنينة الحارة الغامضة المنبعثة من أبشر ، فتشعر بروحها  
تضطرب فى داخلها ويسيطر على قلبها يقين أشبه بالوحي ، انها  
لو غاب نيكولا فسوف تواصل فى الصحراء ما بداه ، الا يكون ذلك  
السحر النفاذ المبهم الذى سيطر على روح نيكولا فى الزمن القديم  
وهو يتطلع فى عينى ايسا ، صنو هذا السحر النفاذ المبهم الذى  
يسيطر على روحها الآن وهى تتطلع فى عينى أبشر . . ؟

ومدت ايليا فجأة اصابعها البيضاء الرخوة ، ومست بأطرافها  
وجه أبشر الاسمر ، ومضت تتحسس بشرته الملساء فالتفت اليها .  
وأعاد أبشر وجهه الى ما كان عليه مادا عينيه الى الطريق بعد  
ان ربت بهما على وجه ايليا . . وجذبت بصره على البعد بقعة تتحرك  
فمد عينيه تجاهها واطلقها فتبين أن البقعة رجل . . وكان قد أوقف  
السيارة على حافة وادى الخريط الممتد لمسافات هائلة متراسة فيها  
كثبان وراء كثبان من الرمال الناعمة . . فأدهشه أن يجوس فى هذه  
الكثبان رجل . . وانتفض قلبه ومضى يدق بسرعة وأمسك بكتفى  
ايليا وأشار لها بأصبعه تجاه البقعة المتحركة . . فمضت ايليا تدقق  
البصر وتساءلت أيكون نيكولا هو الضائع فى تلك الكثبان الهائلة ،  
فقفز أبشر من السيارة وصاح بها أن تتبعه ليتحققا . .

ومضى يسبقها قافزا حافة الوادى وهى تهول خلفه منتزعة أقدامها  
الدقيقة التى تغوص فى الرمال حتى اقتربا اقترابا كافيا من الرجل  
يسمح لهما بتبين ملامحه ، فتوقفا مبهورين عاجزين عن التقدم خطوة  
وعلى مرمى حجر أمامهما كان عبد ربه كريشاب ذاهلا عما حوله . .  
يجذب جبال شبابه المطروحة على الرمال غائصة فيها فتتجمع  
الشباك وتدنو منه حتى تصبح ملء يديه جميعها فيدقق فيها النظر

ويجدها خالية تماما من السمك فيلوى وجهه متضايقا ويقذف بها بعيدا عنه ثم يقعى على الرمل باكيا لحظة ٠٠ ينهض بعدها فيجمع الشباك من جديد ويفردها وينفضها كأنه يخلصها من القواقع والفضلات وأعشاب البحر الشائكة ، ثم يطرح بها على الرمال من جديد املا أن تعوضه بالسمك تلك المرة عن المرة السابقة ، وانتفض قلب ايليا بينما ادار أبشر وجهه الملون بالفجيرة ومضى يهزه اسفا ، فذلك ما انتهى اليه اذن صديقهما القديم .



## فصل ختامى

استيقظ نيكولا وفتح عينيه فلم ير غير الظلام مطبقا حوله . .  
واكتشف أن عظامه قد تيبست حينما حاول تحريك قدميه للنهوض  
وقد سرت فيهما برودة نفاذة ، فمضى يدلكهما بيديه المتيبستين  
أيضا ، حتى أصبح الأمر بالنسبة له عذابا لا يحتمل . . فترك ساقيه  
على حالهما واعتدل بنصفه الأعلى فأسنده قائما وأرخى ذراعيه  
بجواره وهمد .

تلك هى لحظتك التى طالما حلمت بها يا نيكولا قادمة . .  
وما عليك سوى انتظارها صابرا وهادئا فلا تزعج قدميها بأية حركة  
لقد بدأ الأمر بقدميك وساقيك وكفيك وسوف يسرى التيبس فى  
ذراعيك ويتسلل منهما عبر جسدك كله فيصبح متيبسا . . وتذوب  
كما حلمت فى تلك الطبيعة التى سحرتك بروحها الجذابة والوحشية  
عن الحضرة الذى قدمت منه .

تتيسر وتصبح صخرة من الصخور فى قلب الدرهيـب العظيم  
الذى أعطيته قلبك وعقلك وروحك .  
تلك معجزة قديمة لا بد وأنها الآن تتكرر معك ، ألم يحدث

ذلك للجد القديم الأول لقبائل البجاة ، كوكا لوانكا ، حين أعطى عقله وقلبه وروحه جميعها لتلك المغارة المرتفعة فوق الجبل المقدس المرحوم علبة ، حتى أصبح صخرة ، تنبت حولها أشجار مقدسة تطاول السحب تمرح خلالها تلك الكباش البيضاء الشبيهة بالأرواح وسط المياه العذبة التي تتفجر من الصخور منسابة حول تلك الروح الصخرية المقدسة ؟

تلك هي معجزة الانتماء الحقيقي يا نيكولا ، وسوف تتكرر معك .

كان قد عاد قلق الضمير ، معذب الروح بعد أن تخلص من ثمرة خطيئته فما وجد في نفسه القدرة على مواجهة أحد فمضى الى الدرهيبي ملاذه وملجأه ، وهبط المغارة حتى وصل الى فتحة الممرات فعبورها . . وكان يعرف جيدا ملاذه وملجأه .

هنا في سراديب الطبقة القديمة العليا ، حيث توقف البشر القدامى عن البحث بعد أن انتزعوا من الصخر خامته ، توجد الممرات المهجورة الملتوية داخل الجبل كشرابين يملؤها الهباء .

هنا يمكنك أن تختبئ يا نيكولا بكل ما تحمل روحك من عذاب وتقع يا نيكولا في كهف صغير مغلق ، كطفل في رحم . . أو دودة في شرنقة . . ولن تكون بحاجة الى الطعام ولديك في داخلك من الألم ما يكفي لتمضغه !

وتوقف العمل في الدرهيبي أياما ثلاثة ، أمضاها نيكولا دون طعام ، مختبئا في شرنقته الصخرية داخل كهف الممرات العليا القديم في بطن الجبل . . وفي الليل حينما يضمن اضمحلال الحركة وسكونها في الباحة حيث الكباين ومخيمات العمال ، يتسرب نيكولا من مخبئه وينحدر زاحفا عبر الممرات الحارة والممرات الباردة متلصقا أسفل الصخور وهو يحبو على كوعيه وركبتيه باحثا عن زمزمة ماء خلفها وراءه أحد العمال في الكهوف البيضاء المظلمة بالأخضر الشديد القتامة . . في ذلك المناخ الثلجي حيث وقفت يا نيكولا مئات المرات ورسمت للرجال ممرات أقدامهم في جوف الدرهيبي العظيم ، وجعلتهم يلمسون قلبه الداخلي بأيديهم الخشنة ، يزحف نيكولا على يديه وركبتيه متلصقا نقطة ماء . . ويتجول قليلا في مملكته على عمق ألف متر من ذلك المدخل المسحور . . وعلى امتداد عشرات الكيلومترات في تلك السرايب التي تتوسدها قضبان حديدية



تسير عليها عربات نقل الحجر والحام ، رسمها نيكولا كلها وخطها بعقله الخبير .

ويلق حلقة الجاف بلسانه الجاف ويبرطم ولكنه ركيكه سبايا عربيا وهو يصعد متسلقا كقرد عجوز على سلال الممرات العمودية عائدا الى كهفه المختار .. رحمة وشرنقته !

وفى اليوم الرابع سمع نيكولا دبيب الأقدام تهبط السلال الحديدية وتملأ السرايب والممرات فاستولى عليه شعور بالفزع .  
ها هم يعاودون العمل بدونه ، ويملاون الدرهب من جديد بالضجة .. يواصلون ما بدأته يانيكولا كأن لم تكن ، وسيضى زمن تصبح بعده نسيا منسيا .. انهم يعوقون الآن حلمك الأخير ، وإن يمكنك أبدا وسط تلك الضجة أن تتجدد أو تتحول ، أو تصبح صخرة مقدسة داخل الدرهب كما فعل كوكا لوانكا من قبل .

وصرخ نيكولا باسم ايليا ، مرة ومرتين ، كأنما يستغيث بها أن توقفهم .. فلم توقفهم ايليا .. استمر الدق ، واستمر الحفر ، بينما كانت ايليا تجوس فى الممرات تتابع صوت نيكولا ، باحثه عنه ، حتى وصلت الى السرايب القديمة العليا .. ووجدت نفسها تدور حول السنادات الخشبية التى ترفع صخرة ضخمة وتمنعها من السقوط .. ورأت نيكولا كطيف خرافى فاندفعت ناحيته ، لكن نيكولا كان يحملق فيها بفزع .. وحين دنت أصابعها المرتجفة من وجهه تراجع مرتعبا وقفز محاولا الافلات ، فضربت قدمه السنادة الخشبية الرئيسية فانزلقت .. وانهارت الصخرة .

لقد صرخت ايليا وهى ترى الصخرة تنطبق على باب الكهف وتحبسها بداخله .. وأخذت تهيش الصخر فى محبسها المظلم بأظافرها الجذابة الملونة .. بينما صرختها تتسرب عبر السرايب وتردد فيها .

حتى بعد أن امتلأ حلقتها بتراب الانهيار ، وكفت عن هبش الصخور وبدأت تهيش فى عنقها الجميل بأظافرها الجميلة ، قبل أن تسكن حركتها . كانت الصخرة ماتزال تتردد فيسمعها نيكولا خلال هروائه المذعورة فى السرايب ، كأنها تطارده لتمسك به وتعيده الى ايليا .. وكأنما الالم المنعم واليأس والدهشة فى تلك الصخرة المفجوعة تعاتبه وتدعوه للبقاء معها .. كأنها تلوح له بعالم مسحور هما كفيلان بخلقه فى تلك الصخور الصماء ، ليعيشاه معا جنبا الى

جنب كما كان دائما ٠٠ رجل وابنته ٠٠ أو رجل وأمه أو رجل وامرأته المعشوقة والمفضلة .

لقد ظلت ايليا تنتظره داخل صخورها المظلمة فى سراديب الجبل الخفية أياما وأسابيع طويلة ، لعل حينه يدفعه ويعود به اليها ٠٠ لكنه كان محمومًا مقرورا يتفصد عرقًا تلجيا على سريره الحديدى ويهذى بكلام غريب غير مفهوم ٠٠ فدثروه بأغطية كثيرة تعوق حركته ، ومنعوه من الهبوط الى السراديب ٠٠ فألهب ذلك غضب ايليا ٠٠ وكان غضبها ناريا وعاصفا ، فأطلقت روحها تبحث عنه . تلك الروح العاتية التى أخذت تتخبط فى سقوف اندهاليز والممرات حتى استطاعت أن تثقب جدران الدرهيىب وتخرق طبقاته طبقة بعد طبقة ، وانفلتت من سطحه الخارجى الشاهق الارتفاع ٠٠ ثم ذابت فى الفضاء اللامتناهى ، حيث لم يعد بإمكان أحد أن يعثر عليها .

وبعد ذلك بدأ غضبها يتجلى ويثمر ، فبدأ السيل ينهمر مهولا من الثقوب التى صنعتها ، فيض من الماء يكتسح ويفرق فيملاً السراديب والممرات ٠٠ ويجعل مستحيلا على الرجال أن يدخلوا قلب الدرهيىب ، أو يواصلوا التعدين فيه .  
فأين لهؤلاء الهاربين جميعا رباط دموى كهذا يمنعهم من الفرار ؟

ويبصق نيكولا من فمه ترابا صحراويا حملته الريح وهو يتأمل الفناء المخرب والمهجور أمام البيوت الخشبية حيث كانوا يروحون ويجيئون ، يعملون ويأكلون ويلعبون الورق ويشربون صاخبين أو شاكين همومهم .

لقد أخرجوا جميعا محاسنهم ومبازلهم وقدموها على تراب هذا الجبل قرايين فطنة وخلاعة ٠٠ فما أغباهم حين يتركونه ويفرون ٠٠ مخلفين وراءهم نيكولا وحده ، لينشئ على ذلك الجبل المتفرد فى متاهة الصحراء صلبان عذابه وتكفيره ١٩٠٠!

هكذا يتوجع نيكولا وهو يلوى رقبتة ويزيح العرق المترب الذى ينهال غزيرا من جسده العارى المترب بكفه الكبيرة المتربة فيصبح التراب ملء مسامه جميعا ٠٠ بينما الشمس تصبغ الفناء الحالى أمام البيوت الخشبية الخالية ، فيبدو التراب والرمل رماد احتراق صخور تلك الباحة ، بهذا الضوء النارى ، فيصرخ نيكولا ،

آه يا ايليا الحبيبة .. ليتنى أطعته وتركت نفسى لصرختك الواعدة  
تعود بى اليك .. فنبقى دائما معا !

وحين تختفى الشمس فى الغرب ، ويزحف اللون الرمادى  
كثيفا على أصفر الصحراء وأحمرها وأخضرها فيكسوها جميعا ..  
ويتحول الحر اللافتح الى نسيم لافح ، ثم الى برد لافح .. وتصبح  
الجبال أشباحا خرافية متضائلة ووهمية فى ذلك المدى اللانهائى ..  
تتعذر الرؤية على نيكولا ، فيدلف الى بيته الخشبي ويجرع من  
زجاجة السبرتو الأحمر جرعة تشعل الضوء فى داخله ، ويعود  
ببطانية يلتف بها .

ثم يقبع مستندا بظهره الى صخور الدرهيب التى بدأت فى  
التلج ، حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ بأحمراره القرنفل  
الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب .. ويبدأ المشتري يتأرجح بعيدا  
فوق الصحراء الكبرى .. فيصبح عقل نيكولا فى الملكوت .





## قالوا عن فساد الأمكنة

- رجاء النقاش
- يوسف الشاروني
- أبو المعاطي أبو النجا
- أقبال بركة
- علاء الديب
- نبيل فرج
- محمد جبريل
- علي شلمش
- غالب هلسا
- د . مجاهد عبد المنعم مجاهد

## رجاء النقاش

الوجه الذى أود أن يخرج من دائرة الظل والصمت فى الحياة الادبية العربية كلها هو « صبرى موسى » فرواينه الجديدة « فساد الامكنة » تكشف عن موهبة فنية لامعة ، وتؤكد أنه يستطع ولاشك أن يقدم شيئا هاما فى ميدان الرواية العربية لو أعطى لهذا الفن وقتا كافيا وجهدا أكبر .

لقد ظل « صبرى موسى » فلقا حائرا بين الوان من الكتابات الصحفية السريعة لمدة سنوات طويلة ، كما كان من أكثر من عرفتهم من الادباء الشبان حيرة وقلقا بين تجارب الحياة الواسعة المختلفة ، وكثيرا ما كنت انصور أن حبه للحياة ومغامراته فى ماديتها المتعددة سوف تقضى عليه ونهلك موهبته ، ولكن يبدو أنه استتقر أخيرا ووجد نفسه فى فن الرواية ، ولو أنه واصل طريقه الفنى بجدية واهتمام فلسوف يحقق ولاشك شيئا بارزا له قيمة محسوسة فى هذا الميدان .

اول ما يلتفت النظر فى هذه الرواية هو أنها تدور فى جو جديد بكر لم يلتفت اليه فنان من قبل • ان موضوع الرواية غير تقليدى ، وهذه نقطة اساسية يجب أن ننتبه اليها جانبنا الادبية . فالرواية المصرية والعربية عموما تدور حول الحياة فى المدينة أو الحياة فى القرية ثم لا تلتفت الى أبعد من ذلك ، وهذا خطأ وقصور فى

الرؤية ، فمصر ليست مجموعة من المدن أو مجموعة من القرى ، ان هناك بيئات انسانية واجتماعية أخرى ، لو انتبه اليها الفنان لاكتشف فيها الكثير من المادة الانسانية الجديدة الخصبة ، واذا نظرنا الى الادب الغربى الذى يعتبر نموذجا ادبيا متقدما بالنسبة لنا فاننا سوف نجد اماننا فنانين كبارا قد تجاوزوا الحدود التقليدية للفن ، وبذلك استطاعوا أن يجددوا ادبهم وأن يضيفوا اليه الكثير من التجارب الفريدة غير المألوفة ، وهذا سر من اسرار بقائهم وخلودهم وتأثيرهم على الناس . . هناك مثلا « جوزيف كونراد ١٨٥٧ - ١٩٢٤ » الروائى الانجليزى الكبير . . لقد ترك هذا الروائى حياة المدن والقرى ليصور حياة « البحارة » . . وحياة الجزر البعيدة النائية ، واستطاع من خلال هذا الميدان الجيد أن يقدم الوانا رائعة من التجارب الانسانية ، ونفس التجربة قام بها « هرمان ملفيل ١٨١٩ - ١٨٩١ » الاديب الامريكى الكبير ، مؤلف الرواية ، بل السيفونية المشهورة « موبى ديك » أو « الحوت » ، لقد اعتمد هو الآخر على حياة « البحارة » وتصوير المناطق النائية ، بعد أن خاض بنفسه تجارب عديدة فى هذا الميدان ، وهناك عشرات النماذج الاخرى من الادباء العالميين الذين كسروا الحواجز التقليدية ، وبحثوا عن عوالم جديدة بكر ليستمدوا منها تجاربهم الانسانية والفنية .

بهذه الفكرة خرج « صبرى موسى » من المدينة يسعى ، فقتضى عاما كاملا فى جبل « الدرهب » فى الصحراء الشرقية قرب حدود السودان ، من خلال حياته فى هذا الجبل ومعاشرته لمن يعيشون حوله من الجماعات البشرية استطاع أن يكتب روايته الجديدة الجميلة . . لقد كسر هذا الفنان هو الآخر الحواجز التقليدية لبحث عن شئ جديد وجو جديد وطعم جديد واستطاع منذ الصفحات الاولى لروايته أن ينقلنا الى هذا الجو ويفتح شهيتنا لمعرفة أسرازه وخفائيه ، وقد نجح الفنان تماما فى هذا عبر جوانب روايته ، فالدخشة والاحساس بالعالم الجديد يسيطران علينا خلال الرواية

وبالاضافة للهيكل الرئيسى لهذه الرواية الجديدة الممتعة ، الذى يحتوى ما تضمه من أحداث جذابة تتميز بالعنف والوحشية والتدفق . . فنحن نجد فى هذه الرواية أكثر من قيمة فنية وفكرية :

ففيها قدرة على التركيز والبعد عن الغضفظة والثرثرة ، وهذا التركيز هو سر أساسى من اسرار الفن الحديث ، فعصرنا لا يقبل التطويل والافاضة والجرى وراء التفاصيل ، انه عصر التركيز والتكثيف .

ان الكاتب يصور لنا بصدق ووعى ومعرفة حياة الصحراء القاسية العنيفة ، بما فيها من تقاليد وعذاب واحلام وواقع اجتماعى غريب .

وفى الرواية تصوير نادر وجديد لانحلال الاوستقراطية القديمة التى قضت عليها ثورة ٢٣ يوليو ، وفيها تصوير لانعدام الاحساس لدى هذه الارستقراطية بأى نوع من القيم الانسانية او الاعتبارات الاخلاقية ، لقد كانت هذه الارستقراطية، وعلى رأسها الملك ، تستبيح أى شئ فى أى وقت ومع أى انسان ، لاتخشى ولا تحسب حسابا لمصائر البشر .

وترسم الرواية صورة أخرى للاستغلال الاقتصادي الاجنبى الذى كان يترصص بأى، جهد يبذله الانسان فى بلادنا ، فقد كان الانسان يمرق ويتعب ويشق الصخور مقابل لقيمات قليلة ، بينما كان الاجانب والمتصرون وكبار التجار يجمعون ثرواتهم الضخمة من هذا الجهد وهذا العرق الغزير .

ان حركة الرواية تقوم على « الاغتصاب » . اغتصاب الطبيعة . . اغتصاب الصحراء والبحر والجبل . . ثم اغتصاب الانسان قبل أى شئ آخر . وتكشف الرواية أيضا وبصورة رائعة عما يملكه الانسان البسيط الذى يعيش فى تلك الصحراء القاسية ، من رصيد الصلابة والقوة النفسية . هذه بعض ملامح اللوحة الجميلة التى رسمها « صبرى موسى » فى روايته « فساد الامكنة » . تلك الرواية الجديدة الجريئة التى تتفجر بالمتعة والجمال والحياة ، بل وتتفجر بالصور الوحشية الفريدة .

على أن هذه الرواية تثير مع ذلك عدة ملاحظات سلبية . . منها أن الاسلوب الصحفى يتغلب على « صبرى موسى » أحيانا لكثرة ماستخدم الكاتب هذا الاسلوب الصحفى واعتمد عليه . . فلقد كان باستطاعة الكاتب أن يتأمل ونتأمل معه نفسية « أيسا » الاعرابى الذى سرق الذهب من الجبل ليعرضه على اجداده الذين تقول عنهم الاسطورة أنهم يسكنون الصحراء ، هذا المشهد الرائع الجميل لم يستغرق من الكاتب الا صفحات قليلة مالاها بالوصف الخارجى السريع ، بينما كان هذا المشهد جديرا بأن يتوقف أمامه ليقدم ما يحتويه من صور وأوهام وأسرار . . وهناك مشهد رائع اخر كان كفيلا بأن يكون لوحة من أجمل لوحات الأدب العربى على الإطلاق، هو مشهد الزواج بين الاعرابى وعروس البحر ، هذا المشهد القاسى المفجع الرهيب الذى فرضه الملك فى نزوة من نزواته الوحشية على الاعرابى ليستمتع ويتسلل . . هذا المشهد أيضا تم تصويره بسرعة ، كان الكاتب يستطيع أن يقدم لنا من خلال هذا المشهد صورة نادرة المثال فى الادب العربى وعلى كل فان رواية « فساد الامكنة » تقدم لنا موهبة لا شك فيها ، وهى رواية ممتازة وفريدة رغم كل الملاحظات .



## يوسف الشارونى

« فساد الامكنة » هي العمل الروائى الاول لصبرى موسى ، وكان من قبل قد نشر خمس مجموعات قصصية وكتابين مما يمدان من أدب الرحلات ، احدهما « فى البحيرات » والآخر « فى الصحراء » ( ١٩٦٤ ) ، وهذا الكتاب الاخير وثيق الصلة بروايتنا لانه الوجه التسجيلي لها . كما أن روايتنا هي المحاولة الدرامية لهذه الرحلة .

واعتقد أن صبرى موسى قد بذل مجهودا فنيا واضحا لكي يتحول من كتابة القصة القصيرة الى كتابة الرواية ، ذلك لانه من الملاحظ أن أسلوب القصة القصيرة عند صبرى موسى يسم بتتابع الجمل القصيرة وتراحم ما تتضمنه من أحداث ، حتى أنه يكتب فى بضعة أسطر ما يكتبه قصاص آخر فى عشرات بل ربما مئات الصفحات ( انظر : يوسف الشارونى ، دارسا فى الرواية والقصة القصيرة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ص ١٩٥ ) وهذا عكس المطلوب تماما عند كتابة الرواية .

كذلك فإن معظم شخصياته كانت موصوفة من الخارج دون تحليل داخلى ، فقد كان يتجنب التعرض لانفعالات شخصياته من الداخل ، وهذا مختلف تماما عما نجده فى روايتنا حيث الاهتمام بالعالم الداخلى للشخصيات لا يقل أبدا عن الاهتمام بالعالم الخارجى .

ومعنى هذا ان تحولاً فنياً قد طرأ على كاتبنا بحيث أخرجته عن قالب القصة القصيرة جداً - والتي تقارب النادرة - الى العمل الروائي الفسيح ذى النفس الطويل ، الذى يحرص على تقديم الشخصيات بأكثر من بعد وأكثر من زاوية . هذه هي المقارنة الأولى بين رواية « فساد الأمكنة » - آخر كتابات صبرى موسى وأول رواياته - وبين أعماله القصصية السابقة . أما المقارنة الثانية فهي بين هذا العمل الروائي وما سبق أن كتبه من أدب رحلات .

فلاشك ان كتاب « فى الصحراء » هو الجانب التسجيلي - كما قلنا - لهذه الرواية ، ولذلك الكتاب علاقة وثيقة بهذه الرواية من ناحيتين رئيسيتين : أولهما اننا يمكن أن نتتبع بعض الأحداث والوصاف فى كلا الكتابين . لعل أبرزها حادث البئر ، ويكاد يكون مكتوباً بطريقة واحدة فى الكتابين ، كل ما هنالك ان الرواية قد حذفنا بعض الاستطرادات التى قد تسمى أكثر مما تفيد العمل الفنى ، لأن من شأنها تشتيت ذهن المتلقى . ومن الطبيعى أيضاً أن نجد تكراراً لاسماء الأماكن - حيث أن مسرح الرحلة والرواية واحد - مثل مرسى علم وبرانيس وجبل الدرهيب الذى تدور حوله أحداث روايتنا . كذلك نجد تكراراً لذكر الجمال التى تموت فى الصحراء وهى سائرة او جالسة . وتجربة التيه فى الصحراء التى عاناها راوى الرحلة وهو ذاهب لعضود أحد أفراح الصحراء قد عاناها نيكولا بطل روايتنا وهو يقتفى أثر صديقه البدوى إيسا عندما اختفى بسبببكة الذهب التى استخلصوها بعد عامين من العمل الشاق .

أما الناحية الثانية فهي أنه فى مثل هذه الأعمال القصصية التى يكون مسرحها بيئات غير معروفة أو مطروقة لدى معظم المتلقين ، يكون للجانب التسجيلي اغراء شديد على الكاتب حرصاً منه على أن يدهش القارئ كل لحظة بما يعرفه هو ولا يعرفه قارئه وتكون عملية التضحية بهذه المعلومات عملية قاسية وأحياناً مؤلمة .

ويصبح الكاتب ضحية صراع الجانبين التسجيلي والحركي أو بين الوصف والدراما .

ولاشك أن نشر كتاب « فى الصحراء » قبل رواية « فساد الأمكنة » قد هون على صبرى موسى هذه المهمة الشاقة الى حد بعيد ، فهو مطمئن الى ان كثيراً مما لم يذكره فى « فساد الأمكنة » لأسباب فنية قد سبق أن أطلع قراءه عليه فى رحلته فى الصحراء .

ورغم ذلك فإن الصراع بين الجانبين ، التسجيلي والحركي ، كانت له بعض الجيوب - كما يقولون بلغة الحرب - فى عملنا . وقد بدا هذا واضحاً عند

استخدام الزمنين المضارع حيناً والماضى حيناً • فعند استخدام المضارع نحس على الفور اننا أمام وصف عام أكثر مما نحن بسبيل تتبع أحداث معينة ، فإذا استخدم الماضى دبت الحركة من جديد وعدنا نتابع أحداث العمل القصصى •

ومعنى هذا ان رحلة صبرى موسى من أدب الرحلات الى الادب الروائى تمت بانتقاله من استخدامه ضمير المتكلم والزمن الحاضر الى استخدامه ضميرى الغائب والمخاطب والزمن الماضى •• كما أن أدب الرحلات بدوره كان جسر العبور من كتابة القصة القصيرة الى كتابته للقصة الروائية ، فهو الذى شجعه على أن يكون ذا نفس أطول وهو الذى دربه على استخدام الجمل الأكثر طولاً والأقل تراخياً بالأحداث •

تبدأ روايتنا من حيث تنتهى وتنتهى من حيث تبدأ • فنظرة الكاتب الى الكون - ببعديه الزمانى والمكانى - نظرة كلية •• أنه يرى الاحداث كلها فى لحظة واحدة سواء وقعت فى الماضى أو الحاضر أو تقع فى المستقبل ومن هنا اتخذ فى نظـرته زاوية الطائر المخلق عالياً الذى يرى الاشياء فى مجملها وتفاصيلها معا ، كما يتضح ذلك فى أول سطور الرواية • ومن هنا كان استخدام الزمنين الماضى والحاضر مع تسرب صوت النبوءة التى تلمح ولا تفصح فتؤدى وظيفتها الفنية فى تشويق القارئ لمعرفة تفاصيل المأساة المرتقبة • كذلك يقدم لنا التفاصيل شخصية بطلة فى طفولتها ونضجها وشيوختها فى وقت واحد « فقد كان كل شيء يحدث أمام عينيه جديداً يتلقاه بدهشة طفل ، لدرجة أنه لم يتعلم أبداً من النجارب » •• وتوحى لنا المقدمة بجو اسطورى أشبه بجو اسطورة اوديب حين تنبأت له كاهنة دلف بأنه سيقـتل أباه ويتزوج أمه ، لكن نيكولا - بدلا من ذلك وبسبب احساسه الضخم بالذنب والمسئولية معا - خيل اليه أنه ضائع ابنته فى باحة الجبل على وسادة من صخره وأولدها طفلا ثم سرقه منها وهى نائمة ليطعم الذئب والضبع •

فإذا كان الفصل الثالث بدأت معالم نيكولا تتضح ، فإذا هو أشبه بيوليسيس فى رحلة عودته من طروادة حين تحاول الساحرة كيركيه ان تستبقيه وأن تغريه بالدول عن مواصلة رحلته الى حيث زوجته بنيلوب تنتظره فى وطنه ايثالا ، ذلك أن عشيقته ايلينا - ثم زوجته فيما بعد - تحاول أن تستبقيه فى وطنها ايطاليا ليدير مقهى والدها ، بل انها تعرضه على ان يقتل والدها ليخلو لهما الجو والمقهى ، بل وصلـت محاولات ارغامه على الرضوخ لرغباتها ان انجبت منه طفلة هى ايلينا الصغرى لتستبقيه أو - على حد قولها - لتسمره فى الارض وتثقل أجنحته عن الطيران • لكن نيكولا - مثله مثل يوليسيس - انتصر على هذه العقبة وترك وراءه زوجته وابنته ملبيا ذلك النداء الفامض نحو المجهول الذى ينجذب اليه أمثاله السابقون واللاحقون - مثل كولومبوس والسندباد - فى سبيل المغامرة وارتياك آفاق جديدة ، والحصول

على لذة الإكتشاف والدهشة المستمرة . لأنها نفوس لا تعرف استنفاذا ولا هدوءا .

وحين وصل سكولا إلى الصحراء الشريفة بدأ عمله الشاق . لكن موقفه يختلف  
وهدهد يختلف من موقف الآخرين وهدفهم . كانوا جميعا يحملون بالذهب . بينما  
كان سكولا مهوورا بحلم بالعرفه في بحر الجوال .

وتنقسم الرواية قسمين رئيسيين الأول وهو أفصرهما ويروى قصة مجسم الذهب  
وما انتهى اليه من تسلي بعد أن احدثت إيسا شبكة الذهب ليطلع عليها جده المعبود  
- كوك لوانكا - الذي تحول جسمه معن الرمن وكثرة العبادة إلى صحرة .  
فاذا كان الفصل الخامس فابدا المرحلة الثانية . وهي المرحلة الأطول والتي  
تطور منها الأحداث نحو الفاجعة أو المأساة . وأحداث هذه المرحلة تسير حول مجسم  
حديدي هو منحهم الملك حبل الذهب .

وهكذا نجد أن صراع الإنسان مع الطبيعة يتشكل جانبيا هناك من جوانب هذه  
الرواية . فسكولا وزحاله يصعدون الجبل لكي يخرج لهم ما يحبه في أحشائه .  
وما هو ذا الإنسان يحاول أن يصحح الماء من جوف هذه البنية الصحراوية فتقف  
له الثعالب بالمرصاد . وهكذا يصير الإنسان مره وينهرم مره أخرى في هذا الصراع  
المستمر . ويحل هذا الصراع مره أخرى في روايتنا ممثلا في صراع صيادي البحر  
الأحمر مع أسماك . وكشف أن عرائس البحر أو جنياته كانت تنزهر بأقارب  
عند ربه كرسيات حتى بات هناك قار نيه وبين هذه المخدقات البحرية . ولهذا  
سند ما فرح عندما قادت اليه الأفطار إحدى عرائس البحر طافية فوق الماء بلا حراك ،  
لكنه أي إلا أن يحملها معه إلى البر معلما أنه هو الذي اصطادها .

هنا يتكشف لنا جانب آخر من الجوانب الأساسية لهذه الرواية هو - كما نيه اليه  
الذكور نادل سلامة في مذهبهم القديم - تلاقي الإصداق . فعندما وصل عبد ربه  
كريشات مع ترويه السجدة إلى امرأتان الملك وحاشيه - الذين اتوا إلى هــ  
المكان بفسيد راديه - قد استروا على التماطي . وتهاؤا لرؤية شيء شير غرائزهم .  
لهذا ما لبثوا أن رحلوا ، لا محال . واج عند ربه كرسيات على عرشه البحرية المقة .  
وهكذا البت الجده في ذنبه - ممثلة في شمس الحسن - بالثناء ممثلا في المرات .  
ومن قبل كان الحسن وانوت قد التما عندما النار الكاتب إلى وادي الجمال حيث  
شاهد ثمان الإبل التي - من علف الجماع . فالجنس يلتقي المسوت بل أنه يلبده  
كما يلد الحياة .

ومن قبل تلاقي الإصداق في لحظة نكولا ذلك السكير الذي لا يكاد يفتي . حتى  
إذا لم يجد ما يمه لجأ إلى رجاجة السمر والاحمر ، وفي الوقت نفسه فان نيكولا

هو ذلك المغامر الذى أقبل الى الصحراء فانقلب راهبا متعبدا لها ، طاقته فوق الاحتمال فوق طاقة الآخرين ، لذلك ذهب كل الآخرين وظل هو وحده مصرا على البقاء . ففي الوقت الذى نستمتع فيه الى كاتبنا يحدثنا عن نزوات بطله النسائية ، اذا به ينهنا الى ان اسمه اسم قديس قديم هو نيكولا . والمنجم بالنسبة لنيكولا كان مصدر الحياة ومصدر الموت معا . أنه مصدر الحياة ليس فقط لأنه يستخرج منه الخامة التى تبرر عمله وعمل الآخرين فى هذه المنطقة ، بل انه مصدر الحياة بالمعنى الجنسى هنا ايضا . فعملية اختراقه كانت أشبه بالعملية الجنسية كما تشير الى ذلك صراحة أكثر من جملة فى الرواية . كما كان المنجم مصدر الموت حين انهارت سراديبه على أبنته إيليا الصغرى وانطبق باب الكهف عليها واخذت تهيش الصخور فى محبسها المظلم الى ان امتلأ حلقها بتراب الانهيار .

وثمة صراع من لون ثالث غير صراع الانسان والطبيعة وصراع الحياة والموت ، هو صراع الخير والشر . فهل من الخير ان نترك الجبل كما اوجدته الطبيعة وكما يريد البدو أن يبقى ، أم أن نحفره لنستخرج من باطنه كنوزه كما كان رأى نيكولا والرجال المقبلين معه من الوادى . ولعل أهم صراع بين الخير والشر يتمثل فى فكرة الشرف عند كل من ايسا وعبد ربه كريشباب ونيكولا . لقد اخذ ايسا الذهب ليطلع عليه معبودة ، فهل هذا عمل غير اخلاقي كما اعتقد ذلك الباشا ورجال الشركة بحيث يستحق عليه ايسا الحبس والعقاب ، أم هو عمل اخلاقي كما رأى ايسا ؟

هكذا تتلاقى الاضداد فى روايتنا : الجنس بالموت ، والانسان بالطبيعة ، والخير بالشر . أنه صراع يختلف عما تعودناه فى معظم ما نقرأه من روايات مصرية وعربية ، حيث يدور الصراع بين الانسان والانسان فى المدينة والقرية ، ولعل الذى اتاح لهذا اللون الجديد من الصراع ان يبرز هو أن صبرى موسى خرج باحدائه وشخصياته من نطاق هذين المسرحين التقليديين ، الى حيث الرمال تمتد على مدى البحر ، وحيث تقف أمام الانسان قوى تعجده ، ويتحداها كالجبال والشعابين وندرة الماء ، فيتوارى صراع الانسان مع أخيه الانسان وان كان يطل علينا من حين لآخر .

ترى ما الذى افسد الامكنة ؟ لعلها البقية الباقية من صراع الانسان مع الانسان والتى تطارده حتى وهو فى هذا الخلاء المتسع الرحب ، ما أن تطأ قدمه حتى تفسد الامكنة ، مع ان ريح الصحراء العارمة حين تلفحه فانه لا يستطيع ان يدخر منها ملء قبضته .

## أبو المعاطى أبو النجا

انتهر هذه الفرصة لأقول كلمة صغيرة عن عمل روائى أعتقد أنه يستحق الكثير من اهتمام النقاد - ولا أقول القراء - لأننى على ثقة من أنه قد نال بالفعل اهتمامهم !

هذا العمل هو رواية « فساد الامكنة » • التى صدرت طبعها الأولى فى شهر يوليو من عام ١٩٧٣ فى سلسلة الكتاب الذهبى •

كيف تكتب فى كلمات قليلة عن عمل اثار فى نفسك أعظم المشاعر .. ولا تزال صوره القوية لا تبرح مكانها فى خيالك وكأنك عشت بالفعل جزءا من حياتك فى ذلك الجزء من أرض الوطن ؟!

ماذا تعرف عن جبل « الدرهميب » الجائم هناك فى صحراء مصر الشرقية قرب حدود السودان ؟ الشعور الذى أثاره الكاتب فى نفسى بقوة هو أن هذا الجزء من بلادى كان جزءا سلبيا ، كان فى المنفى أو المجهول !

وأن الكاتب بهذه الرواية قد حرر هذا الجزء من أرض الوطن ، اعاد اليه الحياة والحرية ونعمة الوجود فى نفوس القراء !

أجل فالوطن تحيا من جديد بما يكتبه عنها أبناءها ، وهذه الرواية أعادت الـ

مصر جزءا كان صائفا من أرضها . ان طموح الكاتب الانساني في هذه الرواية أقوى بكثير من طموحه الوطني . فهو لا يكتب فقط عن مكان من نوع فريد وخاص بطبيعته وناسه من اماكن وطنه . ولكنه يكتب قصة لقاء غريب بين رجل اسمه « نكولا » عجزت اوطان كثيره . عجزت الروحة والابناء - عن ان تمسك به . رجل هارب من كل انتماء كأنه يبحث عن المجهول . ولكنه في النهاية يلتقي بمكان نهرب منه الحناء ويهرب الناس . مكان صخري ونارى معا كأنه المكان قبل أن توحد الحناء .. مكان يطفى على كل شيء ويحول الناس الى صحور .. الى مكان !

ان هذه الرواية تروى قصة هذا اللقاء الغريب بين الرجل والمكان !!

بين الرجل الذى ينتمى الى اوطان كثيره فكانه ابن الانسانية كلها . كأنه ادم . يلتقى بالارض البكر قبل ان يترك عليها الانسان بصمات قدميه أو يديه !

ان شراره هذا اللقاء تشتعل فتضىء فى صفحات عديدة الكثير من اسرار النفس واسرار الحياة كنف أتكله عما رأيته فى ضوء هذه الشراره فى هذه السطور القليلة ؟!

أرجو أن أفعل ذلك فى مكان اخر ووقت اخر . وتكفينى الان هذه الكلمة .. كلمة حب متواضعة عن عمل كبير !

## اقبال بركة

فى تلك الرواية «مصاد الامكنه» يشعر القارىء ان هناك الكثير مما يود الكاتب ان يبوح به لقارئة ٠٠ وبالاسلوب المجدول والفكر المنقوع فى الاحساس المكتسب بالتساؤل . والموسى بالدهشة ٠٠ استطاع صبرى موسى جداره ان يحتكر انتباهنا . وأن ينسلط على أنفاسنا طوال مره القراءه ٠٠ ولعل السبب يكمن فى ذلك الاحساس بالدهشة . المروعة . بالضالة الانسانية . بسساعة المكان ورهينه وغموضه الذى تشارك فيه كلا من المؤلف وقديسه أو بطل روايته بكولا العجوز ٠٠ ذلك الذى يقف هناك ولاوطن له ٠٠ عازيا ومصلوبا على الفراغ المناجج الحارره وحده ٠٠ بلفحه ريع الصحراء العارمة بين حزن وحين ٠٠ فلا يمكنه ان يدخر منها ملء قبضته ٠٠ »

فى ذلك الجبل القابع عند حدود السودان بالصحراء الشرقية أمضى الكاتب ليلة ربيه منذ سنوات ٠٠ ثم عاد يراه مره أخرى ذات ليلة صوفية بعد عامين ٠٠ واخيرا ينفرد عاما كاملا للاقامة فى الصحراء حول ذلك الجبل ليفكر فى مادة روايته ٠٠ ثم يكتب الرواية بعد ذلك بعاممن ٠٠ ومعنى ذلك ان الرواية ظلت تلج عليه أكثر من سبعة اعوام حتى استطاع أخيرا ان يخلص نفسه من أسارها وان يفرغها على الورق ٠٠ كما هى ٠٠ أو كما يود أن تكون ٠٠ فإلكان فى هذه الرواية أو الرؤية له طابع خاص وكيان مستقل ٠٠ انه شخصية أساسية . تلعب دورا هاما ٠٠ بل هى الشخصية الأساسية



التي تحرك مشيئته وعلى حسب وداده .. أو هواه .. ان كل الشخصيات الرئيسية والثانوية قد اصابها مس الدهريب .. نيكولا ، ماريو ، ايليا ، ايسا ، ابشر ، والباقون .. كلهم تلبستهم الصحراء ولفتهم في دنارها الاصفر الرمل ..  
لقد هجر نيكولا بلده وزوجته ووهب حياته للصحراء او الجبل ليستخرج مادة التلك لكن ما استهوى نيكولا لم يكن التلك .. بل المكان ذاته ..

هذا هو نيكولا .. الانسان الذي يطارده كابوس .. ويؤرقه حلم ويعذبه ..  
انه الكاتب او الفنان وهو يتعرق من دنياواته ، ويتمرغ في احضان الالم ، ويشفق جلده ويجف وتتكرس ضلوعه .. انه يستحم في الامسى .. ويقترن بالوحدة وبالعذاب ، لكنه أبدا لا يفكر في هجرة المكان الخالد الذي سمى اليه من أقصى أطراف الأرض ..  
الحقيقة .. ذلك هو هدفه الأبدى الذي لن يتنازل عنه الا حينما تتخلل عنه الحياة .

وهكذا يذوب نيكولا تماما في حلمه .. فتختلط الرؤى لديه .. ويصبح غير قادر على التفريق ما بين الوهم والواقع .. ما بين الحلم والحقيقة .. تصبح حياته كابوسا متصلا لا فكاك منه الا بلعب الشطرنج مع نفسه ، واحتساء الخمر الرخيص حيث يحدث اخيرا ذلك المزج الصوفي بينه وبين الدهريب .

وهكذا تنتهي قصة نيكولا .. أو قصة الحلم او الكابوس الذي عاش فيه ذلك المأساوي نيكولا .. « ذلك الذي كانت فاجتته في كثرة اندهاشه ، وكان كل شيء يحدث امام عينيه جديدا يلقاه بفرحة الطفل ، لدرجة انه لم يتعلم أبدا من التجارب ! »  
التجارب !

انها فعلا رؤيا من نوع خاص .. تتعرق فيها الأجساد برمال الصحراء ، وتزكم الانوف برائحة الوديان العميقة خلف جبال السكرى وحماطة وابو غصون وسميوكى وزرقه النعام والابرق وجبل مصرار وغيرها .. ديكور جديد تماما للقصة المصرية .. حيث يمضى الكاتب ، كالمكتشف .. ينحسس المكان بأصابعه .. ويتشغم رائحته بأنفه ، ويتسلل بين وديانه وسراديه وكهوفه ، ويفوس بين اوراق تاريخه وحكايات قبائله واساطيرهم ، لتتعرف على تلك الاماكن المهجورة المنسية من مصر .. مصرنا التي لا نعرف منها الا المدن الكبرى وبعض القرى ...  
ونجهل أن من بين كنوزها العديدة كنوزا أخرى لم تكتشف بعد .

---

● مجلة اليقظة / الكويت / ابريل ١٩٧٤ .

## علاء الديب

هذه الرواية هي دون شك واحدة من المحاولات النادرة التي يقوم بها كاتب المرحلة الراهنة للخروج من أزمة الرواية ودوامه الموضوع المتكرر .  
والزميل صبرى موسى ليس كاتباً شاباً ولكنه مارس الكتابة القصصية والكتابة الصحفية سنوات طويلة وخرج بتجربة عريضة فى ممارسة المهنة وفى مشاكل الحياة الصغيرة والكبيرة .

أنه واحد من جماعة كبيرة قدمت سنوات شبابها ورجولتها لخدمة صاحبة الجلالة ، فخسرت كثيراً .. وكسبت كثيراً ، واحد من تلك الجماعة التي تطرح حيلاتهم وأعمالهم قضية علاقة الفن بالصحافة وتأثير العمل الصحفى على الفنان المبدع .  
تدور أحداث الرواية فى عالم بعيد .. عالم الصحراء ومناجم الذهب القديمة عند شاطئ البحر الأحمر . مكان الرواية واقعى جدا واسطورى جدا فى نفس الوقت .. تماماً مثل شخصيات الرواية ، التي تجمع فى براعة بين عناصر الواقع وملامح الاسطورة لكي تقدم تابعا حديثا مثيرا يجعل منها نسيجاً خاصاً وغنيا يواجه رتبة الحياة .. وموضوعات الفن القصصى والروائى التي أصبحت متكررة واسيره لجو المدينة أو لسطح القرية أو للرمز السياسى غير الناضج .  
فى عالم المنجم يطرح المؤلف قضايا مختلفة الانواع والدلالات ، فهناك قضايا المجتمع والاستغلال .. كذلك هناك قضايا الخير والشر ، وصراع الانسان مع نفسه ومع

الطبيعة . هناك كذلك العراعر الإسطورية . واساطير السحر والبحر . وحرافات الصحراء .

يجمع هذا كله الفكرة الأساسية التي نسميها الرواية عواديها . الفساد ، ذلك العصر الذي يكاد في هذا العمل أن يبرر فعلا كشيء له وجود وتغل يطرأ على المكان ويطرأ على النفس فغير من شكلها وأحوالها . ويوجد لها وضعا ثالثا بين الموت والحياة . نلخص فكره الفساد هذه . ارزوه في الرواية في المنجم وفي بسكولا بطل الرواية . . كما نلخصها في الحق العام قرب نهاية العمل حيث تتحلل العلاقات وتصل الى حالة الفساد .

في الرواية التي أعادها طومر جديد لكتابة رواية جديدة . كما انها تحاول أيضا الخروج من حيز الملاحمة الإسطورية . وتجنب في بعض الأحيان إلى الشكل التقليدي للرواية الحديثة وسرود منه . إلا ان جميع هذه المحاولات تجمع في النهاية لكي تقدم لنا نموذجاً طبعاً للرواية الجديدة .

ولكن يبقى عملية الدمج هذه . واستعمال هذه الطرق المختلفة لوضع لنا مقاربة جديدة حول هذه المحاولة .

أهم ما في الرواية هو الخروج على الموضوع التقليدي . وطرق موضوع جديد يشهد القارئ من البداية وخرج به عن دائرة المؤلف . ويندم الكاتب في هذا المجال كما كبيراً من المعلومات والظواهر عن حياة الناحية وحياة الصحراء يقدمها . في براعة الكاتب الصحفي الممكن من العرض والإثارة والتسجيل .

ثم يأتي التكوين المسبب الذي تقدمه شخصيات الرواية . وفي المقدمة يأتي بيكولا بطل الرواية اليوناني المعاصر الذي يبدع المؤلف في تقديمه وتحريكه وفي تعريفه للصراعات المختلفة مع « الناسا المصرية » ومع المنك . ومع انتهائه . وفيل كل شيء مع المكان ومع نفسه .

ان شخصية بيكولا تكاد ان تكون هي محور العمل . ونأى بعد ذلك مجموعة الشخصيات البدوية التي نشأت وارتبطت بالمكان . والتي أصبحت جزءاً من الصحراء وجزءاً بالناسا من المأساة المعاصرة التي جرى قودها . قدم المؤلف هذه الشخصيات ( ايسا ، وأشير ، وأوشيك ، وعمال المنجم ) وكأنهم الكورس الذي يدفع بوجوده المأساة في مسارها القدرى المحتوم .

وأخيراً تأتي المجموعة التالية أو الدخيلة وهي مجموعة الباشا والملك والاصدقاء التي تحرك بصرفاتها وجودها المأساوية . فهم العنصر الثوري الدخيل الذي يزرع الفساد في الأمكنة فيدمو ويعم البر والبحر .

في هذا الجو المساك وفي تلك الصحراء القاتلة ومن كل تلك العناصر ، نحصل على رواية دسمة وغريبة ولكنها طموحة طموحا يفوق قدرتها على التنفيذ والتنظيم .

ان موضوع الرواية يوحى من البداية بأننا لنجأ الى الطبيعة لكي نبلور صراعات الحياة . فقد يكون السبب الاساسي في شعور الانسان المعاصر بالصلالة والثقافة هو انقطاع تلك الصلة التي تربطه بالطبيعة . انه يتحرك وسط العمارات والجواري بين العربات والعجلات . . . يهتس الرحام ، ويفقد استقلاله بنابح الأنوار والاصوات والأصدا .

يخرج بنا المؤلف الى هذا العالم الخاص . عالم منجم الذهب والصحراء ، حتى تبدو فيه الانسان صوبية ممسدة تلمس نظنها على الافق الرطب . . وحتى يستطيع أن يناقش عدس هذا الكدر الجند بعيدا عن قاصص حداثته الموهمة التي تمشط في قعرها كل العوامل لكي تحولها الى رسم صغير في آله وحشية غريبة .

ان نفس هذا المصعد هو الذي حلل في الادب الحديث شخصية « زوربا » التي استطاعت ان تلمس نجاحا فريدا . يدل على مدى حاجة الانسان للعودة الى الطبيعة وللتعامل معها لكي تكسب من جديد احترامه لنفسه ومعرفته لحدود حياته . . هذا المحيط هو الذي يربطنا سكولا ، ذلك النحلم بأن نكون قادرين على العودة الى الطبيعة الام قادرين على الدخول فيها في صراع شريف . تكسب منها ونضئف اليها . . تحت تكون من حق هذا . ونسحب عن فرصة لكي نوحدها ونخالف معها الا ان بساط الاحد في الرواية وعزازه انشاكل وسوعوا . بحرم من هذا الافى لحضات قليلة . . ان هناك نوعا من التناظر الذي يحدث بين واقع المذجيل واسطورية الاحداث يرتب ولا يفسر . . فان التسجيل يعنى الاهتمام بالتفاصيل والبحث عن الكل والمعنى من خلال تباير الآخر الصعبر . في حين ان الاسطورة تنفر فوق التفاصيل فاصده الى لب الجمعه عن ضرب العلاقات الغامضة القائمة بين الوجود والمفصل والشمسور .

ونجاور هذين العالمين في روايه فساد الامكنة يحرمهما من الانطلاق الى آفاق عالية لقد مارس صبرى موسى في كتاباته المناقاة خلق عالم روائى من تفاصيل الواقع الصعبر . والمناهبه في الدقة . أما عالم الاسطورة الرطب فهو حديد عليه مازال يحاول املاكه وان كان قادرا على الدخول فيه يحب واشمها .

ولقد كاس غلافه سكولا باشبح . وعلافته ناسنه . وحدهما كافسان لكي يخلق لنا

عملا كبيرا .. ولكن ذلك يحتاج الى توضيحه بكثير من اغراءات العناصر الاخرى .  
وبرغم ذلك .. يصل صبرى موسى بأسلوبه الرشيق الى خلق وحدة فنية ناجحة  
من كل هذه العناصر .. لكى يقدم لنا رواية هو، دون شك رائدة وجديرة بالاهتمام .



---

● مجلة صباح الخير - يوليو ١٩٧٣ .

## نييل فرج

نعد رواية « فساد الأمكنة » ٠٠ الجزء الثانى الفنى لكتاب « فى الصحراء » ٠٠ الذى صدر فى عام ١٩٦٤ ، ودرس فيه المؤلف منطقة الصحراء الشرقية قرب حدود السودان . حيث يوجد جبل « الدرهب » .

والرواية تعتمد فى موضوعها ومضمونها على شخصية البطل نيكولا ، وعبر سلوكها أولا ، وأفكارها وهواجسها ثانيا ، تتكشف لنا جوانب ذلك العالم المادى الغريب من حولها ، خلال عدد من التسلسلات — سواء أفصح عنها أو لم يفصح — عن موقع الانسان ؟

وشخصية نيكولا شخصية مهزوزة متناقضة ، رغم حرصها على بلوغ سلامها النفسى ٠٠ هجر زوجته وابنته على فجاءة بينما يذوب وجدا على صديقه وصفيه ايسا ، ويناجيه مناجاة شجية فى العديد من صفحات الرواية ٠٠ الا ان هذه المناجاة تتجاوز دلالتها الحرفية بحيث تصبح ادراكا للطبيعة الصحراوية من حوله ، القائمة منذ الازل ، بمثابة قوة مهلكة بقانونها الصارم لكل من يحاول اقتحامها وفك لغزها الابدى ٠٠ على غرار ما حدث لايسا .

شخصية البطل فى هذه الرواية هى المحور الذى يستقطب كل الاحداث التى تمر ، سواء كان مؤثرا فيها ومنصلا بها أو كان على هامشها .

وبيعون وقلب هذه الشخصية نعرف على الحياة القاسية فى جبل الدرهم والقيم ،  
 والتقاليد ، التى تسود هذا المجتمع القفر .

على ان الكاتب كان يعف فى موضع دقيق للغاية ، بحيث لا يطغى جانب التسجيل .  
 على جانب الفن الروائى . لقد نخلص فى عمله السابق ، من مزلق التسجيل . ولم  
 يبق له الا القدر الذى يخدم العمل الفنى ، ويزيده ثراء . ذلك ان مثل تلك البيئة  
 الفريدة تعرى أى كاتب ، خاصة من سكان المدن ، برصدها والتعريف بها .

ان المشاهد والوقائع والنماذج البشرية الغريبة التى تستلهمها نظر الراوى ، ليست  
 شيئا خارجا عن خط الرواية ، او معروضا على معمارها المثلن . بل اجزاء عضوية فى  
 نسيجها المنفرد ، الذى يبرق أحيانا أو يهدر ، من خلال صياغة رفيعة ، ترتفع ، فى  
 كثير من المقاطع ، الى سميت الشعر .

ومما يذكر للكاتب انه يخطى البيئة الاجتماعية من ريف ومدن مصر التى لا يكاد  
 يتجاوزها أحد من الكتاب المعاصرين . ويوغل بشجاعة فى هذه المنطقة المجهولة بالنسبة  
 للغالبية العظمى من القراء والمواطنين يعايشها ويعيشها ، ويمزج الصور الطبيعية  
 الأخاذة ، بشاعرات الافراد ، والمطامع الصغيرة ، بالمقدسات والفضائل التى غرستها  
 الصحراء . بحث تأثير مناخها الخاص .

والحق انى اعتقد ان رواية « فساد الامكنة » الى جانب قيمتها الفنية البحثية تنطوى  
 على قيمة أخرى . لا تقل أهمية عن قيمتها الفنية ، وهى البحث عن الجذور الاصلية  
 البدائية للنفس المصرية العربية . ممثلة فى هذه الاصمقاع البعيدة .

فمن الصحراء ينبع كسر من القيم الحادة العنيفة ازاء الحياة والموت التى لايزال  
 لبعضها قوة الصيرورة الى ان ، بما نملك من سلامة ، والا لما عاشت على مر الزمن .  
 ورواية صبرى موسى ان لم نضع هذا البند نصيب عيدها ، فانها نمسه برفق  
 ووعى ، ونومى اليه دون ان نقف عنده ، أو تركز عليه .

كما ان القارئ يشعر فى الرواية بمزاوجة غر مفتعلة بين حياة البطل المشتتة وبين  
 رحلة البصرية منذ بدء الخليفة ، أو فى عصورها الاولى على الاقل .

رحلة البشرية الحائرة ، فى اغرابها المحتوم ، وفى آلامها وأحزانها الباعظة ، فى  
 أساليب الاخذ والضعف ، والعطاء والمغامرة والفسوة والخوف ، وفى الحياة والموت  
 وخطبة الارحام ؟

ومثل هذه الرواية ، بموضوعها المميز ، ومعالجتها الفنية الهادئة ذات النفس  
 الطويل ، وافكارها الانسانية ، النابعة من هذه المنطقة المحلية ، يمكن أن نقرأ فى  
 كل مكان من انحاء العالم ، فيما اعتقد ، بنفس الشغف الذى شعر به القراء فى  
 بلادنا .

## محمد جبريل

إذا كانت عبنا الفنان والرحالة سفاكسان الرؤية في أعمال صبرى موسى ، الى حد تقديم أكثر من كتاب في أدب الرحلات . مثل «فى البحيرات» و «فى الصحراء» . فضلا عن توضيح نفاس النظره في اعماله القصصه منذ « القميص » - مجموعته الاولى - الى « فساد الامكنه » - روايته الاولى - فان الارصة التي نقف عليها كل اعمال صبرى موسى هي محاولة « دراسة » التغيرات . الذائنه والطارئة . فى المجتمع المصرى . من خلال العلاقات الاسرية . والعائليه . وانتشار التعليم . والاتساع الرأسى للصناعة . وذواء بعض البنات . وبحلق بيئات حديده . ونشوء مشكلات كانت غائبة عن مجسم الزمن الماضى . واولئل هذا القرن .

وعلى سبيل المثال . فان خروج المرأة الى العمل . وما نشأ عنه من تطورات فى علاقات الجنسین . وفى العلاقات الاسرية عموما . نبض العديد من محاولات صبرى موسى القصصه ٠٠ فبعد أن قضت أمنة بطة ثلاثة نجيب محفوظ ، ربع قرن من حانها حبسة جدران البيت . تبين المرأة فى قصص صبرى موسى عن ملامحها المتمزه وقسماتها . وتمارس وجودها الانسانى . فتحب وتكره وتناقش وتقبل وترفض ويحرص على استقلالها الاقتصادى حتى تصبح فى غير حاجة لطفل الرجل . ومثلما كان أحمد عبد الجواد نموذجا متشددا للرجل فى مطالع القرن ، فان



المرأة فى قصص صبرى موسى نموذج لذروة تحقيق المرأة استقلالها فى الاجيال المتأخرة . المرأة محور الاحداث فى قصص نجيب محفوظ والبدوى والسباعى وغراب وعبد الحليم عبد الله والسحار وزكى مخلوف وغيرهم من أدباء جيل الوسط ، ولكنها - فى الاغلب - لا تركز الى دعائم اقتصادية أو استقلالية من أى نوع . ولعلها - فى المحصلة النهائية - أسيرة سيطرة الرجل الاقتصادية ، أما صبرى موسى - شأن غالبية روائىي جيله - فقد دفع بالمرأة الى مجالات العمل المختلفة ، فى علاقات متشابكة . تبين - بالضرورة - عن جوانب من نفسية المرأة ، لم يكن المجتمع المغلق قد اناح لها الظهور من قبل . فشمعة الرجل الذى يواجه خيانة زوجته بالشكوى لغانية بار ( قصة : القناع ) والزوج الذى يرضى بالزواج من حبيبته ، بعد أن وهبته نفسها ، أو يزعم أنها وهبته نفسها ( قصة : الفرح ) - ونذكر بطل رواية ثروت أباطة « قصر على النيل » الذى صرف فكرة الزواج من ابنة عمه ثانيا ، لانها سمحت له بان يحادثها فى غيبة من رقابة الاهل - وحفل الزفاف الذى ينتظر فيه اهل العروسين حدثا لن يتم ، فقد سال عرق كل منهما على جسد الآخر قبل حفل الزفاف بفترة طويلة ولم يعد بعد الحفل بالنسبة لهما سوى مساييرة لاصرار الاهل على أن يكون « اللقاء » فى اطار التقاليد الموروثة ( قصة الفرح ) وبعد أن رفض أحمد عبد الجواد فى « بين القصرين » طلب ضابط قسم الجمالية يد ابنته ، لشكه فى أنه رآها ، ولأنه لم يطلبها منه ، وانما خاطب فى ذلك اوسط ابناؤه . ثم مارس تزويج - وتطليق - ابناؤه بالكيفية التى حلت له ، فان نادية وسامى فى قصة صبرى موسى « حادث زواج فى شارع مؤنس افندى » يتحدثان ارادة اهليهما ، ويتزوجان ، ولا يملك الاهل الا الرضوخ . ولعلنا نجد فى قصة « حادث نصف المتر » - التى يشير الفنان فى قائمة مؤلفاته الى انها رواية - تجسيد لمدى التطور الذى لاحق علاقة الرجل والمرأة . فلقد التقى الحبيبان - للمرة الاولى . فى اتوبيس مزدحم . وتكررت اللقاءات فى احد الكازينوهات ، ثم انتقلت الى شقة الاستاذ زينهم ذى الزوجة والأولاد ، فضلا عن استضافة أصدقاء كثيرين لهما فى شققهم المروشة الى ان دس باب مكتبه ، ودخل رجل طلب له القهوة . فرفضها بأدب ثم طلب منه أن يتعبد عن حبيبته لانه سيتزوجها !

وفى السطور الاولى من قصة « تدفئة صناعية » يطرح الراوى ما يريد التعبير عنه : « كثرت مظاهر الحضارة الاستهلاكية ، ووقع الناس فى براثن الأنا ، وأصبحت كل أنا جيشا متربصا ، او حذرا من الأنا الاخرى واستهلك هذا التهيؤ الحربى كسل فرص التأمل والانفتاح . فأغلق الناس أبوابهم على انفسهم لاختفاء الممتلكات ، وضاعت لذة الاستعمال أمام شهوة الاستحواذ » . الراوى يلتقى - مصادفة - بأحد أصدقائه القدامى ، ويتفقان على تكرار اللقاء ، فلا يتذكر ذلك الا بعد فوات الموعده ،

يتصل بالمكان الذى كان قد تواعد وصديقه على اللقاء فيه ليفاجأ بأن صديقه هو الآخر لم يجرى ! •

والواقع أن ملامح التغير لا تبدى فى العلاقات الانسانية فحسب ، ولكنها تمتد الى كل مظاهر الحياة من خلال المستحدثات الحضارية ، والتطور النامى لحركة المجتمع وتغير ظروفه الاجتماعية والثقافية والنفسية •

وعلى سبيل المثال ، فإن مصيفى رأس البر الذين كان مبعث اختيارهم للشاطئ ، تلك الحياة البسيطة ، والعشش الصغيرة ، والبحر الهادئ - الذى يحبو عند الاقدام ، قد تغيرت أمزجتهم - لاسباب حيرت الحاج عبد الفتاح - وأصبحوا يطالبون ببيوت مثل بيوتهم التى تركوها فى المدن • وعندما يجدون شيئا ينقص هذه البيوت يصيحون ويستكون وينتقدون • فلماذا غادروا بيوتهم اذن ؟ • حتى الطسرق الحديثة فى التأديب لم تكن تستهوى الحاج عبد الفتاح ، وكان موقنا ان علفة واحدة بالفلقما تقوم من سلوك الطفل بما يغنى عن آلاف النصائح والارشادات ( قصة : لأحد يعلم ) •

والقاهرة هى البيئة الاساسية التى يتحرك فى اطارها غالبية شخصيات صبرى موسى ، ولكن « الفنان » استفاد - فى احيان كثيرة - من « الرحالة » • فغادر العاصمة الى بيئات اخرى ، فى الريف ، والساحل ، واخيرا : فى الصحراء ، نبض أحدث رواياته - والادق : روايته الاولى ، فساد الامكنه •

وأهمية تناول الصحراء فى عمل روائى تكمن - بالدرجة الاولى - فى أن بلادنا جملة المساحة المنزرعة فيها ٦ ملايين فدان ، بنسبة ٣١ ٪ يعيش عليها الغالبية من سكان مصر بينما باقى مساحة الجمهورية وقدرها ٩٧ ٪ صحراء ، يعيش فيها حوالى ٤ر مليون نسمة • ولغلبة المساحة الصحراوية على الارض المصرية ، فان المناطق المأهولة تعد واحات تكتنف الصحارى ، اهمها الواحة الكبرى ، وهى حوض وادى النيل ، ثم مجموعة الواحات المتناثرة فى الصحراء الغربية ، فضلا عن تلك المناطق التى تعاقب الساحل فى الصحراء الشرقية • ومن المؤكد ان شخصية المواطن البدوى المستقل بدأت تغيب شيئا فشيئا ، لتحل محلها شخصية المواطن القومى الذى يدين بالتبعية للدولة لا للقبيلة ، ويخضع لقوانين عامة تسرى على كل مناطق الدولة ، ولا تنفرد بها منطقته وحدها • وفى المقابل فان تأثير البدواة على قيم مجتمعتنا المعاصر لا يزال واضحا وسائدا ، حتى فى المدن والعواصم ، برغم انها - كما يقول الدكتور محيى الدين صابر بحق - « اقدم نمط اجتماعى للحياة عرفه الانسان (البدو

والبيداوه ص ٦٠ ، ومن هنا كتب فساد الامكنة بعدا اجتماعيا هاما ، يضاف الى اعدادها المتفرقة المتكئة والمضمونه الاخرى .

من الشخصيات الاسطورية - وان كان به ضعف انساني واضح ومثير - يطالعا نكولا هوف قصة حب الدرهب يعانى السمس مصلوبا كانه المسيح . لقد قدم الى المنطقة عربيا ومعادرا . شمد المستقل الافضل . ولكن اصوله القوافزة كانت تسدد الى المكان بوساح قديمه . بن لعل السكان هم اهله واقربه واصهاره القدماى . . ابها . . كما . بروج الرواد - من سلاله كوس من حرم . الذين هاموا على رحوهم بعد الضون . . كانوا ولنس الى ان حا . الاسلام ففسفوف . لكنهم ظلوا على على نفاويهم ولعهم لىكوو حديرس . تلك العناد التقليدى . سمهور غمبه . . فعلى الرعم من فسوف الحدى لى الصجر . . وحبد الودين معصف الحول . وحفان . الآر . . الا انهم ظلوا لىاسم سمحور هذه الجمال فى اصرار . نكاريون فيها وبفسفوف الى فروغ وفاس . منها السبازيه . والعابنده . وابوجوس . وىو غامير . . ينتشانون حول الآثار والعدون المافيه على حالها من زمن الفراعنه . واسمهم سنف طوبى ودرع . ورمح أو حنجر . . وسمفهم مصنوع مثل سنف امير من الحروب الصليبية يوسفون رؤوسهم حنما بقرشون الارض للوم وسدة من حشب النجر . مصبوعة على عراز وساده بون سمح آمون الذهبية . وبهمون بن الجبال وراء الانل والغتم والعتر . ويشدون حامهم المى صعبها نساؤهم من سنف بفس للوم فى مناطق الرعى على السمن السباحى من نسر السلاين فى ارض مصر الى حدود مملكة السودان . . ويهمون اذاعها يسوون الحبر على الصخور . وبرسفون القهوه السوداء الحفلة . سمها . رعى الان بفسفها من نسر الصجر العزى الشمجب . . »

ولقد كانت القصة التى سمها نكولا - تلك التى بواصلت بجدوره الاولى - هى القصة الحففى . ساد السى سمب فى اوان . منذ ساد الملك سرف انتته حتى اوقعه الحبيبة الرعى السمر . بن سة المحجب . قصه . . هه الذى سماعها . وان الذى لى الحرك فى احداها هو السمير . فحسب الطفل طعافا لفسفور الصجر . وحدا نابها . واغلق على انسه كهفا عر مطروق . .

واسمت الناسا نكولا الى التفرد عن كل هؤلاء الذين وفدوا على الحبل بحثا عن القراء والمغامره . وتلاشى المساوى نكولا . ذاب فى الطبيعة السادرة من حوله . اصمح مثل الحد الاكبر . « كوكا لوكا » صخره فى حبل الدرهب .

لعل كانت هذه السطور كان أول من بيه الى الاضافة الجيدة . التى تمثفها . « فساد الامكنة » فى الرواية المصرية . ( جريدة المساء ٥ أغسطس ١٩٧٣ ) . ولملى

أضيف - بعد قراءة ثانية ، ثنائية ، لكن أعمال صبرى موسى - ان «فساد الامكنة» تكاد تمثل نسبجا مغايرا لما قدمه الفنان - المكتبة العربية - ، وانه قد استفاد فيها من العديد من الاخطاء الشكلية والمضمونية - والامثلة المرسومة - التي شابت بعض اعماله السابقة .

لقد كان « الرحالة » يهتد الفنان « مشاهداته وخبراته وقراءاته » فحاول تضمينها قصصه القصيرة ، أو يفردها بمسودات في ادب الرحلات ، مثلما فعل في كتابه « في البحيرات » و « في الصحراء » . ولكن الفنان - في « فساد الامكنة » - يجيد استخدام المعلومات التاريخية والادبية التي اتاحها له اقامته في القصور الادبي في جبل الدرهيب ، يمرس حياة السكان وخصالهم ويصادفهم ويعترف الى عاداتهم وتقاليدهم ويناقشهم فيما مضى وما يبدؤون انه المستقبلي - القصة في الماضي ، ودراسة الحاضر ، ومحاولة التوقع . عهد الفنان - لا شك - في روايته ولكنه حرص على أن يذيب ذلك المهد ، في لاجم حصوي - بالحديث الرواية ، وما يبدو عجميا أو ناسرا ، أو يبادر - وعنه الحضر - كونه محاولة من الفنان لاستعراس ثقافته . ولقد كان الفنان - في رحلته ، وربما في العديد من قصصه القصيرة - بعيد علينا ما قرأ من كتب القدامى والمحدثين ، ويحاول فلسفة الموقف ، واستدراك وجهات النظر الشخصية ، أشبه بلاعب التراس الذي لم يبرح بعد في اخفاء يديه وهو يحرك عرائسه . وغالبية تلك القصص لم تخلص مما كان يجلب القصة الاوربية في القرن الثامن عشر ، وهو الحرص الفائق من بعض الأدباء على تأكيد مواهبهم ، صرف النظر عن مدى أحتمال ما يقدمون لصوت الفنان المرتفع . ولأن أضيف أنه حتى التمسك بفئة القصة على الوجه نفسه الذي كانت عليه في أعمال الواقعيين الطبيعيين - على سبيل المثال - رغم الإضافات الباهرة لتلك المدرسة - لم يعد ينطوي - على حد تعبير الآن روبرت - على شيء من الإعجاب ، بل انه يبدو مستحيلا في ضوء التغيرات الاجتماعية والنفسية والثقافية التي بدعها كاتب الربع الأخير من القرن العشرين . ان التكرار المنظم للاستيصال العصبى الى - حسب انماضى - لا يبدو غير مقبول فقط . وانما قد يصبح ضارا لأنه يدفعنا الى الخلق اعتناء عسرين الموقف الذي نعيشه في عالمنا الحاضر . ومن ثم تحول دون السعي الى عالم المستقبل وانسان المستقبل ( نحو رواية حديد ) .

ومع ذلك ، فإن المقصود الذي يسميه « فساد الامكنة » - يدان ليس عراب عنها ، الى حد بعيد . لصوت الممارس المعلن - بعض غسبي - الحسد من المحاولات السابقة ، التي ادخل الفنان في استخلاصه ، من حرصه الى حالة على ارجس المعلومة صرف النظر عن مقومات العمل الفني . وجمعة الصحنى التي تجعل من « لمبسط »

قضية أولى ، وأن لم يحتتمله العمل - أحيانا - ولعل المثل يحضرني الآن ، قصته الشيكوفيه اللحظة والمذاق ، بطلها الاسطى حسنين سائق أوتوبيس الاقاليم الذى ينشد دفة الصداقة ، حتى مع هؤلاء الذى تعبهم حياته . وتكامل اللحظة وتواصلها . يجعل من الصعب تلخيص القصة ، وإن اعتبرتها من أهم المعالم الإيجابية فى فن صبرى موسى ( قصة : مصر - القزاق ) .

فى « فساد الامكنة » يغيب الفنان عن الصورة الظاهرة ، فليس ثمة أماننا ، يتحرك ويحلم ويتأمل ويقاسى ويتعذب ، الاهؤلاء الرجال الذين عاشوا تلك السنوات فى جبل الدرهيب : نيكولا وايسا وعبدربه كريشباب .. فضلا عن ابليا الرائعة التى دفعت طفلها ثمنا لهواجس أبيها اللعينة - نحن نغادر الرواية وقد عرفنا الكثير عن الظروف التى قدمت بنيكولا الى ذلك المكان القصى فى الصحراء الشرقية ، وعن المعتقدات الاسطورية التى لا يزال بدو المنطقة يحيون اسارى لها ، وعن الظلم المذبح الذى لم يجدوا لمقاومته حيلة .. ولكن التفهم الواضح لطبيعة العمل الروائى يسم الاحداث - فى تصاعدها ، وفى تفصيلاتها الصغيرة وجزئياتها - بما يجعل من الاحداث المتناثرة ، الموغة فى القدم ، والانية ، والنسى تصنع غدها ، قطعة نسيجية متكاملة .

لقد تفرد الفنان بساحة العمل الفنى ، يهبنا رواءه ومذاق عطائه الخاص وتميزه ، وغزل خيوطه من قراءاته ومشاهداته وخبراته فى نسيج الرواية ، واثرى روايته باسهامات الفنون الاخرى ، فثمة التبقيع اللونى كما فى اللوحات التشكيلية ، والهارموني الموسيقى ، والفلاش باك ، والتقطيع السينمائى ، والديالوجات التى تضيف الى الحدث تصاعدا دراميا النح .. مما تتسم به الفنون المعاصرة بعامه ، من حيث استفادة كل فن بما تملكه الفنون الاخرى من خصائص جمالية وتكنيكية ... فيتحقق للفن القصصى ابعاد جديدة ، وتحقق ابعاد جديدة للفنون الاخرى ، مما يجعل رأى ادوين موير أن بعض الفنون - مثل النحت والرسم والموسيقى - تتحقق فى بعد واحد فقط ، اقرب الى تسمية الشمس بانها تقوم كل يوم بدورة من الشرق الى الغرب ، واغفال « ابعادها » الهامة الاخرى . ولعل بذلك أناقض دعوى بعض الروائيين الجدد - ناتالى ساروت مثلا - بأن النقولة فى الفن خطأ يجب تجنبه ، وأن الالتزام الوحيد فى الفن هو الفن نفسه . برغم ان ابداعات هؤلاء الروائيين - وايدولوجياتهم أيضا - ترفض تلك الدعوى . فهمة الروائى - فى تقديرهم - هى « اعادة بناء العلاقة بين الانسان والعالم » .

واخيرا ، فلقد أراد برسى لبوك ان يسجل رواية « الحرب والسلام » لولستوى فبدأ حديثه متسانلا : ولكن ماذا عن الرواية او مضمونها الذى احب ان اسمه

مضمونا اخلاقيا ؟

لقد قدم لنا تولستوى فترة ما من مسار الزمن ، ولكن ما الهدف من تقديمها ؟

واعتقد ان العديد من القصص التي تضمها المجموعات القصصية السابقة لصبرى موسى ، تواجه - بالحاح - ذلك السؤال . فالاكتفاء بتسجيل ظواهر الاشياء ، والعناية بالرشاقة الاسلوبية واللفظية ، والبعد عن تعمق المشاعر والبواعث الدفينة للتصرفات . ونلاشى وجهة النظر من خلفية الصورة .. ذلك كله فرضته طبيعة التحقيق الصحفى التي قاومها صبرى موسى فى كل اعماله ، فنقلت عليه أحيانا ، وتغلب عليها فى احيان أخرى ، حتى تخلص منها فى روايته الفريدة ، وتبسطى الفنان مسيطرا على فنه ، متمكنا من أدواته . مستفيدا من كل محاولاته وخبراته السابقة فى تقديم عمل روائى ، هو - فى تقديرى - من أنضج ما قدمته الرواية العربية المعاصرة .

« فساد الامكنة » تعبير عن النضوج المؤكد الذى حققه صبرى موسى فى رحلته الفنية .. بل لعل أضيف ان الرواية ستظل معلما واضحا فى مسار الرواية المصرية بعامة ، يضاف الى المعالم الأخرى الأقرب اكتمالا - فى حينها - بدءا بعلم الدين ، ومرورا بعبداء دنشواى ، وزينب ، وابراهيم الكاتب ، وعودة الروح ، ودعاء الكروان ، وقنديل أم هاشم ، وروايات نجيب محفوظ . والسقما مات . والخيط الأبيض ، والشارع الجديد ، والحرام ، وشجرة اللبلاب ، والرجل الذى فقد ظله ، وإيام الانسان السبعة ، وغيرها .. وانتهاء بفساد الامكنة .

## على شلش

« اسمعوا منى بتأمل يا أحبائى ، فانى مضيفكم اليوم فى وليحه ملوكية ساطعكم فيها غذاء جبليا لم يعهده سكان المدن . سنما احرك أرغمن لسانى الضعيف . واحكى لكم سيرة ذلك المأساوى نيكولا ٠٠٠ »

بهذه الكلمات التى تبدنا الى مقدمات الرواة فى السسر الشعبية يستهل صسبى موسى روايته « فساد الامكنة » التى فازت بجائزة الدولة الشمجيية . وبهذه الكلمات أيضا يحدد المؤلف موضوعه ومنهجه معا ، فالموضوع هو « ذلك المأساوى نيكولا » والمنهج هو السيرة التى يرويها راو من النوع القديم الموروث . ولكنها لبست من السسر الشعبية المألوفة الا فى بعض مظاهرها الشكلية المحدودة . فالراوى هنا له يعلم حائنة الاعين وما تخفى الصدور . ولكنه الد « حرر اذا صصح التعبير فهو بأذن لشخصياته بالشعر عن نفسها بالمولوح الدالحى فى طل رفائنه وتوجيهاته . أو سمعى آخر هو يعبر عن مونولوجها الداخليه طردنه الحاسة . ويصوغ سيرة نيكولا بحيث يجرى تأملانه فى ثنايا نصورات نيكولا وردود فعله . وهو فى تحرره . لا ينسى التحرر من وحده اللغة والرمز فسراوح بين الزمن الماشى والفعل المضارع فى السرد والحكى والنصوير .

اما نيكولا نفسه فقد شاء الراوى أيضا . وهذا البداية . ان يقدمه لنا ششخصا

مأساوي . ووصفه بالمأساوي جزء لا يتجزأ من ناله الراوى ودكتاتورينه . فيكولا يظهر فى البدايه رجلا مأساويا بحق . ساخ بذنه وهرم غفله ولعب بلسانه أخط أنواع الخمر . بعد أن أخنى عليه الدهر .

وحتى ندخل الرواية - السمره هذه من عنوان أنسبه بعناوين مفهومات كتب الاثروولوجيا أو الجغرافيا السياسية يقول : « الدرهب .. ملمح شبه نهائى » . فالدرهب هذا جبل رهيب من جبال الصحراء السرفيه يصوره الراوى من عل . بلقطة بانورامية طويلة كأنما يلتقطها من طائرته هليكوبتر برل عمودية . ونبطه . حتى تصل الى « سكولا العجور » ذلك المسمى باسم مديس . غاريا هناك تحد شمس أغسطس الجهممة ..

ثم سقدم مع الراوى . أو بتقديم الراوى بنا . حتى يقول لنا فيما يقول فى نيكولا هذا ان « حسنه الأوربي الاصل قد اكتسبت سمره عامقة أصبله وشعر رأسه الغزير قد أبهى تماما وصار فى لون القطن » وأنه يعيش فى وحده قاسية فى ذلك الفضاء الرهيب ولا يملك الا ذكريانه ومأساه التى كتبت فصلها الأخير ابنته وعشيقته فى وقت واحد . حين انهار عليها حجر بداخل منجم يبط الجبل الرهيب فغيبها عن نيكولا الى الابد مثلما غيب عقله أو كاد أن يغيبه !

عند هذا الحد تصل الى الفصل الثانى . هكذا بلامقدمات . وكان المقدمة السابقة هى بذاتها الفصل الاول .

ثم تتوالى الفصول بعد ذلك فنتابع سكولا مع الراوى . ناره من الخارج وتاره من الداخل . ناره مع غيره وناره مع نفسه . ناره فى القمة وناره فى الحضيض وفى وحدته الغريبة الحافلة هذه يعود نيكولا الى الماضى قبل أربعين أو خمسين سنة - فليس ثمة شئ محدد تحديدا صارما وكل شئ واقع بين الحقيقة والخيال . أو الحقيقة والافتازيا - يعود الى يوم محنته مهورا باليئس من المعرفة فى بحر الجوال . ولكن أية معرفة هذه ؟ هل هى معرفة الصحراء وجبالها وحوافها وقاطنيها ؟ لقد نلاشى هو نفسه فى الصحراء وحل فيها حلولا صوفيا . فهل المعرفة فى التلاشى والحلول ؟ لقد صمادى البشرارية واحبهم فهل المعرفة هى المصادقة والحب ؟ لقد نعرى من كل شئ . يربطه بالاطر والتقاليد ؟ فهل المعرفة هى النمرى من الاطر والتقاليد ؟ لقد صعد نيكولا فى سلم الجهاد الناحه وبلغ درجات عله ثم هبط هبوطا مفاجئا متلاحقا فهل المعرفة بين الصعود والهوط ؟ لقد آثم وصايج ابنته وانجب منها طفلا وفدها مرغما الى ملك ضليع فهل المعرفة هى الاثم أو حرية الاثم ؟ لقد حاول الانتحار فى نوبة من نوبات السقوط المدمر المكبل بالآثم وتشجيعه فهل المعرفة هى الانتحار والهروب ؟ لقد ألتذوه من محاولة انتحاره فهرب الى الصحراء وهام على وجهه ثم غاب اياما فى احد سراديب



المسجد الجبل . ولما عثروا عليه وعثرت عليه ابنته ظهر ولكن ابنته لم تظهر وابتلعها  
الجبل فى نوبة غضب عبثى . فضاعت منه ايليا الصغرى كما ضاعت ايليا الكبرى التى  
هجرت ثم ضاع المسجد نفسه وصاع معه كل شئ ، فهل المعرفة هى الضياع بمعنى  
المادى ومعناه الفلسفى ؟ .

ليس ثمة تحديد صارم مره اخرى ، فكل شئ قابل للرؤية من عدة وجوه ،  
وكل شئ مطلق ونسبى فى وقت واحد وكل شئ متداخل منفرد يهتجم فى وقت  
واحد ، وربما كانت المعرفة النيكلوية هى هذا كله ، وربما أضانت اليه مسحة من  
المعرفة الزورباوية اذا صح التعبير . فنيكولا القوقازى وزوربا اليونانى كلاهما متقارب  
ومتباعد فى وقت واحد .

وعندما نصل الى النهاية ، نهاية الرواية . تطالعنا خاتمه . أو هو « فصل ختامى »  
كما سماه المؤلف . هذا الفصل يعادل الايلوج ( المشهد الختامى ) فى التراجيـديا  
الاغريقية مثلما يعادل الفصل الاول - المقدمة - البرولوج ( المشهد الاستهلالى ) فى  
تلك التراجيـديا القديمة وفيه ، فى هذا الفصل ، عود الى فصل الاستهلال ومراجعة  
للفصول البينية مراجعة تأمل نهائى ومحاولة لاستخلاص عبرة أو عظة أو كلمة نهائية  
سماها ماشئت ، ففيه هيكل الايلوج القديم وسلمه . . انه العود على البدء ولكن فى  
اطار روايى يعلن للقارئ الفرد لا للمتفرجين المأ كما فى التراجيـديا اليونانية ، أن  
معجزة الانتماء الحقيقى قد تحققت لجـد البجاة القديم كوكالوانكا حين أعطى عقله وقلبه  
وروحه جميعها لتلك المغارة المرتفعة فوق الجبل . . حتى أصبح صخرة تنبت حولها  
اشجار مقدسة . . الخ وان هذه المعجزة نفسها وشبكة التحقيق بالنسبة لنيكولا الذى  
سينحد بالطبعة مثل الجـد القوقازى القديم .

وهكذا تنتهى هذه الرواية السيره . والحق انها رواية غنية وجيدة  
نساهم مساهمة أصلية وواضحة فى توسيع دائرة اهتمامات الرواية عندنا . . فقد  
كانت هذه الاهتمامات - ولا زالت - محصورة فى نطاق المدينة والقرية ، فيما عدا  
بعض المحاولات . كمحاولة « سلمى الاسوانية » لعبد الوهاب الاسوانى ومحاولة  
« الشمندورة » لخليل قاسم ثم جاءت هذه المحاولة فدعمت التحرر من نطاق المدينة  
والقرية .

ان الرواية هنا تمضى هادئة بوجه عام . تبدأ هادئة كانها تحقيق صحفى هادى  
بلا دراما ثم لاتلبث أن تحتشد وتفتنى حتى تتسلل بمادتها الى القـارىء فتمتعه  
وتستثير قدرته على التفكير والتأمل ، ولاشك ان اسلوبها وطريقة التصوير فيها  
قد ساهما فى ذلك برغم الفصل الاول أو المقدمة التى كان من الممكن ادماجها فى

الفصل الثاني . وبرغم احتشاد رفعة الرواية بالمعلومات الاثريولوجية . وبرغم  
العبارات الطويلة المزهقة في بعض المواضع . ومع ذلك كله فقد خلق صبرى موسى  
عده مشاهد في هذه الرواية تعد من أجمل المشاهد التي خلقتها الرواية المصرية .  
وبخاصة في : حشد الاسماكوزا ، فجور الجبل ، صيد جنبة البحر ، زفاف ميد ريسه  
كريشاب على الجنبه ، محاولة نيكولا الانحار في البحر . ففي كل هذه المشاهد  
حس فنى تصويرى سنمائى جدير بالاعجاب والتقدير . وفوق هذا كله نفس  
شخصية نيكولا كواحدة من الشخصيات القليلة الملفتة للنظر فى الرواية المصرية  
المعاصرة .



## غالب هلسا

هذه رواية فده ، انضمت عنا عريب ، صعب المسالك ، غالبت من خلاله فكرة  
تلميذه الشغفد ، واستطاع هذه الرواية أن تجمع بين سرف الحازفة وبين النجاح •  
وهي تحكي قصة اسباا الله ، يسوقه فدر عامص الى جوال لا نهائي ، فلق ،  
مولد ، به تضعه في مكان في الصحراء الشرقية ، فترسى جذوره هناك ويندمج فيه  
وفقد أخذت سيطرة عليه منذ البداية فكرة - جلد بأن يصبح صخره من صخوره ، وأن  
يدوب قلعه ومعانيه في الطبيعة البكر •  
ولكن هالك عازما جذريا لن يستطيع بئكولا تجاوز • فانكان يرمضه لأن  
سكولا خارج عن دماحه اما ان الكويص العصري لبكولا عاجز عن المحذر في المكان •  
وذلك لأن جدله - أي سكولا - مع الطبيعة جدل عنيف يهدف الى اغتصابها والسيطرة  
عليها وهو بهذا يقف على نقض التجربة الصوفية التي يحلم بأن يحققها •

فعادا يكون مصير سكولا "

انه لن يكون الا مصير آخساب بطيل رواية ( موبى دك ) ومصير هاملت اللذين  
مرج بينهما سكولا في شخصه • لقد دمر الحوت الابيض سفينة آخساب وجذبها  
الى الاعماق ، ولكنه اغرق معها طائرا بريئا استتبك بعلمها ، وبهذا أصبح

علم أحباب كالشيطان الذى أبى أن يهبط إلى الجحيم إلا بعد أن يجتذب معه  
قطعة حبة من السماء ( على حد تعبير رواه موسى دك ) . وضاعت صرخة احتجاج وبعد  
إحباب المجنونة : « لو أن الشمس صغعت فسوف أزد الصمعة » .

« يقف نيكولا منارحجا على قمة خادعة . مرلجة . مؤرججا على حصى دقيق من  
الاستبسوس وبلورات الرحام ذات الإسنة القاطعة . والقواقع المهشمة من مليون ألف  
عام . يقف هناك نيكولا الذى لا وطن له . عازيا ومصلونا على الفراغ المتأرجح الحار  
وحده . تلفحه ريح الصحراء . » . ونكولا . فى واقع الأمر يتأرجح بين مكائين .  
وبالتالى بن عائلى : بن صريح المجاهد الصوفى أبى الحسن الشاذلى القائم فى وسط  
الصحراء الشرقية عند « عيناب » وبين الأدوات العصرية التى تمزق قلب جبل  
« الدرهب » وسنخلص منه كنوره لتحوطه فى النهاية إلى مجرد أطوار ضخمة فارغ  
المحتوى . وهو بهذا أيضا يقدم احتجاجه الصالح على عالمه من معطيات هذا العالم  
بالدات : الآلهة والثروة . فنية فرصة لندجده ببقى أمام نكولا السكين ؟

لقد صيغت الرواية لملغة ساعرة بوارسة (١) ترفع الاحد الصعبره إلى مستوى  
الدلالات الكونية . وبعث من قلب التيه حيوية سديده الخصوصيه . أليفة ومسيبة .  
وهي أيضا استجابة لتلك النداء الانساني العريق . الضارب فى القدم ، الداعى إلى  
استعادة الجذور . يتم ذلك عبر تجربة صوفية عميقة . حيث تكشف امتدادات الانسان  
فى قلب الوجود وتوحده فيه .

والرواية تناج مجهود مخلص يصح ان يكون مثلا للرواى الجاد الذى يجعل من  
الفن حياه . يقول الكاتب أنه أمضى ليلة فى جبل الدرهب فى ربيع عام ١٩٦٣ وفى  
ذلك الليله ولدت بذرة هذه الرواية . ثم زار الدرهب بعد ذلك بعامين خلال زيارة  
صريح أبى الحسن الشاذلى فشمع انه بحاجة إلى معايشة هذا الجبل حتى يتمكن من كتابة  
هذه الرواية . ولهذا أمضى سنة هنالك بعائش الجبل وقبائل المنطقة يجمع خلالها مادة  
روايته . ثم أمضى بعد ذلك سنتين فى كتابتها .

وهكذا فإن الكاتب قد أمضى حوالى ست سنوات يتأمل ويجمع مواد هذه الرواية  
ويكتبها . هذا فى الوقت الذى لا يزيد فيه حجم هذه الرواية عن مائة وستين صفحة  
من القطع المتوسط .

---

(١) اعتقد أنه كان بالإمكان انراء هذه اللغة لو أن الكاتب اضاف إلى التجربة  
الصوفية تعبيرات التراث الصوفى .

ان من هذا المجهود الشاق وسط اكوام الكتابة المريحة يسحق كل تقدير .  
 حالى الرواية عن سكسولا الذى لا وطن له . فقد هاجرت عائلته وهو طفل فى  
 العاصره من احدى المدن الروسية الصغيرة واستقر أبوه . وأبوه طبيبيا للاستسنان فى  
 اسطنبول إسكيا . وهذا حدث مركزى فى تكوين نيكولا . رغم ان الرواية لا تشير  
 الى ذلك بوصوح . فان انتقال الطفل من بيئة شكلته وعودها الى عالم غريب اللغة  
 والعادات قد جعل العالم بالنسبة له موضع تساؤل بدلا من ان يكون موضع قبول  
 وصاعة . وقد حدد هذا الانفجار الأول مسيرة نيكولا بعد ذلك . فآخذ يقطع كل الحيوط  
 التى سده بواقع محدد : الوطن ، أمه ، أبوه . أخوته وأصبح الا منتجى المطلق .  
 اصبح غريبا ، ومندهشا فى كل مكان لأنه منذ سن العاشرة حرمنه الظروف من اعناب  
 اى شئ . فى سن الثلاثين استقر فى احدى المدن الايطالية الساحلية حيث عمل أجيرا  
 فى مطعم وبعد ست ساعات كان يضاجع آية صاحب المطعم القوقازية « المسلحة بجمال  
 حاد » . ثم تزوجها فحاطت به من كل ناحية تدعوه الى استتقرار دائم : حدثته عن  
 مشروع كازينو وعن اتساع لا حد له للمشروع الرأسمالى . وعن الاطفال ، وعن الثراء .  
 ولكن نيكولا أدرك بحس صادق - تجز عن وضعه فى كلمات - ان ذلك لن يكون  
 الا استقرارا زائفا ، استقرارا يبدأ بقتل صاحب المطعم « قالت له ان ضربة على مؤخرة  
 الرأس لن تضر أحدا وستريح العجز من كل تعب الذى يتعبه تحت الشمس .. »  
 ولا ينتهى أبدا . فيواصل نيكولا تجواله ويتجه نيكولا الى صحراء مصر الشرقية مع  
 صديقه مهندس التعدين الايطالى .

ويسند نيكولا فى جبل الدرهب الذى يحوى فى داخله على مادة التلك .  
 ويهش نيكولا أيامه الأولى فى حالة اندهاش بالغة ، فهو مازال ينفرج ، والكان يتسلل  
 داخله وهو يجاهد ان يمد نحوه جسورا .

وهذا الجرح من الرواية هو اغنى اجزاها واكثرها فنية . وسوف نحاول بعد قليل  
 ان نشرح دلالة هذا .

يجد نيكولا صلة به وبين البدو الذين يقطنون هذه المنطقة لأن اصلهم يعود الى  
 القوقاز ايضا . ولكن هنالك صلة أعمق تتكون مع المكان عندما يجسد الموت صريحا ،  
 عاذايا : « وبين الحين والحين تبرز فجأة .. كومة من العظام البيضاء .. او غصن جاف  
 نذرف فى أعلاه قطعة صغيرة من القماش .. هى علامات الموت فى الصحراء . يرقبها  
 نيكولا ويرنجف مهابة .. » . كما ان نيكولا يعانى منذ اللحظات الأولى غمرات الوجد  
 الصوفى عندما يصحو مع الفجر ليكون أول شاهد على انبثاق الصحراء من الليل .  
 « ارنجف نيكولا ، واصطخب بداخله نوع من الشغف الرقراق . الشغف الظامى  
 للمستحيل ، فظن ان باستطاعته أن يحد بعيره فيخب به مسرعا تجاه الافق المنقسم بين

الذهب والعصاة ليمسك بقرص الشمس قبل ان يقفر مرتعنا فى السماء .  
ولكن اللحظة الحاسمة فى حياة نيكولا تأتى عندما يفقد طريقه فى الصحراء .  
ويظل خمسة ايام يبحث عن الماء فلا يجده ، يتقوده سراب يرسم له فى الافق قبابا  
وماذن وأسوارا وبوابات واشجار كثيفة الاوراق وارفة ، مثقلة بالثمار . ويكتشف  
البدوى ايسا مكانه فينقذه ويحملة على جملة بينما نيكولا فى نصف غيبوبة ، ويسير به  
خلال الطرق القديمة التى عبرتها جيوش الغرانة والرومان ، وحيثما ساروا لمحو على  
الصخور آثار الكتابات القديمة .  
وخلال ذلك كان نيكولا يتغير بشكل جذرى :

« وكان نيكولا يرتجف مهابة وخشوعا ، وقد استولى المكان على حواسه المضطربة  
بالرغبة فى التحليق . . وشعر بأنه يوشك أن يجد مكانا يرغب فى الانتماء اليه .  
« يوشك ان يجد وطننا » .

ان نيكولا بهذا قد دخل فى سياتى الصحراء ، مارس فيها الموت والولادة .  
ويتعمق هذا التغير فى داخله من خلال موقفين . الأول تعرفه بالبدوى ايسا ، الذى  
انقذ حياته بعد أن قاربت على نهايتها . « وكان متأكدا أنه قد اكتسب ايسا أخا  
وصديقا . » هذا ما تقوله الرواية . ولكننا نلمس عمقا أبعد غورا لهذه العلاقة .  
فعندما حبسا سويا شعر نيكولا « أنه قد ولد ولادة جديدة » .

وعندما يمشى ايسا على النار ليثبت براءته فان نيكولا يزحف « مأخوذا . . الى  
جوار ايسا فأمسك بقدميه واحتضنهما . كأننا شديدى السخونة ، كأنهما قد اختزننا  
لهب الحمرات وهما هما الان تخرجانه فى صدره ، الى جوار قلبه .

« أى احساس شمولى قد احتواه فى تلك اللحظات الملهمة ، فمزجه بالمكان واذا به  
فيه ، فأخذ يهمس فى أذن ايسا المغمض العينين بنجواه وجيشانه . .  
لقد كان صديقه مهندس التعدين ماريو قد اصبح بديلا لزوجته ايليا . وعندما  
جاء ايسا اصبح « بديلا لماريو ولايليا فى نفس الوقت . . وعاش نيكولا تلك السنوات  
فى الصحراء لم يرتجف جسده خلالها بشهوة الجنس . . » .  
وعندما مات ايسا عاد نيكولا منكسرا « وكان ايسا يشاركه فراشه الصغير طول  
الوقت قبل ان يغلق عينيه » وأخذ يتصوره فى كل المواقف التى رآه فيها . « وحين  
اغلق عينيه ودخل فى النوم اختفى ايسا وظهرت ايليا الكبرى زوجته . . ظهرت عارية  
كما اعتادت ان تظهر فى لياليهما القديمة » .

اعتقد اننا بهذا قد اوضحنا طبيعة تلك العلاقة العميقة والمعقدة بين نيكولا وايسا .

إن سميها بجنسية مثلية كاملة هو ببساطة شديد لوقوف يمزج فيه الاندال بالنكوص  
بالبحث عن معنى وعن طوق البجاء .  
ولقد كان موت ايسا اعمق أثرا من حياته في نفس نيكولا . لقد احس ايسا في  
المكان فيه النماء نيكولا اليه .

والوقوف الآخر الذي حسبه علافة نيكولا بالمكان هو التجسد على شكل صخره للمجد  
الأول لقبيلة البجاء « ومن بين هذه الصخور .. كان الماء العذب يسيل زلالا على المساقط  
الحديثة والغريبة للجبل . ثم يساق في وادي عذاب ليروي تلك الغابة الكثيفة التي  
لم يقدر على اجتيازها انسان إلا . حيث يعقد قبائل البجاء انها معلقة على لروح  
جدهم الأكبر القديم كوكا لوانكا . ذلك الذي أمضى عمره في كهف عميق داخل هذا  
الجبل الأبيض يصلح للمكان ويتعبد .. حتى يحول جسمه بفعل الزمن وكثرة العبادة ..  
بينما انطلقت روحه تحفر الفهم وتخرج منها ينابيع الماء .. »

أن هذا الحلول يرسخ في وعى نيكولا ( ولا وعيه ايضا ) الى حد انه يمازس  
حقسا - فيما بعد - اعتقد انه سوف يحيله الى صخره ، فهو يدخل في كهف صخرى  
من كهوف جبل الدرهب منتظرا أن يتجمد ويتحول الى صخره كما حدث مع كوكا لوانكا  
.. يحدث نيكولا نفسه :

« وتذوب كما حلمت في تلك الطبيعة التي سحرتك بروحها الجذابة والوحشية  
عن الحضر الذي قدمت منه » ..

« نبيس وتصبح صخره من الصخور في قلب الدرهب العظيم الذي اعطيته قلبك  
وروحك .. »

ولكننا سوف ننبئ فيما بعد ان هذا موقف اوربى معاصر اخذ أطواره من فكرة  
الخلاص المسححة أكثر من كونه نزوعا صوفيا .

ثم تأتي الحادثة النهائية والنفسية التي يكرس نيكولا للمكان ونقطع صلته  
بالاحياء فاحصر تلك الصلة على أرواح الذين ماتوا والتي تخللت المكان . روح ايسا  
اسى تنبعث من عمق الارض ، من البئر الذي مات في داخله . روح ايليا . ابنته ،  
التي ماتت في قلب جبل الدرهب . وبين هاتين الشخصيتين يقف نيكولا مصلوبا على  
الجبل . يعاني آلام ورعب خطيئتين : الجنسية المثلية . والزنا بالمحارم .  
وقد يشور اعتراض هنا . فان نيكولا لم يرتكب أيًا من الخطيئتين . فما الذي  
يدعونا الى القول انه ارتكبهما . وانه يعاني بسبب ذلك ؟

اعتمد أن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في ان جنون نيكولا وعذابه هما رد فعل

لرغبته العنيفة المؤلمة في كسر هذين المحرمين ، وإن طغوس عذابه ان هي المحاولة عن التكفير عن رغباته التي تحققت من خلال الابدال - رمز الافعى التي قتلت ايسا - ورمز رأس الجماعة الذي اغتصب ايلبا الالنة - .

وفي الرواية حكاية اخرى موازية لحكاية نيكولا . ولكنها اقل توفيقا . لقد كان نامكانها ان تكون اكثر خصوبة لو أن المؤلف غالجا نأناة اكثر . ونعني بها حكاية عبدره كريشباب مع عروس البحر التي اغوت ابن عمه وابن خاله وأخاء . وفي كل مرة تكرر العروس لعننها وفي كل مرة تنتصر . انها تخاض نزعها الغرامة في وسط ديكور اسطوري الجمال . « يكون البحر منبسطا كمرآة صماء شديدة السكون في هذا المحيط الشامل المضاء بالنجوم » وبينما الرجال مستغرقون في الصدد « وفجأة نهر عبونهم على سفحة الماء اصوات قوية مفاجئة » . واذا شعر عروس البحر طاقبا يلتمح . ينبوح في السكون كنغمة فطرية رائعة ! » .

يجد احد الصيادين نفسه منجذبا اليها . يقاوم ويقاوم فلا يستطيع . ثم فجاء يلقي نفسه عليها فيلتمش شعر العروس المصنوع من اسلاك الذهب حوله وتغوص به العروس الى عالمها . فيعود الرجال ولا يعود هو أبدا .

وفي المرة الاخيرة . عندما فقد عبد ربه شقيقه أقسم بن الرجال أن يأخذ ثأره من عروس البحر . وواقع الامر ان رغبة عبد ربه في الانتقام له تكن الاقشرة خارجية . لقد اغوته العروس هو الآخر وما طلبته لها الا استجابة لذلك الانواء الذي لم يكن بعنه ولكنه غلبه .

وتتحقق كل رغبات عبد ربه كريشباب . ولكن ذلك يحدث كما في الكوابيس . فلمقد تسببت الانفجارات التي تجريها بعض الشركات للبحث عن البترول تحت ماء البحر الاحمر في مقتل احدي عرائس البحر . ويسحقها المد حتى نقف أمام عبد ربه . اما ذلك الغرام الاسطوري . البدائي . الذي أشعلته فيه العروس فيجد نهايته السعيدة عندما تطلب مجموعة من افراد الطبقات العليا وعلى رأسهم الملك من عبد ربه ان ( يدخل ) على العروس ويضاجعها أمام عبونهم . فيفعل ذلك . وينتهي الى الجنون . حتى ادعاؤه نابه هو الذي اصطاد العروس تنفيذا لعزمه على الانتقام يسرقه الملك منه . فتوضع العروس في منحف الاحياء المائنة ويكب عليها ان صاحب الجلالة هو الذي قد اصطادها .

وفي رأيي ان التحلل الموقف على هذا المستوى الكاريكاتيري قد اهدر امكانات رائعة يتضمنها الموقف . كما ان توازي هذه الحادثة مع مأساة نيكولا بنانيا وانفصالا قد حدث وكاد ان يلاسى . مما جعل هذه الحكاية تبدو وكأنها مقلدة على سبيل الرواية .



ان رواية « فساد الأمكنة » هي محاولة متفردة فى أدبنا العربى الحديث كما اعتقد لبعث تجربة صوفية لها تاريخ عريق فى تراثنا الفنى والفلسفى . وتقتصر هذه التجربة على جانب واحد من جوانب النظر الصوفى ونعنى به وحدة الوجود . وهى تتجسد هنا بحلول الانسان فى العالم . وهى بهذا المعنى تقترب كثيرا من الفكرة البدائية التى ترى ان جميع الموجودات مسكونة بأرواح تسطر عليها - وتسييرها .

يقول ابن خلدون عن هذا الجانب من التجربة الصوفية فى مقدمته :  
« ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك فذهب الكثير الى الحلول والوحدة كما اشرنا اليه ، وملأوا الصحف منه » .

ولكن هذه التجربة تطرح فى رواية « فساد الأمكنة » بمعطيات معاصرة تأخذ اطارها من فكرة الخلاص المسيحى ، كما اشرنا منذ قليل . ان المعطى الأول هنا ، هو قلق الانسان المعاصر الذى انتزع من جذوره واطمئنانه ومنع حرية لم يعد يعرف ماذا يفعل بها . ان أحد الاستجابات الانسانية لهذا القلق هو رغبة الانسان ان يتحول الى شيء ، كما احس ماتيو فى رواية سارتر « دروب الحرية » عندما وقف فوق الجسر يطالع اندفاع المياه تحته . وبكلمة أخرى . ان هذا الدوار الذى يصبب انسان العصر يجعله يحلم بالتوصل الى سكنوية وثبات يصبح فيهما - فى التحليل الاخرى - جزءا من الطبيعة . ولكن انسان العصر عاجز عن تحقيق هذا المسعى الا عن طريقين لا ثالث لهما ، وهما : الموت أو الجنون . ان كلا منهما تلاؤم مطلق مع الطبيعة وانهاء لتمررد تلك المادة الغريبة - الانسان - التى وعت موتها وحاولت جاهدة ان تتخلص من قانون الطبيعة . ولهذا السبب ذهبت جهود نيكولا فى الحلول عبثا ووقف متأرجحا بين العزم على انتهاء حياته وبين الجنون . لم يكن اعداده العصرى من ناحية ، والتغرب الذى فرض عليه منذ الطفولة أن يجد مكانا يرسى فيه جذوره على هذا النحو الشعائرى المتخلف . ونختلف تجربة نيكولا اختلافا جذريا مع التجربة المسيحية وهى تجربة التضحية بالذات والحلول فى اجساد الآخرين لتطهرهم من ذنوبهم :

« وفيما هم ياكلون أخذ يسوع الخبز وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا . هذا هو جسدى . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم . لأن هذا هو دمي للعهد الجديد الذى يسفك من أجل الكثيرين لغفرة الخطايا . » .

وهذا الطقس ، الذى تحول فيما بعد الى طقس القربان المقدس يحمل المعنيين : معنى الحلول حيث يمتزج جسد متدقق القربان بجسد المسيح ، ومعنى غفران الذنوب . ولكن نيكولا الذى يجسد فردية العصر كان يبحث عن خلاصه الذاتى لا خلاص

الآخرين ، فلذا كان يهدف الى الحلول الطبيعية . وخطيئة الاصلية هي أنه أكل من شجرة معرفة الخير والشر فطرد من جنة التلازم مع الطبيعة الى عذاب معرفة الخير والشر وبالتالي الانفصام عن الطبيعة . هذه هي خطيئته الحقيقية التي جسدها بذلك الوهم بأنه ضائع ابنته .

كم هو باطل سعي نيكولا وغير مجد عندما يهجم في شرارته الصخرية منتظرا ان يتحول الى صخرة .

ولأن هذه الرواية امكانية ممتازة وبسبب التميز الذي عالج به الاستاذ صبرى موسى موضوعه فلا بد ان نحاسبه حسابا عسيرا على بعض التناقض التي أضرت بهذا العمل وافسدت بعض مزاياه .

ان موضوع الرواية هو علاقة الانسان بالكون . أو بشكل أدق وضعه فيه . والرواية محاولة اسطورية - مأساوية لتجاوز الموقف الانساني . وهي لهذا اتخذت من الاسطورة اطارا وخلقة . وقد لعب اسلوبها الثوراني القخم ومجاراتها المستمدة من التراث الديني دورا هاما كمنصر بنائي . ولقد نجحت الرواية في هذا الغرض بشكل عام .

غير اننا في بعض الاحيان نجد الكاتب ينسى ذلك كله ويحاول ان يجعل من الاسطورة مبرر لعلماء مصطلحات علم النفس . وكأنه بهذا يقدم اعتذاره عنها . وفي هذا نشاهد ثنائية في البناء تسمى كثيرا الى هذا العمل الجيد . وقد اتينا بمثال على ذلك فيما سبق عندما تحدثنا عن حكاية عبد ربه كريشاد مع عروس البحر .

ان الاسطورة تفسير شامل للحياة والكون ، وتحتوى في داخلها على شمولية التجربة الانسانية . ولكننا عند تحويلها الى علم وضعى يدرس زاوية واحدة من زوايا التجربة الانسانية فنحن نفقد الاسطورة شموليتها ومخاطبتها لعمق التجربة الانسانية الكلية .

والاسطورة تنجسد في طقوس وشعائر لا في تفاسير العلم الوضعى . ومن هنا كان الوعي بالاسطورة هو تجاوز لها . ولكننا نجد نيكولا يعنى بوضوح ومنطقية طامة الوقت بأنه يجسد اسطورة وتصبح رغبته في الحلول والتواجد مع الوجود موضوع تجارب معملية :

« استبسط نيكولا وفتح عينه فلم ير غير الظلام مطبقا حوله . . واكتشف ان عظامه قد تجمست حسما حاول تحريك قدميه للذهوض وقد سرت فيهما برودة نفاذة . . لقد بدأ الامر بعدمك وسافك وكفك وسوف يسرى اليك في ذراعك رينسلل منهما عبر جسديك كله فصبح متسلسلا . . ونذوب كما حللت في تلك الطسعة التي سحرتك . . »

وينجم عن هذا ، الى حد بعيد ، خطأ جمالى آخر ربما جعل بعض اجزاء هذه الرواية اقرب الى الريبوراج اذا جاز ، عما عن جلال الاسلوب . وذلك عندما تتحول السجارب فى العمل الفنى الى مجرد امنية يخضعها الكاتب الى تحليل مطول يفسر الدلالات ويشرح المعنى . من ذلك مثلا حذره سكولا عندما يرى نفسه فى حمام تركى عازيا مع ابيه ويمهى الحلم بمحاولة ان يضاحك . اه يكسف انها اسمه . ان الكاتب هنا يفسر الحلم بن مسهد الحمام التركى هو تعبير عن رغبة سكولا فى البراءة . وقد حملته البراءة الى تصوع الصحراء ووضوحها الخ . . وزعم ان هذا التفسير لا ينسقى مع أى من مدارس علم النفس فى تفسيرها للاحلام . ولكن ما بعنسا هما هو ان الدلالة طمعت على الحلم . وان الحلم اصبح مجرد مثال توضيحى .

وفى واقعة عبد ربه كريشاب وعروس البحر حدث بسطوح لبناء اسطورى رائع هو جوهر المضمون الفنى من خلال التحليل وذلك لسببين :

**الاول :** ان المؤلف قد اختار من التفاصيل تلك التى تجعل من عروس البحر مجرد سمكة كبيرة . فتلاشى بهذا البناء الاسطورى الذى ننمذ الى عمق علاقة الانسان بالطبيعة وتحول الى مجرد نكاهة .

**الثانى :** ان الكاتب قد جعل عبد ربه يصاحب السمكة استجابة لرغبة الملك بينما هذه الرغبة موجودة عند عبد ربه كريشاب فى الاسساس . فنبينها من خلال منطق الاسطورة ذاتها ، ومن خلال كون هذه الواقعة دوازية ناساء سكولا .

ونستطيع ان نقول نفس الشيء عن التحليل الذى اورده الرواية لتفسير اندفاع أحد الصيادين من مركبه نحو عروس البحر . فهو يفسر ذلك بانه اشسبه بالتنبؤ المغناطيسى منجاهلا الجذور الاسطورية ، مما ادى الى افقار هذا الجزء من الرواية .

وبكلمة أخرى فانا هنا نتمسهد أن ما هو جوهرى يتحول الى مجرد مثال توضيحى ، وتحولت الامداد ، فى بعض الاحاس ، الى برهان عن مقولة . ومثل هذا الموقف مقبول فى مجال توضيح الانكار . لا فى مجال التجسد الفنى .

ولهذه البنا الوضعية فضل خطر آخر ، وهو ان الطاهرة الفمية - مثلها مثل وفانع الحياه البومة دون ان يكونا مطاوعين - لا يمكن ان يستغذاها تفسير واحد حتى ولو كان هذا التفسير من صنع المؤلف نفسه . اعد وصعب عشرات التفسيرات لشخصه هاملب نذكر منها على سمن المثال لا الحصر : تفسير ت . س . البوت ، وتفسير ارنسنت حرنز ، والتفسير الذى قدمه الفيلم السوفيسى الشهير لشخصية هاملب وتفسير برادلى ، وتفسير سدنى فنكلشتاين وغرها . . . وجميع هذه التفسيرات قد تلقى اعواء على شخصية هاملب ولكنها لا يستغذاها . فما برال هاملب تحديا مفتوحا لكن

فنان أو دارس ليعيد تفسيره وسوف يظل كذلك أبدا .

ونأخذ على هذه الرواية ان تلك اللغة الشعاعية الجليلة ، التى تنبعث بتوهج خاص نتيجة لصياغة جديدة للجملة ولاختيار تلك الالفاظ التى لم يقتلها التداول . . ان هذه اللغة تحول فى احبان كثيره الى شرك ، فتصبح الاستعاره أو المجاز منطلقا للاستطراد ناسيا ان نقطة الانطلاق الأولى والاساسية هى الشخصيات والاحداث والمواقف . وسوف أورد مثالا على ذلك يوضح ما اعنيه :

« ايليا شهوة جامحة . . كما ان الجبل شهوة جامحة . . ما الغريب فى أن تتكرر داخل جسده تلك الرغبة حين يقف فى قلب الدرهب العظيم . . فى السرايب الحارة والسرايب الباردة . . بتجنس الجدران البكر مختبرا طراوتها . . محمدا بالطباشير الابيض علامات لعماله ليثقبوها بآلاتهم . . ويحشروا فى بكاراتها اصابع دنفجراتهم » .

« كأنه فعل جنسى من أفعال الاخصاب .

« أأست نخصب الآن هذا الجبل فعلا يا نيكولا ؟

« وما انزالاك الدؤوب فى رحم هذا الجبل سوى سعى لزرعه وايلاده ؟ . .

« وينتبه نيكولا ، سنما يغطيه تراب التفجيرات الداخلية التى تهتك بكارة الصحور الى ان الدرهب أصبح بديلا لأيليا . . زوجته . . » .

وبن نعلم من الفصول السابقة واللاحقة ايضا ان عزوف نيكولا عن زوجته ، منجاوزا البحث عن بديل لممارسة الجنس مع زوجته . كما نعلم من سياق الرواية ان الجبل لم يكن بالنسبة لنيكولا تعبيرا عن محاولته لتحقيق الارنواء الجنسى ، بل تكاد تكون عكس ذلك تماما :

رسوخ صوفى وامتداد فى الطبيعة .

واعبار الجبل جسدا يمارس نيكولا فيه الجنس لا يمكن ان يكون تفسيرا لعزومه عن زوجته ولا يمكن ان يكون الجبل بديلا لها ( أو هذا على الاقل ما تقوله الرواية عن سبب انصراف نيكولا عن زوجته فى الفصول الاولى ) . اننا نعلم ان الفرويديين يفسرون فبادة السارة بأنها عملية جنسية رمزية وبديل جنسى . ولكن لا أحد يستطيع أن يزعم ان قيادة السبازة تغنى عن ممارسة الجنس الحقيقى ، أو أنها حتى تخفف من رغبة الجنس .

هنالك أيضا نقص آخر فى الرواية عجزت عن قبوله . ففى الوقت الذى نجح فيه الكاتب فى تصويره لشخصيات مثل نيكولا والشيخ على وايسا وعبد ربه بحوية

واقناع عجز عن تصوير شخصيات الملك والباشا والخواجه وأنطون وأقبال هانم وغيرهم من شخصيات الطبقات العليا . ان الشخصيات هنا تتسطح ، وتصبح نمطية ذات بعد واحد . لا يعانى اى نوع من الصراع . ويتضح من قراءة الرواية ان سبب ذلك يعود الى انطلاق المؤلف من موقف اخلاقي .

ان الاستاذ صبرى موسى يلجأ الى التبسيط المبالغ فيه ، فتصبح الشخصية واعبة باحطاطها ، ونفسه وتسلك على اساسه دون محاولة حتى للتبرير الدائى . وان وجدت امثال هذه الشخصيات فمن المسحوق علينا ادانتها . وبهذا يصبح حكمنا الاخلاقى عليها ناقصا وغير منطقي .

والفنان يتجاوز الحكم الاخلاقى حين يخلق فنا ، لأن الفن خلق والحكم الاخلاقى هو رؤية جاهزة نحو موقف من وجهة نظر الجماعة . وكما ان للعمل الفنى منطقه الخاص المختلف عن منطق العرف الاجتماعى له ايضا اخلاقيته الخاصة . ان مدام بوفارى مدانة اخلاقيا بحسب العرف الاخلاقى ولكنها فى داخل رواية فلوير شخصية انسانية فاجعة ، كانت ضحية لزوج بليد ومجتمع راكد . ويمكننا ان نقول نفس الشيء عن شخصية ( كادى ) فى رواية فوكنر ( الصخب والعنف ) .

وبكلمة اخرى فان الشخصية المدانة يطل لها وجهة نظرها وتبريرها لسلوكها الذى يختلف عن حكمنا الاخلاقى عليها . وعلى حكمنا الاخلاقى حتى التابع من العمل الفنى . ان الشخصية الانسانية فى الفن اكثر تعقدا وخصوبة من ان تكون مجرد فعل خاطئ يستحق ادانة بسيطة .

ان اغواء ايليا نتضاجع الملك بواسطة وصيف الملك الخاص لا يمكن تفسيره عند ذلك الوصيف بقولنا « فجرى عقله المدرب المأجور مجراه المتوقع والمعتاد .. » .

هذه الرواية كما قلت عمل متميز . وهى نتاج جهد جاد ومخلص ، وهى قد طرحت بأصالة ومن خلال تجسيد فنى جيد مشكلة انسان العصر ، أو على الاصح مآزقه . فلم يكن نيكولا مجرد رمز لازمة يعيشها الانسان الغربى ، بل هو ايضا شخصية نابضة .. حبة تطرح فى نفس الوقت أزمتها الخاصة وتسعى حتى الموت لحلها .

ان انسان العصر عاجز عن تحقيق السعادة من خلال دموية الصراع فى مجتمع المشروع الحر ، وفى الوقت ذاته فان عودته الى الماضى ، الى جنة عدن المفقودة ، وبالتالي الى سكونية ينسجم فيها مع الطبيعة والعالم مستحيلة ايضا .

اننا بالطبع قد نعمترض على وضع الانسان امام خيارين لا ثالث لهما ، وكلا

الخيارين مؤلم و رهيب . ولكننا نستطيع ان نستنبط قيمة ايجابية من مجرد هذا الرفض .

واذا جاز لنا قد ان يضيف الى تقييمه للعمل الفنى امنية ، واذا جاز له ان يطالب بان يحقق هذه الامنية فانى اتمنى لو أن الاسطورة فى هذا العمل كانت فى الخلفية ( كما حدث فى الكثير من الاعمال الفنية الكبرى : « الشمس تشرق ايضا » لهينجواى ، « الارض الخراب » لايلىوت ، « المسيح يصلب ثانية » لكازنزاكس ، « موبى دك » لبفل وغيرها ) ولو ان الكاتب قد ركز على عينة تلتقط الوقائع وتصيغها دون تفسيرات وضعية تبرر ما لا يمكن تبريره الا اذا أدركناه شموله ولغته الخاصة واعنى به الاسطورة .

ان الرواية ترفع فنيتهما عندما يدع الكاتب عينه وتلقائته تعبران . مثال ذلك وصفه لأول دخول لنيكولا الى عالم الصحراء :

« وعلى طول الطريق الذى قطعوه بين الجبال فى ذلك الصباح القديم مروا شجرتين أو ثلاث » .

« الشجرة تكون وحيدة فى الارض القفار فتصبح ظلا ، فيفىء البدو بأغنامهم تحت هذا الظل و يقيمون مسكنا من الحيش . يهدمونه ويرحلون حين تعجز الاغنام عن ايجاد ورقة خضراء تأكلها » .

« ومن خلال الظل هذه ، كان يخرج لهم بين الحين والحين مخلوق يعترض العافلة وذراعه على عينيه .. ويهمهم بلغة غير مفهومة وهو يلوح بسيفه الطويل المصدى .. فصب له الشيوخ على قليلا من الماء فى وعائه . ويعطيه سيجارة ، فيبقى الرجل على الارض ويأخذ فى التدخين بنهم .. » .

لقد حزننا بالفعل لان هذه الطراجة انتقدت فى بعض اجزاء الرواية ، وغلبها طابع ذهنى تحليلي .

وانمى كذلك لو ان الكاتب احبانا لم تأسره خفة ولباقة التعابير الصحفية ، فلا تلد ايليا طفلة لجرد ان تكرر نفسها . أى ان لا نهره حلالة العبارة فيستغنى بها عن النفاذ الى موقف شديد التعقيد والخصوبة .

## د. مجاهد عبد المنعم مجاهد

نشر هذا الحوار فى مارس عام ١٩٧٥  
بالمجلد ( ١٥٧ ) من مجلة المصرفة ،  
السورية ، وقد نشر معه مقال تحليل  
للدكتور مجاهد بعنوان « الشكل مع  
المضمون ، ملتجما » نشره ايضا بعد هذا  
الحوار .

ليس فوز صبرى موسى بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧٥ مجرد حدث عادى مما  
يتكرر كل عام . فان تكريم صبرى موسى هو تكريم لجيل كامل هو الجيل الذى سقط  
بين الجيلين ، الجيل الذى تفتح ابداعه مع بدء الثورة المصرية فجاء جيلا له طابع  
خاص . . لقد تفتح فى ظل اللبرالية ، وفى الوقت نفسه كان يستشرق أبعاد التغيير  
الاجتماعى ، وكان نواة ابداع خاص . وكان ملهما لجيل بعده . . وسقط هو بين  
الجيلين . . انه جيل صبرى موسى وبدر نشأت وفاروق منيب وعبد الله الطوخى  
وصالح مرسى وكامل أيوب وسيد جاد ونجيب سرور . . انه الجيل الذى ركز على  
الفن والابداع ، ولم يركز على تنسم المناصب الاجتماعية فلم يتمتع بشهرة كافية ،  
ممالقى بظل على تجربته الابداعية فأجهدما ، ولم يجعلها تكتمل تماما . . وانتهى  
اما بالصمت ، واما بالابتعاد ، واما بالتغرب . . ولم تبق الا قلة قليلة تجدد فى

صمت واخلاص . ومنها عبرى موسى الذى توج شسوط ابداعه منذ مجموعة قصصه القميص عام ١٩٥٨ برواية فساد الامكنة عام ١٩٧٣ ، وقد آن نتعرف على الفنان من داخله ، فكان هذا اللقاء .

● د . مجاهد : فلنبداً من جبل الذهب .. الاطار الذى تجرى من خلاله أحداث الرواية .. نريد أن نعرف بشئ من التفصيل ، كيف نبتت فكرة رواية فساد الامكنة ؟ ..

صبرى : فى الحقيقة سنجد صعوبة فى اختيار التفاصيل التى تجيب على هذا السؤال .. فقد ظلت الرحلة للصحراء تستهوينى منذ وعيت أن مصر بلادى مسرعة من برانن تلك الصحراء انتزاعا ( هبة النيل ) .. وكم كانت دهشتى وأنا أراها من مقعدى فى السماء داخل طائرة .. شريط رفيع طويل اخضر ، لا يكاد يرى وسط مساحة هائلة من اللون الاصفر الصخرى .

وقد كانت رحلتى الصحراوية الاولى ، فى الخمسينات ( ١٩٥٨ ) تجاه الغرب وراء السلوم وحدودنا مع ليبيا .. وبدت لى الصحراء الغربية آنذاك جبرية بيضاء تبدو فقيرة عاطلة ازاء البحر العظيم الابيض .. ولا أظننى قد كتبت بعد تلك ارحله سوى بضع مقالات تتناول بالاشفاق حاجة سكان تلك الصحراء للاهتمام والرعاية .

وفى السيات ( ١٩٦٣ ) رحلت الى الصحراء الشرقية ، فيما وراء اسوان والسد العالى وحدودنا مع السودان .. رحلت أكثر من مرة بأكثر من وسيلة .. مرة بالطار حتى فقط ، ومنها بالسيارة - عبر طريق الحج القديم - الى القصير على البحر الاحمر . ثم مرسى علم وابو غصون ، الى الصحراء الحقيقية .. ومرة أخرى بالسيارة مباشرة من السويس بحذاء البحر الاحمر حتى برانيس فى أربع وعشرين ساعة ، اشترت بعدها سجانرى من قرية حلايب المصرية السودانية التى تنزوى على شاطئ البحر الاحمر خارج نطاق الحدود الدولية .. وخارج نطاق الزمن .. حيث باع لى سجانرى الامريكية الحديثة المستوردة مخلوق أسمر فى ثياب بيضاء ، يضفر شعره على طريقة فراعنة طيبة القديمة !

ومرة ذهبت بالطائرة .. حملتنى من القاهرة ذات فجر ، واستقطننى بعد ساعتين ونصف ، فى قلب الصحراء عند حماطة ، وهى نقطة صغيرة للأمن والاتصالات الاسلكية ، تبعد ساعة وربع ساعة بسيارة النقل القديمة عن جبل الذهب ، حيث كان مقررا مبيتى فى معسكر خشبى مهجور ، يخص منجما قديما عاطلا عن العمل . وأعترف لك اننى لم أجدا أبدا فى هذا الجبل ما يميزه عن غيره من الجبال الاخرى ، سوى اسمه غريب الايقاع والتكوين .



لقد ظل هذا الاسم يلج على حبال طوال اربعائى فى الصحراء . وكانما هو  
لعر مهيب تلقىه الطبيعة عبر طريقى يعترضنى ويطلبنى بتفسيره ..  
وتضاف الى هذا اللغز تلك المعطيات البكر التى منحتهالى الطبيعة عبر الرحلة  
واهمها . الاحساس الغامر الحقيقى بجسدة كل شىء وبكاراته .. وكانما العالم  
يوجد فى تلك اللحظة فقط بالنسبة لى .. رغم قدمه الشديد .. مما يعطينى الحق  
بان اصبح له فوائبه وفواعده لا يدا فى تشكيله على هواى .. وأبتكرك له مخلوقاته  
وسكانه .. فكيف اذا لا تنبت فى داخل فكرة هذه الرواية ؟

### ● د . مجاهد : وهل مازالت للدرهيب فى نفسك بقية ، يمكن ان تصلح موضوعا لعمل فنى قادم .. ؟

صبرى : احبانا يخيل لى أن الدرهبى فى فساد الامكنة قد تحول الى رمز  
للارض بشمولها . وأن نيكولا يجتهد على طريقته ليكون الانسان فى شموله .  
وقد اكتفت فساد الامكنة بأن تضع نيكولا فى مواجهة كل الاسئلة التى  
يطرحها الدرهبى حول فكرة الوطن والزواج أو الاسرة .. والجنس والعمل  
والصداقة .

وقد بدت الاسئلة التى يواجهها نيكولا ، عنيدة وقاسية لدرجة أنه يسلم  
بعجزه فى النهاية .. ويرغب - هربا من هذا المعجز - أن يتحد بالطبيعة الام ،  
فيصبح حجرا أو صخره من صخور الجبل .. ويصبح بالتالى قويا وعظيما مثل  
الطبيعة .

وعلى هذا الاساس اعتقد أحيانا أن التصميم الفنى فى فساد الامكنة ، لم يترك  
لى فى الدرهبى بقية لعمل فنى قادم .  
ومن يدري .. فبالنسبة لى ، فان أبشر ولد ايسا البدوى ، ما يزال يوجد فى  
ذاكرتى الفنية ، ويلج عليها بين الحين والحين .  
د . مجاهد : لقد خيم على الرواية جو الاسطورة والجنس والموت .. فهل  
هناك تأثيرات لاعمال كازنتزاكس وهيمنجواى والطيب صالح ؟

صبرى : أنا معجب بهؤلاء جميعا .. وبغيرهم أيضا .. لكننى أحب بتحيز كل  
الاساطير القديمة ، واعتقد انها أثرت فى منهجى واختيارى .

### ● د . مجاهد : لقد بدأت بالقمص ، وهو مجموعة قصص قصيرة .. فكيف حدثت النقلة عندك من القصة القصيرة . الى الرواية .. وما هى مراحل تطوورك الفنى .. ؟

صبرى : القصة القصيرة لم تكن البداية .. لقد بدأت رساما ونجحت الى حد ما .

وحينما فشلت فى الشعر حاولت القصة القصيرة .. وحين جاء زمن السفر والترحال استهوئتنى محاولة تسجيل الرحلات .. كانت بالنسبة لى تعمقا فى معمرفة الارض والناس ، ومهربا من نوعية العمل والحياة المعتادين .. ولعل ذلك هو ما قادنى الى الرواية .. وقد استهوانى فن السينما أيضا . فكتبت عددا من السيناريوهات .. فنديل أم هاشم . البوسطجى ، الشيماء ، رغبات ممنوعة ، رحلة داخل امرأة .. ثم عدت من جديد للرواية واوشك أن أنتهى هذه الايام من رواية ( السيد من حقل السبانخ ) .

● د . مجاهد : يلاحظ بصفة عامة فى انتاجك اهتماما شديدا بالصورة ، والصياغة الفنية - كيف تكونت هذه الخاصية المميّزة لديك ؟ وهل تنمىها بشكل واع ؟

صبرى : لقد بدأت كما قلت رساما ، وقد حاولت الشعر ، وهما فنّان يعتمدان اعتمادا جوهريا على الصورة .. ثم ان الحياة كلها صور .. أما الصياغة عندى فهى محاولة التعبير بهذه الصورة ، التى تقول كل شىء بأقل الكلمات الممكنة ، ولكن المشكلة دلت فى اختيار هذه الكلمات فان كثيرا من الكلمات التى تستخدم قد فقدت معناها الجوهري الحقيقي من كثرة الاستخدام .. وأنا أدرب نفسى باستمرار على لعبة الكلمات سهو . فاعيد ترتيبها وتشكيلها بحيث تبدو جديدة وتكتسب قدرة على الايهام ، والايحاء .

● د . مجاهد . بمناسبة الحديث عن الصور ، يلاحظ أن الصورة عندك ذات طابع ساعرى .. فما هى علاقتك بالشعر ، وهل يمكن للفن القصصى أن يستفيد من الشعر ؟

صبرى : مارلت أطمح أن اكون شاعرا ، واعظم القصص تأثيرا . سوف تجد روح الشعر فى صياغته ..

● د . مجاهد : ماهى المكونات الخاصة التى جعلتك تفلت تماما من اسرار نجيب محفوظ ، يوسف ادريس ، انطون تشيكوف . الذين دمغوا معظم كتاب القصة من جيلك تماما - من ناحية الشكل والمضمون - بطابعهم ؟

صبرى : أنا رغم كل شىء قليل الانتاج ، ولعل هذا يعطينى فرصة البحث والاختيار والتجديد المستمر .. وحتى فى مجموعاتى القصصية القصيرة التى جاءت بعد القمص « حكايات صبرى موسى » و« مشروع قتل جارة » ، سوف تجد ان كلا منها قد اقلشت من اسار سابقتها . واختلفت عنها .

وكذلك أيضا تختلف فساد الأمكنة كرواية ، شكلها الفنى ومضمونها عن

سابقتها : « حادث النصف متر » .. ولسوف تختلف كثيراً « السيد من حقل  
السيانج » عن سابقتها « فساد الأمكنة » .



تطرح أعمال صبرى موسى كلها ورواياته الأخيرة « فساد الأمكنة » بصفة خاصة  
قضية جمالية : هل الصورة الفنية هي مجرد جزء من الصياغة الفنية أم انها هي لب  
العمل الفني ؟

ب  
بشكل آخر : هل الصورة مجرد تجسيد للعمل الفني لإبراز مضمونه أم هي  
المضمون نفسه ، واننا اذا جردنا العمل الفني من هذه الصورة لم يبق منه ونو حتى  
هيكل واهن يشير الى الفن ؟

وطرح هذه المشكلة بهذا المنظور انما يكشف عن بعد آخر فى القضية ، بعد  
حضارى ، اذ كيف استطاع صبرى موسى ( الا ) يدخل تحت مظلة نجيب محفوظ  
الذى دمج جيل صبرى موسى فى غالبية بطابعه الاجتماعى فى الابداع ؟  
كيف شذ صبرى موسى عن جيله المتأثر فى النص القصيرة بفن أنطون تشيخوف  
الذى يجد وجهه المصرى عند يوسف ادريس ؟

فلنتأمل هذه الصورة الواردة فى الرواية : « فيتداعى الى ذهنه مشهد قديم  
لزوجته هذا الباشا المسماة اقبال هانم التى تصغره بواحد وعشرين عاما .. شبه  
عارية على رمال مرسى علم الساحلية ، ممددة بجسدها اللدن المعطاء أمام ماريو الجالس  
بحوارها شبه عار هو الآخر .. يجمع قواقع البشيش الدقيقة الحجم الشموجة الالوان ،  
ويرصها جامدة ساكنة على الجسد الانثوى العارى ، فتتلاها فى وهج الشمس الغاربة  
كانها فصوص من جواهر تزيينه وتزيده فتنه ، فما تلبث الحيوانات اللزجة الدقيقة  
المختبئة فى تلك القواقع ان تظمن للدفء المنبعث من حرارة اللحم . فتخرج اقدامها  
الهلامية وتزحف بقواقعها على جسم المرأة ، بنشاط وسرعة هنا وهناك ، حول الرقبة ،  
والشدين ، وفوق البطن ، وداخل السرة . كأنها قد دبت الحياة فى القواقع فجأة . بينما  
تتلوى اقبال هانم مددغة مثارة ، تصرخ وتضحك ويختلط ضحكها بصراخها فيخرج  
من فمها الشهوانى على ذلك الشاطئ البكر مزيج من الرعب المصطنع واللذة .. » !

هل هذه مجرد صورة منتزعة من الواقع فحسب ؟  
أم هي القدرة على التشكيل الفني بحيث أصبح الواقع اسطورة والاسطورة واقعا ؟  
لسنا هنا أمام الممكن المستحيل النادر الحدوث كما يظن بالفن عادة ، بل نحن أمام  
المستحيل الممكن وأمام فن فحسب ، بل نحن أمام اسطورة فنية أو فن أسطورى .  
فهل مثل هذا التشكيل يصلح له البعد الاجتماعى ؟

ولقد أدرك المؤلف تنافر التجسيد الفنى الاسطورى مع البعد الاجتماعى المباشر فلم يأخذ منه سوى قشرة رقيقة .. ولقد نماذج طريقه الفنى مع البعد النفسى أساسا ليكون كل هذا لا فى أمكنة واقعية تماما ، بل فى أمكنة تكتسى هى الاخرى بذلك الطابع الاسطورى الذى يشكل جوهر فنه وأسلوبه الادبى .

وأين يمكن العثور بمثل هذا المكان الاسطورى الا فى جبل حيث عمليات التعدين وحيث البشر متحدون مع الطبيعة ومغتربون عنها فى وقت واحد ، وليبرز هذا أيضا بشكل أكثر عمقا مع بطل أسطورى هو الآخر ، ولا يمكن أن يتهيا هذا إلا بانسان مقتلع من جذوره غير ثابت نباتا طبيعيا فى أرض المكان وانما هو مقيم اقامة مصطنعة .. انه المقيم العابر والعابر المقيم ، مغترب فى عواطفه وفى مصيره . وهكذا حتم التجاء المؤلف الى هذا الاسلوب فى عرض الصورة الى أن تكون هى نفسها محتوى العمل الفنى بحيث جاء هو الآخر تشكيلا اسطوريا .

وارتسمت الصورة البانورامية للرواية : جبل الدرهبى بدماليزه وصخوره وتاريخه العريق وكنوزه ومعادنه قرب الحدود المصرية السودانية فى الصحراء الشرقية .. ليس مجرد جبل مادى ، بل هو أيضا أسطورة .. فقد كان الدرهبى « هلالا عظيم الحجم . لايد أنه قد هوى من مكانه بالسماء فى زمن ما ، وجثم على الارض منهارا متحجرا يحتضن بذراعيه الضخمتين الهلاليتين شبه واد غير ذى زرع ، اشجاره تنوءات صخرية وتجاويف ، احدثتها الرياح وعوامل التعرية خلال آلاف السنين» (ص ٧) وهذا الجبل يحمل فى باطنه فى آن واحدة : المادة والاسطورة تجسيدا للحضارة والجشع معا ، وهو مقبرة لزعيم المتصوفين أبو الحسن الشاذلى : مقبرة مرت وخلود معا .

وهكذا تقع فى هذا الجبل الاحداث الاسطورية .

فالمؤلف يعي محتواه وتشكيله معا .. ولهذا تنتهى الرواية بنيكولا غارقا فى الحمر وسط الامكنة الفاسدة « يقع مستندا بظهره الى صخور الدرهبى التى بدأت فى التلجج . حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفل الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب ، ويبدأ المشتري يتأرجح بعيدا فوق الصحراء الكبرى .. فيسبح عقل نيكولا فى الملكوت » .

وهكذا يستعيد صبرى موسى للعمل الفنى أصالته بأن يكون متميزا يستحضر شخصية مؤلفه وهى مهددة غير متكررة .. ويستعيد للعمل بعض عنامته التى افتقدها طوال جيل كامل من القصاص المصرى الغارق فى شدة الوضوح .. ويستعيد لنا أن العمل الفنى هو أولا وقبل كل شئ عمل فنى قبل أن يكون رؤية اجتماعية ، وأن

العمل الفني هو الكلى من خلال الجزئى .. انه البحث عن خطيئة نيكولا المغترب  
المتوحد .. انه المتناهى من خلال اللامتناهى .. انه الخطيئة والتكفير معا .. انه العجز  
ازاء اسرار الحياة .. انه الانسان الضائع وسط لاتناهى الطبيعة التى هى مقبرته  
ومفخرته معا .. التى هى عامل انتصاره وانهزامه فى وقت واحد .

وهكذا بصبرى موسى ينشأ وضع : ليس المهم فقط أن تكون فنانا بل المهم أيضا  
أن تعى أبعاد هذا الفن ، أى أن ترسم له تخطيطاً وأن تكون على دراية بتشكيله  
وصياغته وتجسيده وإبرازه .. و « فساد الأمكنة » ليست فحسب عملاً روائياً رائعاً  
دا ملامح خاصة ستتحفر فى مجرى التاريخ الأدبى لمصر الحديثة ، بل الرواية عمل فنى  
يثير قضايا جمالية وربما تكون بذرة دراسات نقدية وفنية جديدة ، وتتيح للنقد وعلم  
الجماليات فرصة طرح قضايا متنوعة .. إن « فساد الأمكنة » تؤكد المقولة الهامة .  
أن العمل الفنى العظيم هو ملهم الدراسات الفنية والجمالية العظيمة .. وسيتظل  
خزانها المنية الجمالية أخصب من أية دراسة نقدية عنها ، بل هى بكل أبعادها  
السيكولوجية واليتافيزيقية ستكون منطلقاً جديداً فى فن الرواية المعاصرة .



---

صدر للمؤلف :

---

- القميص قصص قصيرة
- حادث النصف متر رواية
- فى الصحراء تسجيل رحلة
- حكايات صبرى موسى حكايات دنيوية
- مزدحمة بالحوادث ، والمفاجآت ، حكاية للضحك ، وحكاية للبكاء .
- فى البحيرات تسجيل رحلة
- وجهها لظهر قصص قصيرة
- مشروع قتل جارة قصص قصيرة
- فساد الأمكنة رواية

---

تحت الطبع :

---

- ملاحظات زائر مبتدىء تسجيل رحلة
- السيد من حقل السبانخ رواية
- آدم ذو الألف وجه صور للرجال عن قرب

كتب المؤلف تطلب جميعها من مكتبة روز اليوسف  
شارع أمين سامى بالمنيرة . القاهرة